رواية

مذكرات مجنون في مدن مجنونة

محمد حسين الصوالحة

تصميم– محمد فتحي المقداد

محمد حسين الصوالحة

مذكرات مجنون

في مدن مجنونة

ISBN (978-9957-6944-1-8)

إهداء خاص

** إلى روح والدي الذي علمني كيف يكون الجنون منفذاً للحرية، وباباً واسعاً للحياة.

** إلى أمي التي كنت زغرودتها الأولى، وأبت إلا أن تنجب بياض القلوب.

** إلى زوجتي ورفيقة دربي التي طالما ضايقتها بجنوني؛ فتهديني ابتسامتها، إلى التي أتاحت لي كل الظروف لأمارس جنوني، وإن كان على حساب قلبها، إلى أنا الثريا أهدي حروفي زهوراً.

** إلى الأخت والصديقة عنان رضا محروس التي وقفت بجانبي لإصدار هذه المذكرات، مسخرة وقتها وجهدها تنحني حروفي عاجزة عن شكرها.

** إلى من فتحوا لي قلوبهم ، وأبواب لبنان لأكون بينهم ابنا وأخا وصديقاً، ولم يبخلوا عليّ بشيء من وقتهم، فكانوا الساهرين على راحتي .. لهم، هل يكفي هذا الإهداء، وهل يكفي الشكر؟! لهم جميعًا منّي كلّ الشّكر والتقدير.

***

تقديم

إطلالة بقلم الكاتبة عنان رضا المحروس

للعمل الأدبي قطبان؛ قطب فني، وقطب جمالي. القطب الفني يكمن في النص الذي يخلقه المؤلف من خلال البناء اللغوي ،فهو يحمل معنى ودلالة وبناءً شكلياً. أما القطب الجمالي فيكمن في عملية القراءة التي تُخرج النص من حالته المجردة إلى الحالة الملموسة .

أي أنه يتحقق بصرياً وذهنياً عبر استيعاب النص وفهمه وتأويله، ويَعْبر العمل إلى الإبداع من خلال تجربة الكاتب الواقعية والخيالية، وهكذا يظهر الفكر والخيال والوجود الظاهري للأشياء، وهذا ما نلاحظه في " مذكرات مجنون في مدن مجنونة " للكاتب محمد صوالحة .

أدب الرحلات، من أجمل أنواع الأعمال الأدبية؛ فهو يوثق كل ما صادف " الرحَّالة الكاتب " عبر تنقلاته ، فيصف الأماكن التي زارها ، ويلقي بالضوء على عادات الشعوب ، فيستمتع القارئ؛ لدرجة أنه قد يشعر بأنه يشاهد فيلماً سينمائياً مصوراً، أو كأنه عاش في تلك المدينة حقبة من الزمن.

هكذا هو أسلوب الكاتب محمد صوالحة، وخاصة أنه استقى معلوماته من مشاهد حية وتصوير مباشر، جمع فيها المعلومات الجغرافية والتاريخية والاجتماعية بمنهجية رشيقة خاصة به ، تدفعك لقراءة كتابه أكثر وأكثر .

ونعود لمسمى أدب الرحلات فهو مسمى واسع ، فرغم التباين بين : ابن بطوطة، ماركو بولو، تشارلز داروين، آرنست همنجواي، ونجيب محفوظ، إلا أن الفكرة التي تجمعهم هي فكرة الرحلة نفسها زمانياً ومكانياً ونفسياً.

وللأسف في ظل التطور التكنولوجي، والمعلوماتي بدأ فن أدب الرحلات يغيب بشكل ملحوظ عن الساحة الأدبية العربية، وما أحوجنا لهذا التجاسر البشري الطبيعي بعيداً عن الجمود والآلية الحديثة والمادية، التي تنقل الصورة نقلاً مجرداً خالياً من الروح .

عنان رضا المحروس

2017

****

في الفسطاط

ملعونة هي الدنيا بكل ما فيها؛ لأنها متطرفة بكل أشيائها، تأخذ كيفما تريد، وتترك كما تريد، ملعون هو المال قل أو كثر ؛ كما هي ملعونة حياتنا؛ تعطي وترفع من تشاء، وتعض وتهمش من تشاء، ملعون هذا القلب الذي أحب السفر، وعشق الترحال، ولم يجْنِ من فوائده إلا الذكريات، وبعض أشخاص تآلفت الروح بأرواحهم فتولدت الصداقة وكانت المودة .

ملعونة هي المسافة التي تفصل العيون عن مواطن الجمال، والقلب عن نبضات الحب، والخيال عن الانطلاق من عقاله ليعود بأحلام وردية، وأحياناً كوابيس تحتاج إلى عمر إضافي حتى تجتاحها ، فاسدة هي العاطفة إن لم تعشق الطبيعة وتذوب فيها كما تعشق الحسان وليالي الأنس .

آآآه ما أسعد الطيور وما أشقى الإنسان؛ أي حرية هذه التي يدعيها، وهو إما حبيس الفقر أو سجين التأشيرات، التي يُسمح لك من خلالها دخول أرض شقيق أو بيت صديق .

آآآه ما أسعدني لو تحولت طيراً؛ أرفرف بأجنحتي متى شئت، وأهبط أنى شئت، وأينما شئت .

آآآه ما أضيق العمر لولا فسحة الجمال.

آآآه ما أبشع الكلمات لولا إنها تطرزت بأسماء النساء، وتوشحت بقصائد الحب والغزل.

آه ما أقصر أيام الإنسان في هذه الدنيا، وما أعسر الحال.

ما الذي أيقظ فكرة السفر بداخلي من جديد ؟ ولماذا تغطي صورة مصر كل مساحات الخيال؟ لماذا مصر دون غيرها تراودني عن نفسها، فأجدني أهم بها كما همت بي؟ لماذا هذا العشق لسيدة التاريخ ، وأم الحضارات؟.

كنت قد قرأت سورة يوسف من كتاب الله، وأبهرتني حيث رأيت تجربة النبي الحكيم بمصر، والمكانة التي وصل إليها، تجلت لي صورة مصر وعدالتها، ورجوعها للحق إذ زاغت عنه أو غفلت للحظة، كذلك قرأت نصيحة الله جل وعلا لبني إسرائيل بالهبوط لمصر؛ ليأكلوا مما تنبت الأرض، عندما أرادوا استبدال المن والسلوى ، وكنت قد شاهدت بعض الأفلام التي تتحدث عن قدرة المخابرات المصرية على

اختراق الموساد وأجهزة الدولة العبرية ومؤسساته الفاعلة؛ كل هذا أغراني بالذهاب إليها للاقتراب من هذا الشعب وهؤلاء الناس؛ لأتعرف على طبيعتهم عن قرب .

نعم سأذهب لمصر؛ لأرى إنسانها والذي بقدر ما كرهته وحقدت عليه بقدر ما أحببته وعشقته،عندما تعرفت إليه في بلاد الاغتراب الحقيقي، نعم؛ سأدخل مصر، سأطوفها من شرمها إلى أسوانها، سأدخل أرض الكنانة؛ لأرى شيئاً من حضارتها الضاربة جذورها في عمق التاريخ .

تناولت جواز سفري، وفي الصباح اتجهت لدائرة الأحوال المدنية والجوازات العامة لتجديده ، وخلال ساعة من الزمن كان عمر جوازي يمتد لخمس سنوات قادمة ،آآآه لو أن عمر الإنسان يتجدد كجواز السفر ، من هناك تابعت رحلتي إلى إحدى الشركات المتخصصة بنقل الركاب، حجزت تذكرتي وحدد يوم السفر بيوم الخميس، على أن أكون أمام مقر الشركة في الثامنة صباحاً، كون الرحلة ستنطلق من العقبة إلى نويبع في نفس اليوم لتصلها ظهر الجمعة .

عدت للبيت منتشياً؛ الروح ترتدي ثوب ، كيف لا أتألق بثوب السعادة وأنا سأزور أرض الإسكندر الأكبر، وأدخل مدينة المقاومة والفداء، كيف لا أعتم بعمامة الزهو وأنا سأصافح الفراعنة، سأدخل مصر آمناً

بإذن الله؛ لعلي أرتمي بأحضان زليخة، أو ألتقي بواحدة من صويحبات يوسف، لعلي التقي بأسيا أو أشفع للماشطة عند فرعون العظيم، كيف لا وأنا أقف بحضرة أول الموحدين من الفراعنة (أخناتون)، كيف لا يتملكني السرور وأنا سأقبل يدي كليوبترا ونفرتيتي، وسأعانق حتشبسوت أول فرعونية حكمت لمدة تزيد عن عقدين من الزمن، وهي أول المناديات بحقوق النساء، لتثبت أن هذه الأرض هي صاحبة الريادة والمبادرة في كل شيء، كيف لا وأنا سأقف بحضرة أبي الهول وأدخل الأهرامات عساني أعثر على شيء يكون جديداً .

مساء الأربعاء "أي قبل السفر بيوم واحد" افتعلت مشاجرة مع زوجتي؛ لأغادر المنزل دون أن تسألني عن وجهتي، لأني أعرفها جيداً ستصر على مرافقتي فتفسد عليّ رحلتي، أو ألغيها وأنا لا أرغب بهذا أو بذاك .

اتصلت بأحد أصدقائي؛ ويدعى محمد سليمان وأبلغته بأني سأكون في مدينة السويس ظهر الجمعة، فأخبرني بأنه سيكون بانتظاري هناك، وكنت قبل ذلك قطعت اتصالي بالأهل والمعارف؛ لئلا يعلموا عن نيتي في السفر، فيخبروا زوجتي، ويكون ما أخشاه .

في حوالي السادسة والنصف من صباح الخميس أيقظني المنبه، فنهضت من نومي، اغتسلت وبدلت ملابسي، تناولت حقيبتي الصغيرة، وغادرت دون أن تستيقظ، ووصلت إلى آية الله في الأرض، إلى مدينة الخلود إلى مدينة الحلم والجنون في حوالي السابعة والنصف أو الثامنة إلا ربعاً، أين سأقضي الوقت الطويل المتبقي عن موعد الرحلة الذي تأجل لمدة ساعتين ؟ .

رحت أتسكع في شوارع العبدلي ، أودع وجوه الصبايا، أودع الشوارع وأوصيها بأن تبلغ أشواقي وقبلاتي لكل من يمر بها من حسان أو متعبين.

***

لقاء فاطمة

وحان الموعد وصعدنا إلى الحافلة، وكانت تجلس إلى جانبي امرأة في بداية الثلاثينات كما قدرت ، أنظر إليها، أتأملها ، لا بل تعريها نظراتي، أود محادثتها، لا يعقل أن أبقى أربع ساعات دون أن أتكلم، كانت تحضن طفلها، فوجدت ضالتي، وجدت الطريقة التي أكلمها بها، وقبل أن أبدأ بكلامها، قالت بشيء من التوتر: لماذا تنظر إلي هكذا؟ قلت: فقط أود أن أسأل عن سر بكاءك والدموع التي تملأ عينيك، فلا شيء في الدنيا يستحق أن نحترق لأجله مهما كان، " اضحك للدنيا تضحك لك الدنيا، وابكي تبكي لوحدك ".

دعني؛ فلا شيء يستطيع أن يطفئ حزني إلا هذا الأمل الذي أحمله بين يدي ، بالتأكيد سيأخذ بثأري من الدنيا، كان الحزن البادي على وجهها يضفي جمالاً على جمالها ، وكان بريق الدموع يزيدها حسناً على حسنها .

- هل تقبليني لك أخاً وصديقاً حتى نصل مصر؟ شيء أعتز به، ولكن للأخت حقوق على أخيها وأخشى أن أزعجك .

-لا والله يا.. (فاطمة قالت) .

- لا والله يا أختي .

لا أدري سر التعاطف الذي قضى على الرغبة في المتعة بالنظر إليها ، لا أدري بعدها كيف مر الوقت ، كنا نضحك ونتبادل النكات ، كنت متأكداً بأن ابتسامتها ما هي إلا للمجاملة والتخلص من جمر الدموع، التي كانت تسح بين الحين والآخر من عينيها، كان كل همي أن أخفف من حرقة الحزن الساكن فيها،ولهيب الدموع المتحجرة في تلك العيون .

وكنت أتسأل بيني وبين نفسي هل أنا بحاجة لمزيد من الحزن والقلق، فأنا أبحث عمن يخفف من النيران المشتعلة بداخلي، أبحث عمن يمسح دموع القلب، ويخفف من وجع الروح المتعبة،ولكن المتعة بالجمال لها ضريبتها،مرالوقت وطويت الطريق ووصلنا العقبة .

أنزلنا حقائبنا وهبطنا لننتظر الحافلة التي ستوصلنا إلى العبارة التي ستقلنا إلى أرض الجمال والخصب ، لحظات قليلة وجاءت الحافلة وصعدنا إليها، سارت بنا فترة قصيرة لا تتعدى ال عشر دقائق ثم هبطنا،أخذتُ جواز سفرها وحملتُ ابنها وذهبتُ لختمِ الجوازات،وفعلاً تم هذا،ودخلنا إلى الباخرة .

اتخذنا أماكننا في جوفها وما هي إلا دقائق قليلة حتى أطلقت صافرتها معلنة الرحيل عن الشاطئ الذهبي ، وراحت تشق صدر البحر ، تبعثر مياهه.

قلت لها : سأبحث عن مكان مكشوف أستطيع من خلاله رؤية البحر.

- انتظر قليلاً،سأدخل أيمن إلى الحجرة وأعود.

آآآه لو أخذتني معها لتلك الحجرة التي ستكون بالتأكيد من حجرات الجنة ، قليلاً من الوقت وعادت وقد بدلت ملابسها ،آآآه أي قمر يطل على عيوني ، كم تمنيت لو كنت ذلك الشال الذي يغطي الليل المنسدل على كتفيها ،آآآه لو كنت ذلك الثوب الذي يدثر بستان الكرمة المزروع في جسدها.

أي شيطان هذا الذي يسكنني ويثيرني ويجعلني أعري كل ما تسقط عليه عيني ، عيني التي لم تترك شيئاً إلا واقتنصته، وأي جبن هذا الذي يسيطر علي فيبعدني بقدر الشهوة التي تسكنني، أي أنثى هذه التي تقترب مني ، هل هي فاطمة بحق ، وصلنا إلى شرفة الباخرة وقالت: انظر إلى البحر ، وتأمل قلبه الكبير، وكم يحتوي من الكائنات، وكيف يتعامل معها؟ أي حنان الذي يعمره ، أي حب هذا الذي يسكن قلبه ؟

نظرت إليها وردد القلب ، أي بحر أنظر إليه وأنت معي ، أي موسيقى أسمعها وصوتك يرن بداخلي فيسرقني من الدنيا ، وأي حب هذا الذي تتحدثين عنه وأنت الذي بعثت في شيطاني الحياة وأنا الذي قتلته في بداية الرحلة .

- ما بك ترتعش قالت ؟

ومالي لا أرتعش وبجانبي معنى الأنوثة وعنوان الرقة أناجي نفسي.

- أشعر بشيء من الخوف قلت لها .

- من ماذا ؟

- لأني أخشى أن أكون طعاماً للأسماك ، قلت .

- أليس أفضل من أن تكون طعاماً للدود .

اقشعر بدني ، ورحت أتسأل من أين جاءت بهذه الفلسفة ، أتراها فلسفة الحزن ، أنظر إليها من جديد أرى الدموع تنساب من عينيها وهي تنظر إلى البحر ، أمد يدي وأعيدها رغبة جامحة بأن أتطهر بمسح دموعها وملامسة تلك الوجنة ، ولكني كنت أتراجع عندما تنظر إلي أو عندما تقترب يدي من ملامستها خوفاً وخجلاً .

لا أدري كيف مرت الساعات ، لم أشعر بنفسي إلا ونحن في نويبع، لم يقطع جلستنا في الخارج إلا مواعيد الطعام ، أو طلب المشروبات الساخنة أو الباردة .

في نويبع ودعتها.

- فقالت : لوتس(محمد) أود أن أخبرك بشيء كنت أود لو فعلته، بل كنت أتمنى أن تفعله؛ لأشعر بحنان الأخ الذي أفتقده؛ لأحس بالعطف والأمان ، فأنا لا إخوة لي إلا ذلك الذي سرقته مني الغربة، ورحلة الكفاح والثورة على الفقر والجوع .

-ما هو وأنا افعله الآن مهما كان؟

- قالت: كنت تمد يدك لتمسح دموعي، وكنت تتراجع !!

-آآآه لأني كنت أخشى أن أفهم خطاءً، فأخسرك للأبد، وأنا لا أرغب بذلك .

- قالت لا والله أنا دائما أتعامل مع الأشياء بنية حسنة إلا إذا ثبت العكس، أو كان إحساسي ينبئني بسوء نية المقابل .

آآآه لو تعلم نيتي ..آآآه لو تعلم عن شيطاني بماذا يوحي إلي ، لو تدري بماذا أفكر الآن ؟ولكن كيف تظهر الطيبة على ملامحي رغم نيران الشهوة التي تشتعل بداخلي؟

صافحتها، قبلت يدها، وإذا بمحمد سليمان يقترب مني، وهو يقول: " أنت هنا وأنا بدور عليك يا لله بينا ".

غادرنا ميناء نويبع، ما زال البحر يواجهني، ولكني هذه المرة وأنا على اليابسة ، أهذا الذي كنت قبل قليل أمتطي صهوته ، هذا الذي يفصل بين حاضرة الأنباط وبين أرض النضال والتضحية، أهذا الذي وصفته فاطمة بصاحب الحب الأسطوري ، والآن تأكدت من ذلك وأنا أرى الأمواج تتراكض خلف بعضها البعض حتى الشاطئ، فتتكسر هناك لتعاود الكرة المرة تلو المرة .

يا إلهي ما أجمل هذا الكبير ؟ أهذا هو الماء الذي حمل عرش الرحمن ذات وقت ؟ أهذا هو الذي كان منه كل شيء حي ؟ أهذا هو الطاهر دائماً ولا يدنس ؟ أهذا الذي كانت الباخرة التي أقلتنا قد أعملت مشرطها في صدره ؟ يا لاحتمال البحر وصبره ، آه ما أعظم الحب الذي يسكنه ويعمر قلبه ، أليس هو الذي عبرت فاطمة عن حبها له وإعجابها بقدرته على العطا، وتمنتْ على البشر أن يتحلوا بما يتحلى به .

وما أن توسطنا مدينة السويس حتى برقت الذاكرة وراحت تسح أمطارها ، إنها المدينة التي أصرت أن تأخذ بثأر أبنائها ، وأن لا يذهب دم شهدائها، الذين زاد تعدادهم عن مئة وعشرين ألف شهيد من مصر الكنانة؛ ارتقوا سلم الخلود وهم يحفرون قناتها ، إنها المدينة التي وقفت في وجه التحدي الظالم والعدوان الثلاثي الغاشم، الذي شنته انجلترا وفرنسا وإسرائيل في العام 1956 .

وتذكرت حديث أبي ذات ليلة كيف قام الأهالي بصد العدوان الذي شنته قوى الظلم والطغيان على مصر، التي كان يقودها الزعيم العربي الراحل جمال عبد الناصر لتثنيها عن قرارها الجريء بتأميم القناة، قال أبي وهو يسترجع تلك الأيام: يابني في ذلك العام لم يقاتل الجيش المصري لوحده ، بل انتفض الشعب وثارت المدينة على قوى الاستبداد والاستعمار شيبها وشبابها ، نسائها وأطفالها، كانوا يقاتلون بالعصي والحجارة، كانوا يقاتلون ، كانوا يقفون وراء الزعيم عبد الناصر، وكان النصر حليفهم ، وكان لإرادتهم أن تنتصر ، وخاب العدوان وعاد يجر أذيال الخيبة والخسارة .

في هذه المعركة تجلت النخوة العربية من خلال الفتى البطل القومي الهوى، السوري الهوية جول جمّال، والذي قصف وزملائه إحدى

حاملات الطائرات حتى أغرقه ؛ ليخبر العالم بأسره أن الأرض والانتماء لقدسيتها هي من تجمعنا، وإن اختلفت طوائفنا وأدياننا.

أي شعب هذا الذي يقاتل بإيمانه ولا شيء غير الإيمان ولا ينتصر، ألم تسمع يا بني بقوله تعالى : "**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**" ، إنها الأرض عندما تثور، إنه الإنسان عندما تتحرك فيه الكرامة ويحرضه الكبرياء .

إلى أين نحن ذاهبون يا أبا سليمان ، إلى القاهرة يا محمد ، سنصلها في حوالي الثامنة مساءً.

آآآه يا أبا سليمان كم أنا متعب ، إلى أي فندق أنزلني ، أريد أن القي بجثتي وأنام.

- " ليه الندالة دي " .

- ما بك يا أبا سليمان؟

بيت أخيك موجود وتذهب إلى الفندق، أي بداوة هذه التي تتحدث عنها يا لوتس ودوماً تفاخر بها، أهكذا علمتك بداوتك .

-أبو سليمان: أنا لا أقصد أبداً ما فهمته ولكن...

-"لكن إيه" ؟ لا شيء مما تقول سيحدث؛ فكما تقولون في الأردن وهو أهم ما تعلمته عندكم أن الضيف إن أقبل أمير وإن جلس أسير وإن رحل شاعر، وأنت الآن أسيري .

نشعل سجائرنا والسيارة تبتلع الطريق التي لا أكاد أراها من هول السرعة، ولم أكن أنظر لشيء أو أفكر بشيء إلا باللحظة التي أصبح فيها ضيف الفراش وأسير النوم .

***

في القاهرة

في حوالي السابعة والنصف أو أكثر بقليل وصلنا القاهرة، يا إلهي الشوارع تزدحم بالمارة والمركبات، الأنوار تسطع في قاهرة المعز، أردد في نفسي من أين جاء كل هؤلاء؟ أي مدينة تتسع لهم؟

إن كان المشاة بهذه الكثرة ووسائط النقل بهذا الكم، إذاً بالتأكيد البيوت خالية من ساكنيها.

كل القاهرة أو كل مصر الآن في الشارع، كنت أشعر بالسيارة عندما وصلنا إلى القاهرة تسير بتثاقل عجوز هرم، فهي لا تكاد تتحرك.

لفت انتباهي أثناء سيرنا سوق كبير بالقرب من ميدان التحرير يدعوك للدخول، لا بل يجبرك على أن تدخله ، إنارته الملونة تغريك بالولوج إليه، طلبت من أبي سليمان التوقف لنتجول في ذلك السوق ، ثارت دهشتي واستيقظت بداخلي الأسئلة ، أهذا سوق أم تجمع سكاني ؟ أم إنه معرض للجمال والفتنة المصرية ؟ أعتقد بأن جميلات مصر كلهن هنا الآن،آآآه ما أسعدني ، ولكن أنا متعب جداً، فكيف سنجتاز هذا الزحام

، كيف سنجتاز هذه الجموع البشرية ؟ وكنت أتوقع بأن هذا العالم ينتظرون الدور لإنجاز مهامهم ، سرنا داخل السوق حتى وصلنا محل طرز بعبارة الركن الهادي للزهور ، قابلنا بكل الترحاب طلبت منه أن يجهز لي باقة من الورد ، وما هي إلا دقائق حتى كان ما طلبت جاهزاً، خرجنا بعد أن ابتعت شيء من الحلويات وبعض الهدايا العينية ، خرجنا من السوق وأنا أتصبب عرقا وكنت أظن أني نسيت عيوني بداخله، زدت تعباً على تعبي من جراء الدخول لمركز التسوق الذي نسيت اسمه.

عاودنا انطلاقنا.. الزحام يزداد، وحركة السيارات ترهق الشارع، المسافة من القاهرة إلى مقر إقامته استغرقت ما يقارب الساعة من الزمن.

وصلنا إلى بيته، دخل أمامي وهو يردد أهلا وسهلا، تفضل أبا صخر، جلسنا في صالة الاستقبال، أتأملها، هل هذا بيت محمد سليمان! إنه بيت برجوازي ، استأذن مني ، غاب قليلاً، وقال: أبو صخر تفضل الحمام جاهز ، ذبت خجلاً ولم أدر كيف أرد عليه، ولكني طاوعته، دخلت الحمام ، خلعت ملابسي أشعر بأن الرخام، المرآة، الباب، النافذة الصغيرة كلها أصبحت عيون ترمقني، صوت أمي يخترقني إنها تعنفني،

أفر من كل هذا وأدندن وأنا أغرق في الحوض والماء الدافئ يغطي هذا الجسد المتعب ، كنت أحسه يسحب خيوط النعاس من جفوني ويغرز في جسدي أشياء لم أعرف كنهها .

خرجت من الحمام واتجهت إلى الصالة ، أشعر بانتعاش غريب ، أين الإرهاق الذي كان يمتلكني ؟ أين ذهبت رغبتي بالنوم ؟ صوت مخملي يخترق سمعي ويستقر في القلب؛ أبو سليمان العشاء جاهز ، تفضل يا أبا صخر ، رافقته وجلسنا إلى المائدة ، أتذكر بيتي كيف كنت أجلس على الأرض وأمامي مائدتي ، الآن أنا أجلس على طاولة وأمامي الشوكة والسكين ، لن أحرج نفسي ولن أستعملها ، لن أقترب من الصنف الذي يحتاجها، جلست زوجته برفقتنا وراحت تسكب الطعام في الأطباق ، أنظر إلى صاحبة الوجه البهي والشعر الذهبي السابح فوق الأكتاف ، والعيون السوداء الجريئة ، أشعر بشيء من الخجل وأنا انظر إلى زوجته؛ لأنه ليس من اللائق ذلك ، أحاول غض طرفي ، ولكن ما أن يفوح عبير صوتها وأسمع دندنته حتى تفر عيوني إليها ، كان أبو سليمان يتحدث لزوجته عن الأردن وطيبة أهله وكرمهم !! أسخر من نفسي ، أي كرم وأي طيبة والذي تفعله أنت ماذا يسمى ؟

بعد العشاء أحضر العصير الطازج ،آآآه كم هو شهي، متأكد أنا من أن شدة حلاوته ولذة مذاقه هذه ما كانت لتكون لو أن أم سليمان لم تخلطه برضابها،بعد أن تناولت العصير شعرت بالحاجة الشديدة للنوم فاستأذنت منه بالنوم ،فقادني إلى الطابق العلوي ، أوصلني للغرفة التي خصصت لنومي، كانت جاهزة(master) ، فأنا لا أحتاج للخروج منها حتى لقضاء الحاجة، بدلت ملابسي ، أشعلت التلفاز وإذا بفريد الأطرش يصدح على الشاشة " بساط الريح قوم يا جميل .. أنا مشتاق لوادي النيل ، أنا لفيت كتير ولقيت البعد علي يا مصر طويل " هذا الفنان العربي السوري يتغنى بمصر ويتباهى بعشقها ، وأنا الآن ماذا سيكون مني، وأنا لا أملك صوته أو موهبته ؟

النعاس يداعب جفوني، وأصوات ملائكية تخترق سمعي " عندنا ضيف .. نعم .. عندنا ضيف من الأردن، وماله يا بنتي بكرة نشوفه ونسمعه " أحاول النوم ، هذه الأصوات سرقته من عيوني ، من أين تأتي ؟ ولمن هي وكيف عرفت بقدومي ؟ أشعل سيجارة ما قبل النوم كعادتي ، أطفئ المصباح أغمض عيوني ، ولا أدري كم من الوقت استغرقت حتى غرقت في بحر الأحلام .

لم أكد أغفو حتى أيقظني أبو سليمان بقوله: أبو صخر ؛ الفطار جاهز .

دقائق فقط ، نهضت من السرير لأني مشتاق لمصر ، لأم الدنيا ، لا أرغب بإضاعة أي وقت فالأيام تمر سريعاً ولا بد لكل رحلة من نقطة تنتهي عندها ليعود كل شيء كما كان ، اغتسلت ، حلقت ذقني ، تعطرت ،وخرجت إليهم ، أصعق ، أي حوريات هذه التي تحيط بالمائدة ، أي ورود جلبها أبو سليمان حتى يحرض شهيتي على الطعام ، أي بشر ، من أي طين خلقت ، حاشا لله ما هؤلاء إلا ملائكة كرام ، جلست إلى المائدة ، أشعلت سيجارتي، نظر إليّ أبو سليمان قال : ما هذا يا أبا صخر ؟

- ماذا ؟

- لماذا تشعل سيجارتك قبل الإفطار ؟

- تعرف بأني في هذا الوقت أكتفي بالقهوة أو الشاي والسجاير ؟ .

- هنا ستتغير هذه العادة ، ممنوع التدخين قبل الإفطار ، مفهوم .

-حسنا ولكن المرة القادمة .

عفوا نسيت قبل أن أجلس إليهم عرفني بابنتيه وشقيقته ، سحر ابنته الكبرى والصغرى عبير، ورندا شقيقته ، قالت سحر وهي تضحك " أنت حر تأكل ما تكلش والنبي ما أنا قايمة" طيب أنا سأتناول طعام الإفطار عندا بك " أنظر إليهن ،آه من عيون سحر إذا ما ابتسمت

تشعربها تنطق شعراً ، نظراتها تصبح غناءً ، وإذا ما أقطبت حاجبيها راحت ترمي الناظر إليها بحجارة من سجيل تجعل القريب منها كعصف مأكول .

آآآه من وجنات عبير حقيقة كالورد في أول تفتحه ، إنها تفوح عطراً ،آآآه من رندا واسم رندا وما تعنيه رندا .

تشتعل اللهفة بداخلي وتنتابني الحيرة، ترتبك الروح وتلفني الدهشة، وتحتل فكري الحيرة ويسكنني الانبهار ، ما الذي أصابني وأنا أدخل بيت محمد سليمان؛ الواقع في أحد أحياء القاهرة القديمة ، ظلم أن تكون سكنى هذه الملائكة غيرالجنة، أومكان لا يصل إليهن فيه إلا من يمتلك كل مقومات الإنسانية والطهارة ، لم كل هذا الارتعاش الذي أصابني وأنا أنظر في عيون سحر، وأتأمل ابتسامة عبير؟إلى أين يأخذني غنج رندا وأنا أتطلع لجسدها الممشوق كعود خيزران ؟ هذه الملائكة التي ترتدي زياً بشرياً يسرق الناظر إليه إلى عوالم من الدهشة والانبهار، وكأنهن الربيع في أوج تفتحه، أو الحوريات اللاتي هبطن من جنان الله إلى هذا البيت الذي يحتضنني؛ ليخطفني لعالم الخيال والأحلام،كيف سأكلمهن، وبأي المشاعر أتعامل معهن؟ هل لبدويتي وتربية أمي أن تنتصرعلى شيطاني، أم ستكون له الكلمة الفصل؟ هل سأتبع وسوسة

هذا الملعون الذي يحتلني ،أم سأكون على قدر الكرم الذي عوملت به وأكون أكثر وفاءً؟

شيء يهمس بداخلي إنها مشاعر الوهلة الأولى والنظرة الأولى،بعد قليل سيكون كل شيء طبيعي وستضحك كثيراً من هذه الحماقات. أتمنى .

أينك أيها الملعون ؟ لم لم تكن شاعراً لأكتب بهذا الجمال الإلهي قصائدي، وماذا سيقول الشعر في حضرتهن ؟ هل ستصمد الكلمة أمام روعتهن؟ .

ألوذ بالسكون والسكوت ، والمشاعر تذيبني ، ألوذ ببهاء الصمت وأنا أنظر إلى أم سليمان، أحاول الفرار من المكان كلما كلمني أبو سليمان .

عيوني تقودني إلى تلك الكروم التي بدت ناضجة في صدري سحر الرائعة ورندا الفاتنة، وبدأت بالتفتح عند عبير ، هذه القطوف الدانية في كروم رندا وسحر بدأت تأتي أوكلها ،آآآه من سيكون صاحبها ، آه لو أني لم أملك بستاناً من الشوك ، بالتأكيد لكنت صاحب إحدى هذه الكروم ، يجب أن أغادر هذا البيت بأسرع وقت ممكن؛ لأنني لا أستطيع احتمال هذا الجمال الإلهي الظالم ، وهذا الغنج الشهي .

يقطع فيض خواطري وهطول أمطار الخيال أبو سليمان ، إلى أين تود الذهاب، أرغب بالتعرف على هذه المنطقة أولاً ومنها ننطلق، نحن الآن في واحد من أقدم أحياء القاهرة القديمة ، نحن في السيدة زينب رضي الله عنها، أتلفت يمنة ويسرة ، المكان مكتظ بالبشر ، النسوة يذرعن الطريق جيئة وذهاباً، هنا الحرائر الفرعونيات أو المصريات العربيات يجلسن في الشارع، كل واحدة تعرض نوعاً من البضاعة التي كانت في أغلبها من الخضار والحشائش ، والغاديات والعائدات لا ينقطعن ، العطر يفوح من كل مكان ، يتمايلن كغزلان تمشي على مهل ، الشالات تغطي نصف الرأس ، أنواع وموديلات من الألبسة ، تشعر وأنت تسير في الشارع بأنك تسير في معرض كبير فيه كل ما يخطر بالبال .

آه من دلع الحورياتوغنج الصبايا ،آآه من سحر النساء وفيض الأنوثة و الدلال ، هكذا هن فتيات مصر الرائعات يجدن اللعب على تلك الحبال، وكأنهن خلقن ليكن بداية الطريق نحو الخلود، إما في جنة عرضها السماوات والأرض أو في جحيم لا تبقي ولا تذر، يخفق القلب بسرعة ، العيون لا تكاد تستقر على جهة معينة ، فالروائح المغرية تفوح من كل الجهات ، بالتأكيد أنا لست على الأرض، آه من تعب الذاكرة ، ما هو مقدار احتمالها لتخزن كل ما ترى ، وإن خزنته هل أستطيع إخراجه .

زقاق آخر في حي السيدة زينب ، زقاق تجاري ، النسوة يجلسن على الأرض يجبرنك على التعامل معهن ويجبرنك على الشراء إذا ما توقفت عند إحداهن ، هذه تبيع الخضار، وتلك تنادي على ما تملكه من أعشاب ، وأخرى تقف خلف بسطة تبيع بها الكبدة والكشري ، هناك يقف بائع الفول ، إنه التعدد الحقيقي ، كل منهم يعرف حدوده ، هنا من حق المرأة أن تطالب بالمساواة ، فهي شريكة الرجل في كل شيء ، في العمل وبناء الأسرة حتى المهر والمصروف اليومي ، وفوق كل ذلك تجد معظمهن من المثقفات؛ نعم، فلهن أن يستردن حقهن من الحياة ، لأنها الشريكة فيها ومكملة دورتها .

- أبو سليمان أريد أن أزور مسجد السيدة زينب.

- آه لو صبرت قليلاً، قال لي .

- لماذا ؟

لأننا بالقرب منه ، ولكن لماذا سمي باسم السيدة زينب ؟ وهل هي ابنة النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أم زوجته ؟

- يقال بأنه قبر السيدة زينب بنت الحسين حفيد النبي عليه السلام، ولا أدري مدى صحة هذه المقولة ،وهل قبرها هنا ؟

- لا أدري، ولكن لا أظن ذلك .

نقترب من المسجد أكثر ، بناءه البهي والذي يظهر عليه ملامح القدم ،

يلفت الانتباه هناك في إحدى الزوايا شبك حديدي فيه ضريح مغطى بالقماش الأخضر ،وشيء يثير الدهشة والاستغراب ، نسوة ورجال يلتفون حول الشبك ، يتعلقون به ، ينادون أم الأيتام ويدعونها، هذه تطلب منها إزالة غمتها ، وهذه تدعوها لتساعدها على الإنجاب ، وآخر يتوسل إليها وهو يبكي أن تشفي صغيره !!

ما هذا الذي أرى يا أبا سليمان ؟ بالتأكيد هو الشرك الأعظم بعينه، مهما بلغت عظمة هذه السيدة لا يجوز لنا أن ندعوها، ولكن هناك رب لها ولنا يجب أن نتجه إليه بدعائنا ، أدخل المسجد ، أصلي فيه ركعتين لله تعالى أتجه للشيخ لأسأله بعصبية: ما هذا التخلف والجهل الذي يعاني منه الناس هنا ؟ ماذا يفعل هؤلاء الواقفينحول الضريح ؟ ألا تعلم بأنهم يقعون في فخ الإشراك وهم لا يعلمون .

- يا أخي هؤلاء الناس مؤمنون حتى النخاع، لا يشركون بالله شيئاً، ماذا تسمي دعائهم للسيدة زينب رضوان الله عليها ؟ هم لا يدعونها، وإنما يدعون الله تعالى من مكانها الطاهر.

- لا يا سيدي هم يقولون يا أم الأيتام أزيلي غمتي ، يا أم الفقراء ساعديني بشفاء ولدي ، هذا هو الشرك وأنتم عنه مسؤولون !! أين توجيهاتكم ؟ أين إرشادكم ونصائحكم بأن لا السيدة زينب ولا حتى

الأنبياء يغنون من الله شيئاً ؟ حتى الرسل صلوات الله عليهم لا يجوز دعائهم أو الدعاء بواسطتهم، هؤلاء تنطبق عليهم الآية الكريمة (وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .

أنا في القاهرة، قاهرة المعز لدين الله الفاطمي ، أنا في الفسطاط ، فسطاط عمرو بن العاص، أنا في أرض الفراعنة ، أنا في البلاد التي هاجر منها نبي بني إسرائيل قاتلاً لبلادي ليعود إليها بعد سنوات ثمان نبياً ورسولاً، على هذه الأرض تلقفت عصا موسى أفاعي السحرة وأبطلت كيدهم، وهنا أخرج يده من جيبه بيضاء من غير سوء ، هنا ولد موسى، وهنا تبنته حتشبسوت ، من هنا طرد بني إسرائيل ، وهنا تحالفت مصر الفرعونية مع مملكة الأنباط العربية ، هنا التاريخ لثغ حروفه الأولى وانطلق إلى الدنيا .

على الثرى المصري بنى الإسكندر الأكبر مدينته الإسكندرية، التي تحتضن البحر المتوسط، وبنى منارته الشهيرة، والتي تعتبر واحدة من عجائب الدنيا السبع ، هنا وعلى بعد بضع عشرات من الكيلومترات وفي الجيزة تحديداً قامت الأهرامات ووقف أبو الهول حارساً للتاريخ وحامياً للفراعنة عبر الزمان .

هنا تألفت روح كليوبترا بروح حبيبها يوليوس قيصر ملك روما ، على هذه الأرض ولدت جميلة الجميلات نفرتيتي، ومنها كان أول الموحدين من الفراعنة، على هذا التراب تلقفت زليخة نبي الله يوسف وراودته عن نفسها، وهنا صويحبتها قطعن أيدهن ، إلي هذه الأرض حضرت الكواكب، وهنا تمردت أسيا على الفرعون وأعلنت إيمانها، وقدمت الماشطة أبنائها ونفسها في سبيل إيمانها؛ لتقدم لكل من أتى بعدها وسيأتي درساً في الصمود .

أي أرض هذه التي أنا في رحابها، وأي ذاكرة تستطيع أن تحتويها .

انتقلنا بعد ذلك إلى حي الحسين ، وأيضاً كررت فعلتي الأولى ، بناء المسجد أكثر هيبة من مسجد السيدة زينب، ومساحته أفسح، وزواره هيئ إلي بأنهم أكثر، يقفون على الساتر الحديدي يلقون السلام على صاحب الضريح، يتشبثون به يدعونه وهم يبكون، يقفون على عتباته وهم خاشعون ، أنظر للشيخ بعين يملؤها الغضب ، وقلب حائر من سذاجة هؤلاء الناس ، وسكوت أهل العلم عما يحدث حولهم، وكأنهم يقرونه ، يكفرون المؤمنين.. ويسكتون عن الكفر الحقيقي ، الطقوس التي تمارس في السيدة زينب هي عينها التي تمارس في مسجد الحسين ،

يقترب مني سماحة الشيخ ويحدثني باللغة الفصحى التي تظهر واضحة بها اللكنة المصرية..لماذا تنظرإلي هكذا ؟

لأني استغرب سكوتكم عن الكفر والشرك، وعدم توجيهكم لهؤلاء الساذجين، بأن هذه الأفعال لا تجوز، وإنهم آثمون عليها، إنهم يرتكبون الكبيرة التي لا تغفر.

- لا يا عزيزي إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

- إذا هل يجوز أن أشتم الذات الإلهية بنية سب الشيء اعتراف به ؟ .

- لا أنت بهذا تخرج من الملة؛ لأنه لا يتبع الشتيمة نية حسنة.

- لماذا يا سيدي؟ فأنا عندما أشتم أبيك مثلاً فإنني اعتر.

- أي نقاش هذا الذي تقول به، أنت كافر وشيوعي ملحد، أنت الآن تدنس المكان الطاهر لوقوفك فيه .

- هل أشركت بالله مثلما يفعل هؤلاء ؟ عفواً ليس هم من أشركوا، بل أنتم يا من تنصبون أنفسكم أوصياء على دين الله، تهبون من تشاؤون شهادة الدخول إليه، وتحرمون من تشاؤون،آآه لو كنت ولياً للأمر .

- ماذا كنت ستفعل؟

- كنت سأنفيكم من الأرض لأنكم تعيثون فيها فساداً باسم الدين .

خرجت من المسجد وأنا ألعن اللحظة التي حادثت بها هذا المدعي، والذي يصلي الناس من خلفه ويقتدون بما يقول، عندما خرجت سألني أبو سليمان ما بي؟ فأخبرته بما حدث.

- يا أخي لا تجادل فهم إخوانيون ويعلمون ما لا نعلم.

لا يا عزيزي إنهم يأخذون من الدين اسمه والعمامة وإطلاق اللحى فقط، ويستغلون الدين العظيم، والقرآن الكريم وبعض الأحاديث لتمرير مصالحهم ، أي دين هذا الذي يعتنقون ؟ أليس هذا الذي يحدث في الجزائر ومصر وبلاد الأفغان منهم ؟

- يمكن.. قالها وهو متردد.

- لا يا أخي منهم؛ فهذه الجماعات التي أسسها حسن البنا على أساس تكفيري بحت، ومن بعده جاء (سيد قطب) إبراهيم حسين الشاذلي الذي كفر المسلمين كافة الأئمة والمأمومين، والنبي عليه السلام نهى عن تكفير المؤمن ما لم يثبت بالدليل أنه كفر؛ كأن يعلن عن كفره بالقول والفعل .

من هناك نعود إلى البيت، وقد شارفت الشمس على الرحيل ، لأننا سنقوم بجولة أخرى ليلية ولكن أين ؟ لم تحدد بعد.

بعد أن وصلنا بقليل حضرت الساحرة سحر لتوقظ الشيطان المختبئ بداخلي .

- وقالت : " ما بدري يا بابا متنا م الجوع وحضرة الست ماما رفضت أنا ناكل قبل ما تيجو ".

- أخوك لوتس راح السيدة زينب وسيدنا الحسين وتخانق مع أئمة المسجدين .

- ليه يا بابا؟

- اسأليه .

- ليه يا آبيه ؟

- لا لشيء لم نتشاجر وإنما تجادلنا.

- وما لقيتش تجادل إلا دول ؟ على كل حال كده كويس، نوفر وجبة ما إحنا كده مش ح نتعشى.

صوت أم سليمان يأتي من الداخل عبير نادي أختك وتعالي نحضر الغدا، تسير سحر وقلبي يسير بإثر خطواتها، وهي تردد:" غداإيه اللي أنت جاييه تقولي عليه " لحظات وكنا نحيط بالمائدة ، وبدون مقدمات قلت عندما جلست: أنا لن استخدم الشوكة والسكين .

- ليه يابني قالت رندا؟

-لأني لا أعرف .

- نعلمك .

- لا أريد التعلم ، طيب زي ما أنت عاوز بس إحنا ح ناكل بيهم .

-لكن لن تجدي ما تأكليه لأن تناول الطعام باليد أسرع وألذ.

تناولنا العشاء وحضرت القهوة بعده، آه كم هي رائعة من يدي الصغيرة عبير، بعد احتساء القهوة قال أبو سليمان سنذهب إلى السينما، اليوم افتتاح فيلم (.....) والتذاكر موجودة من يومين، هيا يا بنات جهزوا بسرعة وأنت يا أم سليمان وأنت يا أبو صخر ، وهنا يثور السؤال في النفس، هو من يأخذ أهل بيته من الإناث إلى دور السينما؟ أي أناس هؤلاء وكيف يتعاملون مع أبنائهم وبناتهم؟

كان الفيلم في أول أيام عرضه ، يااه كم العدد القادم لحضوره، أبطاله نجوم، ولكنهم ما زالوا في بداية الطريق، دخلنا إلى السينما التي تكتظ بالبشر من الجنسين، جلس أبو سليمان إلى جانب زوجته، وكانت لجانبي الشقية عبير، هذه المراهقة التي لا تدع شيئاً يمر دون سؤال أو استفسار أو تعليق، كثيرة الحركة والضحك، بس يا عبير عاوزين نسمع الفيلم "طيب خرسنا" قالتها وهي تضحك، ساعتان من الصمت الذي ساد المكان، ولم يكن يخترقه شيء إلا أصوات المكسرات وأحيانا ضحكات الشقية .

انتهى الفيلم وخرجنا، وتصادفنا على الباب مع الفنانين الحاضرين، دار نقاش بسيط شعرت من خلاله بأنهما فارغين ثقافيا، فنجوميتهم لم تمنحهم شيئاً، وهذا أثبت أن الفنان لا يستفيد مما يقدم إلا الحفظ الذي ينساه بعد أن ينهي التصوير.

ركبنا السيارة وسألني أبو سليمان إلى أين تريد الذهاب غداً ، إلى الأزهر والحلمية وبعدها الأهرامات .

غداً عطلتي وسأكون معكم قالت سحر، ردت رندا لا سنكون كلنا في هذه الرحلة ، يا فرحتي بالنجوم التي ستضيئ قلبي ودربي غداً ، آه أيها الغد بالله عليك لا تتأخر، وعندما وصلنا إلى البيت سهرنا سويا،

ولأول مرة أتجرأ وأطلب القهوة، فركضت عبير إلى المطبخ غابت قليلاً وعادت بالقهوة، بقيت سهرتنا تدور حول رحلةاليوم ومجادلة الشيوخ والفنان الذي لا تمنحه نجوميته شيئاً، بل لا يستطيع الاستمرار في دربها إن لم يثقف نفسه ويشتغل عليها، غادرت سحر لدقائق وعادت ومعها ورق اللعب، وقالت: سأغلب من الآن بابا ولا آبيه لوتس ، شعرت بالفرح وهي تناديني بأخيها من الممكن أن سر فرحي هو أني سأقترب منها أكثر سأتأملها أكثر .

- قلت وماذا تلعبين؟

- قالت: الكومي .

- والمغلوب قلت .

يركض إلى المطبخ شاي .. قهوة .. عصير .

-وشروط الفوز ؟

قالت: نلعب ثلاث مرات؛ من يفوز مرتين هو الفائز، وافقت على ذلك، وكان كل أملي أن أفوز لأتذوق قهوتها، والعصير المحلى برضابها، أي أخ فاسد أنا ، ملعونة هي أفكاري، وملعونة هي نفسي التي تبدو في

غاية الرخص عندما تلتقي بامرأة، لعبنا وغلبتني ،آآآه من إحراجي وخجلي .

- هل تعرف طريق المطبخ، قالت وأبو سليمان يضحك.

- لا .

- سأدلك عليه، قالت رندا: اغلبي أبيك عشان بكره يكون دوره، وأنا سأذهب مع اللوتس، الآن يا فرحتي بهزيمتي، لما لا أستقر على واحدة أتعامل معها، أمنحها اهتمامي وأدع الأخريات، ولكن أنا كنت بعكس ذلك أينما رأيت الجمال اضطربت وفرحت وتمنيته وتعاملت معه على أساس ما أتمنى.

ذهبنا إلى المطبخ، رندا وعبير وأنا تم تجهيز الشاي وبعده القهوة وأخيراً كان العصير،آآآه كم أنا سعيد .. هل يوجد في الكون مثل هذا التعامل؟

أبحث عن نفسي فأجدها مكبلة بقيود شيطاني ودوماً ما تنقذني بدويتي، كل ما يحدث مني فقط بيني وبين نفسي الملعونة، الحمد لله دوماً تنتصر بدويتي وتربية أهلي، في حوالي الثانية صباحاً استأذنت وصعدت لغرفتي، بدلت ملابسي واستلقيت على سريري ومن فرط نشوتي وسعادتي لا أدري كيف غصت في بحر النوم .

كانت الساعة حوالي العاشرة عندما قرع الباب، نهضت من سريري وأنا أشعر بنشاط يكفي الكون ، اتجهت إلى الباب ، فتحته وإذا بهن الوردات الثلاث، " لسه نايم، لا أنا صاحي من الصبح ، باين على شكلك إنك صاحي ، يا الله مفيش نوم .." دقائق والحق بكن ، آه ما أجمل صباحي وما أبهاه ، وكيف لا يكون هذا الصباح جميلاً وأنا أفتح عيوني على النور الملائكي ، وأصوات العنادل تداعب قلبي قبل سمعي .

استيقظ شيطاني ، آه ما أسعد من كانت من نصيبه إحداهن ، وبالرغم من استعاذتي بالله منه إلا أنه ظل يوسوس بداخلي، يعزف على وتر الرقة والجمال؛ لأنه يعرف بالتأكيد شعوري نحوه، أغتسل وأرتدي ملابسي، أهبط السلم وأنا أدندن جانا الهوى جانا، أجلس إلى المائدة ونتناول الفطور المكون من الفول المصري والفلافل والمربى والبيض المسلوق ، بالنسبة لي تناولت ما أريد قبل أن أهبط إلى الصالة ، شبعت وأنا أشتم أريج السوسن ورائحة الياسمين وهي تفوح من الحديقة التي وقفت ببابي وأيقظتني ، لقيمات تناولتها أتبعتها بسيجارة ، قليل من الوقت ونكون جاهزات للخروج معكم ، ها نحن ننتظر قلت.

مثلهن لا تحتاج للزينة ، يكفيهن ما وهبهن الكريم من جمال، فقط يرتدين ملابسهن ويهبطن، وفعلاً حضرن بمكياج خفيف، ركبنا

السيارة ، سقطت على أرض الذاكرة صورة فاطمة لا أدري كيف؟ اشتعل القلب شوقاً، واضطربت المشاعر، وقريني المحترم راح يقارن بين الحسان، أحاول أن أبعده وأفشل، أقلب أوراقاً بجيبي، كنت حصلت على رقم هاتفها ، ها هو ، أرسله إلى جيبة أخرى ليكون منفرداً، وهل يعقل أن يختلط بغيره، وهي الآن منفردة في القلب والخيال، وكيف ذلك وأنت مع الحوريات في الجنة الصغيرة ؟

لا أدري؛ كل ما أعلمه أن فاطمة بدموعها بابتسامتها بكلماتها تسيطر على كل مشاعري، في هذه اللحظة لا أرى سواها، سأكلمها عندما نعود، لماذا أيها اللعين أتيت بها في هذا الوقت بالذات، لتفسد فرحتي وتشعل نيراني ، وتحرمني من التمتع بما هو لدي الآن، لماذا تزور ذاكرتي في هذا الوقت لماذا وألف لماذا ؟

نزلنا إلى الحلمية وما أدراك ما الحلمية ، وهل هناك أجمل من الحلمية ، الناس بسطاء مرحون، المقاهي كثيرة في هذا الحي الكبير، صحيح أن الحركة فيه لا تختلف كثيراً عن السيدة أو الدقي أو غيره من الأحياء، إلا أن حركة التجارة فيه أنشط والامتداد العمراني الحديث وصل إليه بشكل أكثف من باقي الأحياء.

النساء هنا لا يختلفن كثيراً عنهن في الأحياء الأخرى، ولكنك تشعر براحة غريبة وأنت تتجول فيه، نظرات الناس إليك تشعرك بالطمأنينة، معظم الصبايا يرتدين العباية السوداء " الملاية " ومع ذلك تسمع الرصيف يداعبهن، يناغي خطواتهن، ويناجي السماء أن لا ترحمه من وطء أقدامهن.

ما لاحظته أن معظم أبناء المناطق الشعبية هم في الأصل من محافظات أخرى تمتد من الصعيد حتى الإسكندرية ، فإما ولد هنا أو لجأ إلى هنا في بداية مشواره مع هذه الحياة طلباً للرزق في المحروسة.

تجولنا في السوق، أشياء كثيرة تلفت الانتباه ، محلات النجارة أو ما يسمى هناك " الموبيليا " بعضها يصنع بواسطة الآلات الحديثة، وبعضه يدوي الصنع من ألفه إلى يائه، الأسطوات ينتشرون أمام المقاهي وعلى الأرصفة المقابلة أو المجاورة لمحلاتهم والمتدرب أو ما يسمى الصبي دائماً في المحل لا يغادره إلا بوجود المعلم " الأسطة " وبناء على طلبه .

من الحلمية انطلقنا إلى خان الخليلي، هذا السوق التراثي كل أنواع التجارة موجودة فيه، العطارة، الشرقيات ،الأعمال اليدوية التي صنعت بمنتهى الدقة والفن، رائحة مواد العطارة تملأ السوق وتختلط بروائح النساء فيزهو خان الخليلي على غيره، إنه الحارس على التراث المصري .

من خان الخليلي إلى الأزهر، وهنا تنشط الذاكرة من جديد، من هذا الجامع أو الجامعة خرج طه حسين والشعراوي وكثير من رموز مصر ومثقفيها وعلمائها، هذا المكان الصانع للمتناقضات فمن قامات خدمت الإنسان المصري والعربي ودافعت عن حاضر الأمة ومستقبلها، إلى قامات في التخريب والإساءة للأمة والدين، فهنا تأسست حركة الإخوان المسلمين، ومن هنا انطلقت أول المجموعات التكفيرية على يد التكفيري الأول حسن البنا، ومن بعده سيد قطب(إبراهيم حسين الشاذلي) والتكفيري أو إمام التكفيريين عبد الحميد كشك، إلى أن وصلت لهؤلاء الذين لا يردعهم شيء عن تكفير من لا يسير حسب مصالحهم وخدمة لأهدافهم، وانتشرت هذه الجماعات من مصر إلى معظم دول العالم، هذه الجماعات التي انبثقت عن جماعة الإخوان المسلمين، والتي تنظر إلى من لا يشاركها الرأي ويؤمن بأفكارها أو من يحاول مناقشتها ومجادلتها كافراً أو مرتداً وجب عليه القصاص، منها طالت اليد وانتشرت في دول الجوار، لسانها التكفير وفعلها القتل الذي لا يفرق بين أحد خروجاً عن قوله تعالي" من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ".

نتجول في المسجد العظيم البناء، وفنيات الزخرفة فيه والآيات القرآنية تنير جدرانه، وتجبرك على الالتفات إليها و الدخول إلى المسجد والبقاء فيه .

***

الجيزة و الأهرامات

نصعد إلى السيارة متجهين إلى الجيزة، أطلب من أبي سليمان التوقف لتناول شيئاً من المشروبات، يتوقف عند أحد المقاهي، يهبط أبو سليمان برفقتي بعد أن سألنا كل واحد عما يرغب، كلهم يرغبون بالعصير باستثنائي وأنا الذي دوماً أتمتع وأنا أحتسي القهوة، عدنا إلى السيارة التي بدأت تحتسي الطريق بنهم ، تسألني الشقية عبير عما أشرب فقلت إنها القهوة ، قالت هل لي أن أتذوقها، فناولتها كأس القهوة ، ارتشفت رشفة أو اثنتين وأعادتها، وهي تقول: "ياه دي مرة قوي" نهض الملعون بداخلي وراح يقود عيني لتطوف حول الكأس؛ لعلي أجد أثر شفاهها عليه ، وأخيراً عثر الملعون على الحل، اشرب من كل الجهات فبالتأكيد ستتذوق طعم شفاهها الطرية.

ألعن شيطاني وألعن نفسي على هذه الأفكار والوساوس، تناديني الرائعة سحر التفت إليها فتقول:"ابيهمرة أردني نزل مصر معرفش يطلع "قلت بداخلي آه ما أسعده وهل بغير مصر يجد المتعة والغرق الشهي" .

أنظر إليها، أتأمل تلك العيون الضاحكة وتلك الشفاه الباسمة ، آه لو كنت كلمة أو حرف فلن أخرج من بين شفاهها ، أتوجه إلى أم سليمان بالكلام اليوم لم أسمع صوتك ، فقالت أنت لم تسمعني، بالعكس تعبت كثيراً من الحديث، يا إلهي هل غردت بكلماتها؟ كيف لم أسمعها؟

ويرد شيطاني وأصوات الموسيقى وتغريد العنادل يغزو مسمعك، وفجأة إعصار من القلق يخترقني، اللسان يتوقف عن الحركة وكأنه تحول إلى قطعة من الخشب، صوت فاطمة يجتاحني ، صورتها ترتسم أمامي ، أسمعها تناديني .. تعاتبني، تعاتب الأخ الذي ما أن عثرت عليه حتى فقدته من جديد ، الأخ الذي وعدها على أن يبقى على اتصال دائم معها ها هو ينساها ولم يعد يكترث بالاطمئنان عليها، وكيف له ذلك وقد وجد الدنيا الأحلى الدنيا الأجمل ، أين وعدك بأن تتابع إخبارها أينما كنت ومع من كنت؟

أسمع الآهات الصادرة من قلبها آه ما أقسى الناس ، آه يا فاطمة كم أنا قلق عليك، وكم أنا مشتاق إليك ، مشتاق لتلك اليد الرقيقة الدافئة لأن أقبلها ، أشتاق لتلك النظرات الحزينة لكي تلم شتات الروح ، مشتاق لتلك الدموع التي تعبر عن وجعي ، آه يا فاطمة مذ عرفتك وأنا أشعر بأنك تبكين عني وعلي ، أين أنت يا فاطمة، يا قصيدة الحياة

وأغنية القلوب ، يا صدق المشاعر ، كيف الوصول إلى حماك ، أسمع نداءك ولكني أعجز عن الوصول إليك .

أحاول الخروج من عالم فاطمة والعودة من جديد إلى عالم الملائكة ، إلى فتنة الورد التي بصحبتي ، وعملاق الجود الذي يرافقني، أتأمل تلك الحورية ، لا بل تلك الجنة التي أنبتت هذه الزهور ، أحاول الهروب من تلك الساعات التي قضيناها من عمان إلى السويس ، أحاول الفرار من حديث شجي وابتسامات ارتسمت على شفاهنا وأهديناها للبحر، ولكن كيف وصوتها يعلو بداخلي حتى غيب عني كل الأصوات المحيطة ، أضع رأسي بين كفيّ وأغيب في الصراخ الذي بات يجتاحني على فترات ، كلما زادت متعتي أشعلني من جديد، كلما استيقظ الملعون بداخلي زارني صوتها، جاءني نداؤها ليزرع الألم والتساؤلات بداخلي .

أبو صخر .. الحمد لله على السلامة ها قد وصلنا، لم أشعر بالوقت طال أم قصر أضحك بجنون من فرط سعادتي، ويخترقني صوت فاطمة من جديد ليبعدني عن الدنيا، وأبو سليمان دوما هو المنقذ .

ترجلنا من السيارة .. ساحة كبيرة مكتظة بالبشر .. جنسيات مختلفة وأشكال مختلفة من كل أصقاع الدنيا، كلهم جاؤوا يمتعوا أنظارهم بالأثر الذي تركه أجداد المصريين .

- هل تريد دليلاً سياحياً قالت رندا ؟

-وكيف يمكنني الوصول إليه قلت.

- ردت أنا لها.

نتقدم نحو الشموخ ، نحو المجد الخالد ،نتجه نحو تاريخ خالد بأصحابه وما زال يقف يحاكي الحاضر ويسخر منه ، إلى أجداد يهزؤون من أبنائهم الذين ينتمون إلى أجداد سادوا الدنيا تمتعوا بالأمن والاستقرار ، وهم أصبحوا أتباعا لمن ليس لهم من التاريخ أي نصيب ، نسير باتجاه أناس ما استطاع الزمن ونوائبه أن يؤثر فيهم ، أو يبعدونهم عن الصدارة وواجهة التاريخ ، ما زالت أرواحهم منذ آلاف السنين تحضر في المكان وتحرسه من صروف الدهر وتحميه من عاديات الأيام .

ندخل الهرم الأول والذي كاد أن يعانق السماء ، آه كم هي عظيمة مهابة المكان، آآه ما أروع الأيدي التي بنت ونقشت، يا لهم من فنانين عظام .. ومن علماء أفذاذ .

نتجول في ثنايا المكان ، ورندا تروي التفاصيل لهذا المعبد ، للمثوى الأخير لملوك العزة ، فترة حكم خوفو و الإنجازات التي تحققت في فترة حكمه ، من خوفو إلى خفرع ومن ثم منقرع ، إلى تلك المقابر،

المعابد ، يا لها من حضارة .. حرام أن تزول ، آه من ظلم القدر، كيف لنا أن نرث هذه الحضارة، كيف ونحن كأمة لا نستحق الانتساب إليهم أو حتى حجراً في إحدى هذه المعجزات .

نخرج من تلك الساحة العظيمة بكل ما فيها ، نسير قليلاً، هناك يربض أبو الهول حارسا ، يتأمل القادمين والمغادرين ، يقف شامخاً، من يمر من أمامه لابد له أن يقف أمام عظمته يحدثه ويخضع لما يريد أبو الهول، يقف مكانه محاولاً أن يمنح أبناءه وأحفاده الصمود، ويشحذ هممهم ويهبهم العزيمة والإصرار والقدرة على التحدي والعطاء ، عطاء الأقوياء وليس عطاء الأتباع ، لا بد للزائر هنا أن يدهش لا بل يذهل لما يرى من عظمة وإعجاز خالد لا يزول و لا تمحوه الأيام .

سلام عليكم دار قوم خالدين سلام عليكم بناة الحضارة ورموزاً رغم أنف الأيام باقيين ، سلام عليكم من جيل ما ذاق إلا مرار الهزيمة ، السلام عليكم فاربضوا بأرضكم إن شاء الله أمنيين، السلام عليكم معجزة التاريخ وسيف الزمن ومعنى الحضارة فناموا هانئين ولا تقلقكم أحوالنا فقد اعتدنا أن نكون أتباعا فإذا ما تسيدنا سنفنى .

أين نحن من عصر انقضى بكل ما فيه، وبقي أهله شهود زمن كان التحدي شعارهم والبحث عن المعرفة عنوانهم ، كانوا يحلمون باختراق

الفضاء والوصول إلى السماء ، تركوا لنا إرثهم ومضوا للخلود على أمل أن نكمل المشوار فخذلناهم والسؤال الذي يتردد هل يحق لنا الانتساب لهم .

أثناء سيرك في المكان لا يمكن إلا أن يستفزك لتسأل وتستفسر ، هنا سارت كليوبترا، هنا أصدرت أوامرها للجيش بالاستعداد للدفاع عن الأرض والعرض، هنا مرت بالعمال وتفقدتهم؟ ومن هنا خرجت نفرتيتي لتستعرض جمالها وتفتن الألباب، ويحول الناظرين لعبيد لهذا الجمال الطاغي ولروعة الأنوثة، من هنا نهضت حتشبسوت لتنقذ موسى من الغرق ، لتأخذه وتتبناه ، وفي هذا المكان صرخت أسيا " ربي ابن لي قصراً في الجنة ونجني من القوم الكافرين"، هنا ولد أول الموحدين من الفراعنة وهنا قتل.

- الساعة الآن التاسعة هيا يا أبو صخر لنعود.

– هيا ولكن أبو سليمان أتمنى أن انزل في أول حي السيدة.

– لماذا ؟

–لا أدري بي شوق لأن أسير فيه ليلاً

– ولكن هل تستطيع العودة للبيت .

تقاطعه الفاتنات سنكون معه يا أبي، آآه ما أسعدني ، سأكون برفقة الملائكة لوحدنا سنيسر في المكان، سأضحك دون أن أخشى من نظرات أبو سليمان، أعوذ بالله منك أيها الملعون .. عد لنومك ولا تستيقظ ، وعندما وصلنا أول الحي توقف أبو سليمان، وقال: هيا قد وصلنا ، لكم أن تترجلوا وتعودوا للبيت سيراً على الأقدام .

مدهش هذا المنظر خيالي هذا الواقع ،أسطورية الحياة هنا، هل يعقل أن هذا ليل ؟

وإن كان كذلك لم الناس لا تعود للبيوت ، لم خلق النهار ، الشوارع ما زالت مكتظة ، والمقاهي مزدحمة ؟ أين عمان منك؟

صحيح أن في عمان سهر ولكن بحدود، أين الزرقاء ثاني مدن المملكة ببلادي والتي تغرق في نومها بعد العشاء، هنا الإنسان يعيش حياته كاملة بلا نقصان، النوم لا يسرق منها إلا لحظات قليلة، هنا القاعدة تقول :

ما أطال النوم في عمر ولاقصر في الأعمار طول السهر

ما عدا ذلك فهو الاستثناء، ابتعنا الذرة المشوية ، أكلنا الكشري ، ركضنا خلف بعضنا ، تجولنا في كل أنحاء الحي ، ولا أدري كيف ثار

السؤال بداخلي وينطلق على لساني ، ألا تخشين من كلام الناس وانتن تتمشين في هذا الوقت المتأخر من الليل برفقة رجل غريب؟

- ردت سحر؛ أولاً نحن واثقات بأنفسنا ثقة لا يزعزعها شيء في الوجود ، والأهم أن الأهل واثقون بنا وبمن معنا لذلك لا يهمنا ما يقول الناس، ثانياً هل تخشى من شيء من تسير برفقة أخيها أو عمها ؟

أذابتني كلماتها خجلاً، جعلتني أبصق على نفسي لتلك الأفكار التي كانت تراودني، وصلنا إلى البيت منهكين ، سحر فنجاناً من القهوة السادة ، عفوا أريد كوبا من القهوة ، حاضر جلست إلى أبي سليمان قليلاً من الوقت وصعدت إلى غرفتي ، بدلت ملابسي وجلست قبالة التلفاز ، أشاهد برنامجا ثقافياً وكان ضيفه الشاعر الكبير أحمد فؤاد نجم، والحديث كان يدور حول تجربته الحياتية سواء في السجون، أو انخراطه في الشيوعية إلى أن وصل المذيع لسؤاله هل تؤدي العبادات ؟ وكانت الإجابة بالنفي بحجة أن الله لا ينظر إلى أفعالنا وإنما ينظر إلى القلوب .

الباب يطرق، تفضل وإذا بها سحر تحمل القهوة والماء وتسألني إن كنت أحتاج شيئاً آخر، فأجبت بالنفي، فقالت: وكيف ستنام بعد القهوة ؟ أنا عندما أصل إلى مرحلة النوم لا تمنعني القهوة ، سحر ، نعم يا آبيه ، هل لي من خدمة؟أنت تؤمر ؟

خذي هذا الرقم واتصلي به واسألي عن فاطمة أبلغيها تحياتي وقلقي عليها، إن سألتك من تكونين قولي لها أنك ابنة أختي ، ولم لا أكون ابنة أخيك ، لأن أخ الأم محرماً قطعياً إلى الأم وذريتها إلى يوم الدين، إذا لن أناديك بآبيه بل " يا خالو " يا إلهي ما أجملها من فيك يا سيدة الحسان ، اتصلت بها وردت عليها فوراً أخبرتها بما طلبته منها وعن سؤالي عنها ورغبتي بالاطمئنان عليها وعلى الصغير ، تصبح على خير يا خال ، لا يا آبيه .. تصبح على خير يا آبيه وأنت من أهله .

هذه المرة لم تتحرك أي مشاعر كما كان في المرات السابقة، توعدته بالويل والثبور وعظائم الأمور أن تحرك بداخلي ، وأنا الذي كنت أشتاق إليه لجماره التي يلقيها في ذاكرتي، أما الآن وخصوصاً هذه الأيام فلا؛ لأنه لا يعقل أن أواجه الكرم بالنكران، ولا الطيب بقلة الأصل، ولأني في بيت الأكرمين يجب أن يبقى بعيداً، وفي مثل هذا البيت لا وجود للشياطين .

***

على ضفاف النيل

أي شعر هذا الذي يلقيه النيل على الأرض فتنتشي وتزهو بثياب الفرح، وأي نظرات يرسلها النيل إلى التراب فيخضر ويزهر، وأي غناء وأي تراتيل تهديها الأرض للنهر المقدس فيتقبلها منها، ويهبها الحياة بطهارتها والربيع الدائم.

أرواح جميلات الفراعنة تشرق في موعدها كل عام ليفيض النيل ويجدد الطمي، ويفيض الخير ، تعود كما تعود شقائق النعمان لتزداد الضفاف جمالاً على جمالها ، تقترب النجوم من الأرض لتعود لسمائها متألقة بثوب نفرتيتي.

انسياب المياه هناك ومسيره الثابت كعذوبة النساء الكواعب، نسمات المساء العليلة التي تنعش الأجساد، كأنفاس الحوريات اللواتي يرافقنني، أو كمداعبة اليد الرقيقة للجسد المتوهج، أو كموسيقى عذبة تغزو قلب عاشق فيهدأ اضطرابه ويتلاشى توتره .

أي متعة هذه التي تشعر بها وأنت تجلس على ضفة النيل، يأخذك المشهد إلى عالم السحر فتعود لربيعها الروح، وتزهر بأجمل الورود، الأمواج الصغيرة المتتابعة تنقلك إلى عالم الأحلام، إلى عالم الشعر والرؤى الصادقة ، لا تود مغادرة المكان ، وهل منا من يرغب بالرحيل عن الجنة أو وداع الملائكة ، هذه هبة السماء للأرض المصرية ؟ لا تدري كنه المشاعر التي تنتابك وأنت تلامس الماء بيديك ، عفواً وأنت تتعمد بتلك المياه لتطهر روحك مما علق بها من فساد الأيام .

بعد اقتراح من الرائعة الشقية ، المراهقة الحالمة صاحبة الأنفاس العطرة ، أخذنا مركباً صغيراً لنقضي بعض الوقت مع قدسية المكان ، نعتلي صهوة الماء والغروب منا يقترب ويرخي سدوله على كتف السماء،آه ما أبدعها من لوحة رسمتها يد الإله ، ننظر من خلال مرايا المركب المطاطي والتي تعكس ما بداخل الماء للناظر، آه إنها أرواح أولئك الجميلات اللواتي قدمن قرابينا لهذا النهر العظيم ليرضى فحولهن أسماكاً وزهوراً في هذا الماء الذي يهبط من الجنة ،آآآآآه ما أروعها من لحظات وأنت ترى النيل يغسل شعر الشمس وهي تغادر لتشرق في مكان آخر من العالم ،آآه سحر لو كنا في زمن الفراعنة ، لكنت أنت ورندا وعبير من عرائس النيل ؟ سحر هل بيتكم بعيد من هنا سألتها ، قالت ليه يا آبيه ، قلت لماذا آبيه وليس عماً أو خالاً، قالت لأنها الأحلى والأجمل

وتجعل كل منا أقرب إلى قلب الآخر ونفس الآخر ، فلا حواجز تفصل بين الإخوة ولا غضب يدوم بينهم.

الأخ يبقى مكانه القلب والروح، لماذا سألت عن البيت يا أخي والمسافة ، كنت أرغب أن أمشيها ، تقصد نمشيها ، " شوف الهوانم" ، بالتأكيد (موافقات) مادام هناك لب وذرة وبطاطس " إذا هيا .

نتابع سيرنا على الرصيف وأيدينا متشابكة، يا إلهي من هذه الوجوه التي لا يتعبها عمل النهار ، ولا يزيدها السهر إلا إصرارا على الحياة ، هؤلاء هم القادرون على أخذ حقهم من الدنيا ،الابتسامة ترتسم على كل الوجوه ،توحدهم النكتة والدمعة، وتجمعهم الضحكة .

آآه أيتها الغوانج، يا آسرات القلوب وسارقات العقول، وكيف لهذا الشباب أن لا يعشق الحياة وأنتن تزهرن فيها ويملؤها عطركن ؟ الشباب والصبايا يسيرون في الشارع دون خشية من رقيب ، يتجهون لدور السينما والمسارح دون أن يخشى من أحد إلا الله والتكفيريين ، بيدي اليمنى تمسك سحر وباليسرى تتعلق عبير وإلى جانبها عمتها الفاتنة المثقفة رندا .

لا أشعر بشيء من شدة فرحي، كيف لي أن أغادر المكان الرائع ، كيف لي أن أبتعد عن النجوم التي سطعت في حياتي، وانتشلتني من جب الأحزان الذي غرقت فيه ردحاً طويلاً من الزمن وسأعود إليه ، وكيف لي أن أرد المعروف وطيب المعشر والثقة المطلقة التي منحتني إياها أبو سليمان والرائعة أم سليمان ، وقبل أن نصل إلى السيدة ندخل إلى السوق، تعالي يا عبير وأنت يا سحر ورند ، كل واحدة تختار هديتها .

- ليه كده ،قالت رندا ؟

ما تزعلينيش منك قلت لها، ما تنسيش ماما يا سحر وأبا سليمان ، ماشي يا آبيه) ،ولكن ماذا أختار لأبي سليمان ، فقلت خير ما يجعله يبقيني بذاكرته هو الساعة ، فابتعت ساعة أنيقة وبنفس الوقت معقولة السعر حملنا ما ابتعنا وغادرنا السوق والفرحة تملؤنا .

سأل أبو سليمان ماذا تحملون؟

فردت سحر اسأل آبيه لوتس ، نظرت إليه قبل أن يتكلم .. ألست أخا لك ، بل إبنا، وعلى هذا ماذا أكون لهن ألست أخيهن ، بالتأكيد إذا لا يسأل الأخ عما يقدم لأخته ويسأل عن تقصيره بحق أهله فللأخت على أخيها حق الواجب وللأهل حق البر ، اسمحي لي يا ماما، وقدمت لها

هديتها، حضنتني والدموع تترقرق في عينيها ، شعرت بفرح الدنيا يغمرني والسعادة تكاد تقتلني وأنا أشعر بحنان الأم يملؤني، ودفئها يتسلل إلى مشاعري .. إلى قلبي .

وقدمت لأبي سليمان هديته ، شكرني وهو يقول والله لا داعي لكل هذا ،الغزالات هبطن السلم وصوت خطواتهن موسيقى، وعبير تدندن " نازلة السلالم اسم الله عليها " نزلن يتمايلن ، إيه رأيكم ؟ رائعات ، أي نجوم هذه التي تسطع في السماء ، لو رأتكن النجوم لتدارت خجلا أنتن نجمات الله على الأرض .

وأنا أحتسي القهوة قلت لأبي سليمان أود أن تأذن لي بأن أغادر غداً ، قلتها وأنا أتقطع ، والله ما وددت المغادرة ولا البعد ، إلا لأني مرتبط بالعمل ، والشوق لأهلي يذبحني ، إلى أين ؟ للإسكندرية ومنها بإذن الله للأردن، خذني معك قالت الشقية ، وبكل صدق الدنيا ولهفتها قلت أتمنى ، أبو سليمان والأخوات التي لم تلدهن أمي ، الأخوات القريبات إلى القلب الساكنات الروح ، ليس غداً ، منذ أتيت إلينا لم نرك إلا لحظات ، لم نجلس سوياً، غداً لنا ؟

حقك يا سيدي ، كنت أتمنى لو قال الأسبوع القادم أو الشهر القادم .

جلسنا نشاهد التلفاز ، ضحك ولعب إلى ما بعد منتصف الليل ، وما أن صعدت إلى غرفتي وبدلت ملابسي حتى دخلت الملائكة لغرفتي ، وهن يحملن الشاي والمكسرات ، أنت بكره هنا مش مسافر ، يعني مفيش نوم الليلة ورحنا نتحدث ونضحك كل واحدة منهن تحدثني عن نفسها عن أحلامها وأمانيها ، لماذا ؟ أهو تآلف الأرواح ، أم تراه انفتاح القلوب ، تمنيت أن أكون قادراً ولو على المساعدة ،آآهلو شقيقاتي عاملنني بنفس الطريقة، بقينا على هذا الحال حتى دخلت أشعة الشمس من شباكي ، لتحيي النجوم التي أنارت ليلي ومنعتني من الحلم ، نهضت رندا وقالت لوتس أوعى تنام ح نحضر الفطار ، ماشي ، استلقيت على السرير واجتاحتني موجة من البكاء ، أبكي بحرارة ولا أدري سبباً لهذا البكاء، هل هي دموع الفرح بهذه الأخوات اللواتي لم تنجبهن أمي ، أهو الحنان والدفء الذي غمرني بعدما كنت أفتقده ، الآني لم أرزق بمثل هذه الرقة والخفة والصدق ، كل شيء ممكن ، ولكن ما أنا متأكد منه هو أن الشوق سيقتلني للقائهن من جديد ، وهل ستتاح لي الفرصة لزيارتهم من جديد ، هذا متروك للقدر ولعبة الأيام .

بسرعة البرق انتهى اليوم الإضافي للزيارة وحان وقت الوداع بعد ليال عشر ،جاء الموعد وأزف الرحيل ، أي الكلمات سيطلقها القلب عند الرحيل عن الأهل، عن الحب الذي انغرس وسط الضلوع .. فتتفتح

زهرة لوتس ولا أجمل ، بأي المشاعر سأرحل وأيها سيبقى ، الروح تتمزق ، والأحشاء تتقطع ، والقلب يأبى الفراق ، هل سيسمح لي الزمن ، هل سترضى الأيام ، وهل سيكتب القدر في سجلي زيارة أخرى .

آآه كم أتمنى ، ولكن كيف سأطفئ نار الشوق لهؤلاء الكرام الذين أولوني جل عنايتهم وكانوا في غاية الكرم والبذل معي ، بماذا يمكن أن تصف إنساناً عاملك ابنا ، لم يفصل بينك وبين بناته وأخته إلا جدار ، كنت تسمع صوت ضحكاتهن ، و لو تأملت أكثر كنت تسمع صوت الأنفاس شهيق وزفير كل واحدة منهن ، وعدا عن ذلك في أغلب الأوقات كن يسهرن معي حتى الفجر أو بعد الفجر ، كن يتحدثن وكنت أسمع ،كانت السعادة تغمرني وأنا أسمع كلماتهن ، كنت أشعر بالنشوة وأنا أستمع لسيمفونيات ضحكاتهن ، كيف سأداوي جرح الرحيل وحيداً .

الدموع تترقرق وسط العيون وأنا أمد يدي مودعاً أم سليمان الأم الحنون والفاتنة ، رندا معنى العذوبة والرقة ، سحر تلك الرائعة عبير هل سأجد في بلادي مثل هذه الروائع ؟ أودعهن ولساني متصلب وسط جوفي ، أي ذكرى سأحملها ، وبأي الألوان ستسطر ، هل يكفيها

الأبيض الناصع ، أم تراها تزدان بالأخضر الزاهي ؟ أجمل عشر أيام عشتها في عمري ، نسيت فيها جراحاتي وعذابات الروح ، كيف ستنقش ، وهل يتسع لنقشها القلب ؟

هيا يا لوتس ، أحمل حقيبتي ، أصعد إلى السيارة ويصعد أبو سليمان ، أنظر إلى تلك الأيدي الملائكية ، لم أعد قادراً على حبس دموعي ، ولكن كيف لي أن أحبسها وأنا أسير في رحلة الموت ، رحلة العودة إلى بساتين الشوك وحقول المرار ، سأعود إلى الجحيم وإلى العذاب ؟ الطريق يفلت من تحت العجلات بسرعة لا يكاد يلمحها بصري ، والطريق الصحراوي طويلٌ طويل . الإسكندرية ، أي مدينة التي سندخلها ،ولم زيارتها ؟ طوال الطريق والصمت يلفني ، أي رغبة عارمة بالبكاء ،كما هي الرغبة بالعودة إلى حي السيدة زينب والبقاء فيه لولا أن جذورلي في عمان أحن إليها ، لولا أن لي أغصاناً هي امتدادي في هذه الحياة ، لولا هذا العشق لمدينة الفوضى والتعب ، مدينة الصعاليك لما عدت .

يقف أبو سليمان في مدينة متناسقة بكل ما فيها ،مدينة أوروبية بكل المقاييس ، مدينة تضج بالحركة والحياة ، نهبط من السيارة باتجاه أحد المطاعم ، مطعم مليء بالحسان والرجال ، يطلب أبو سليمان الغداء ،

بالنسبة لي لا رغبة لي بشيء في هذه الحياة ، أبو صخر إن رغبت بالعودة فأنت تعود لبيتك وكلنا نقول أهلاً، وإن رغبت بالذهاب إلى عمان فهي دارك ومنزل أهلك ، أبو سليمان متى ستأتي إلى الأردن، لا أدري ربما شهر أو اثنان . سأبقى على اتصال معكم ، بالتأكيد فالوفاء شيمة الأردنيين، وخصوصاً البدو منهم الذين يقولون أنهم رضعوا هذه الصفة مع حليب أمهاتهم ، لا أدري ما الذي يدور بخاطري ، كلي أتمزق .

هل من هاتف هنا،بالتأكيد ، سار معي وطلبت الرقم ، وإذا بصوت رائع النبرات يأتي من الطرف الآخر، كلي أرتعش ، أي سيمفونية هذه التي أسمعها تأتيني من الطرف الآخر ، من هناك ؟ آلو..

سمعتها ، انشرح صدري ، قفز قلبي ، واستيقظ شيطاني من نومه استنجدت بربي فنصرني عليه ، الأخت فاطمة ، نعم ، أنا لوتس أخوك ، أهلا وسهلا عرفت صوتك ، وكنت أتوقع اتصالك، " أنت فين دي الوقت؟ " أي أخ ينسى أخته ولا يسأل عنها، أنت تعلمين أني سألت عنك ، وصلك قلقي عليك ، كما وصلتك أشواقي وتحياتي ، بالتأكيد ولكني رغبت بسماعها من أخي ، لأشعر بمعنى الأخوة وحنان ودفء الأخ ،" أنت فين دي الوقت؟ " أنا بالإسكندرية، " أنت هنا فين؟ "

والله لا أدري ولكن بي رغبة عارمة لرؤيتك ووداعك لأني مسافر مساء اليوم !خد تكسي وتعال لي ؟ وأملتني العنوان ، كتبته حفظته وطلبت من أبي سليمان إيصالي ، قال والغداء ، تناوله أنت فأنا لا رغبة لي ، قال لم تصر على أن تغضبني وأنت مسافر ويا عالم ، تناولنا الغداء ، أعطيته العنوان الذي لم يكن بعيداً عن مكان وجودنا أكثر من عشر أو خمس عشرة دقيقة ، وصلنا ، قرعت الجرس ، خرجت ، بي لهفة لأن احتضنها، ولكنها كانت الأجرأ إذ احتضنتني وقالت: حمدا لله على سلامتك، الشوق يقتلني وفرح اللقاء يختلطان بمشاعر الألم والحزن للفراق الذي سيحين بعد ساعات .

جلسناتناولنا العصير، التفت إليها ، تتصلب نظراتي وأنا أراها جالسة كما حشتبسوت على عرشها ، قليل من الوقت جلسته ومعي أبو سليمان ، ودعتها ، تبادلنا الدموع وغادرنا حي المصنع الذي مشينا فيه، ومن ثم سكة الحديد إلى دار الأوبرا، ومتحف سيد درويش ولم يلفت انتباهي شيء ربما لشدة حزني ، كل ما كنت أراه هو انعكاس لصورة حي السيدة وفاطمة، أنواع مختلفة للحياة هنا ، تظن النساء رجالاً في بعض الأحيان ؛ فبعضهن تقود الدراجة النارية وهي ترتدي الجينز الكامل وعلى رأسها الخوذة (ربما كن أجنبيات)، ورجال يسيرون على الأرصفة يتبادلون السلام والابتسام مرسوم على شفاههم؛ أي مدينة

هذه الذي اختار البحر الأبيض أحضانها ليسكنها، أي مدينة هذه التي أوقفت مد البحر ، وحطمت عنفوان أمواجه ؟ أي أرض التي اختارها الاسكندر الأكبر لتكون موطناً لمعجزته، لمنارته ، إلى أين تود الذهاب الآن ، إلى البحر .. أنظر إلى الشاطئ، هناك الفنادق الفخمة والشاليهات الرائعة، أناس من كل أنحاء مصر هنا ، لا بل ومن جنسيات مختلفة ، اللون الأسمر يعلو معظم الوجوه ، بماذا تحلم سمرة اللون على وجنات الصبايا هنا ، ما الذي تريده السمرة من الحياة .

الرمل ، الماء ، اليابسة ، البحر وجدلية البقاء ، هذا الصراع القائم منذ بدء التكوين وحتى تقوم الساعة من ينتصر فيها ، البحر أم الأرض، أسير فوق الرمل الذي أحس به يحضن خطوي بكل الدفء والحب ، والماء يناديك ، أيا من كنت مني ومثلي تعال إلي ، أي سحر هذا الذي يطغى على المشاعر والأمواج تمتد إليك محاولة سحبك معها .

إلى هنا جاء الاسكندر الأكبر وأقام إحدى عجائب الدنيا والتي أبى البحر إلا أن يسكنها قلبه ، وهنا وقفت وما تزال الأرض بمواجهة عنجهية الحبيب البحر ، منعته من التقدم واكتفت بمداعبته ، صراع دائم وحب خالد .

الأجساد هنا لا أدري أن كانت هي التي تحتضن الرمل أم أن الرمل هو من يحتضنها تتوحد معه ، أنظر إليها وأسمع العندليب الأسمر يصدح :

دقوا الشماسي ع البلاج دقوا

دقوا الشماسي من الضحى

لحد التماسي دقوا الشماسي

يا أحلى رمل وأحلى بحر

وأحلى ميه جينالك مشتاقين

يا إسكندرية .

أي الكلمات التي يمكن أن تصف جماليات المكان، وإبداعات الإنسان، وأي المشاعر التي قد تحتوي روعة وهيبة البحر؟ .

الحنان الغريب ، الدفء المدهش ، الخيال الجامح الذي يمنحه الشاطئ والبحر للمتقرب إليه والمتمعن فيه ، أي شعر يبدعه البحر وأي كلام ينثره الرمل ، أي إحساس يمتلك الشاطئ وبحره عندما يتخللان تلك الأجساد الطرية الندية والشهية ،آآه لو كنت حبة رمل، أو قطرة ماء لأخترق الجسد الأنثوي وأستقر فيه .

آه يا مصر ، يا أرض الكنانة وبيت الفراعنة ، ففيك أصل المدنية وعراقة البداوة ، هي الأرض التي صدق عمرو بن العاص عندما وصفها بقوله : ترابها ذهب ونيلها عجب ، نسائها لعب، شعب يجمعه الحب وشفافية الحزن ، يجمعه الصدق والوفاء ، ولا يفرقه عن إخوانه شيء إلا الغدر والخيانة .

أرض الفراعنة التي تخطف قلب زائرها لتزرعه في دلتيها نخلة تسير نحو الشمس ، نبتة قطن تزخر بالبياض والنقاء ، أو عود قصب يفيض على الكون حلاوة ولذة ، أرض تأخذ منك الروح لتتحد مع جزئياتها ، أي وداع وأنت تكسب الإلهام والخيال المتدفق الذي لا يوقفه عن رؤياه وأحلامه شيء .

هل يليق الشعر بحضرة أبي الهول ، وفي حضرة صانعي التاريخ ومجد الحضارة ، هل تجوز في مثل هذه الأماكن إلا التراتيل والابتهالات لمن جلت قدرته أن يحفظ هذه الأرض موطناً للحب والجمال ، ومنبتاً للوفاء والصدق والجود ، هل يليق بها إلا أن تذوب فيها .

آآه فسطاط عمرو وقاهرة المعز ،آآه أرض التحدي والصمود ، يا أرضا أنجبت زعيم القومية العربية عبد الناصر فسلام على روحه يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حيا ، وبطل السلام وصانع أكتوبر المجيد

وأيضا سلام عليه يوم ولد ويوم ارتقى سلم الشهادة ، يا أرضا استقبلت نبي الله يوسف ووليته أعلى المناصب ، يا أرضا لفظت بني إسرائيل وأنقذت نبي الله موسى من البحر ، يا ديار هاجر وأسيا، يا أرض الأمن ، يا من شهد لك الواحد القدوس بقوله (ادخلوا مصر أن شاء الله أمنيين)، السلام عليك يوم كنت ، ويوم تبعثين ، سلام مني إليك يا أرض الطيبين الطاهرين يا أرض فاطمة وسحر ورندا وأم سليمان

***

السلط

يسكنني الفرح ، وتجللني السعادة ، وتعلو جلبة الزغاريد في مزاريب الروح وهي تطوقني بذراعيها اللتين أشعر بهما أطول من التاريخ ،أحاول النظر لجبينها ، فأجده أبعد من الشمس، أي شمس هذه ؟ وأي قمر هذا ، يا الله الآن فقط علمت أي مستقر تجري له الشمس، وأي قلب يبحث عنه القمر ،إنهما يجريان إلى قلبها العامر بالحياة .

بمجرد الاقتراب من حماها تشعر بالدفء يسري في عروقك ، الطهر يملأ منك الإحساس.

إذا هي السلط ، هي التراث الحقيقي لأجداد صنعوا للمجد موطناً، وبنوا للعزة فوق هذا التراب مسكناً، السلط ليست كأي أرض، وترابها ليس ككل تراب ، السلط همس العذارى وبوح العاشقين ، السلط كحل لعيون الوطن ، وزغرودة تبعث في النفس العزيمة ، وفي القلب تشعل نيران الهوى لأرض ما رضيت بالظلم ، لأرض امتدت في عمق التاريخ إلى ما قبل سدوم وشعيب ويوشع وجادور، امتدت في قلب الزمن قبل أن تكون حَزّير ، هي التي هب أبناؤها لزراعة الخير في جوف الأرض، فتفتقت عيون الماء ونفض الزهر عن عينيه الغبار، وسما

اللزاب، وشمخ الزيتون ، وفاح بعطره اللوز وتألقت الكرمة فصافحت عيون السماء .

في السلط ،وعندما أعملت مشرط النظر في جسدها الآية ، وعبرت إلى القلب منها أخذتني الحيرة إلى عوالم من الدهشة والانبهار ، وتسألت أي رابط يربط هذه العوائل التي تعددت منابتها وأصولها ، تعددت مشاربها الثقافية والدينية كما تعددت أشكال الخضرة فيها ، فالمسيحي أخ للمسلم يشاركه كل أفراحه وأحزانه ، هنا أبدا لا فرق بين ابن السلط وضيفها سحرني هذا القلب الذي تشكلت منه خريطة الأردن السياسية والاجتماعية.

عند الإشارة الضوئية أهبط من الحافلة ، والطريق يتفرع إلى أكثر من اتجاه ، أنظر أمامي وإذا بصبية تقف كالطود الشامخ ، سرقتني الخطى نحوها أقترب منها ، ينبض القلب بسرعة وهو يرتعد ، يضطرب فيه النبض ، وغاب مني العقل وأنا أقف أمام الروعة ، أمام القصيدة التي كتبها خالق الكلام ، وأسألها يا أخت حزير وابنة يوشع ، من أين الطريق إلى المدرسة الثانوية ؟ تبتسم وهي ترد على سؤالي : فيكشف البحر عن درره وأغوص في عالم من الأحلام لا يوقظني منه إلا صدى كلماتها؛ عد بضعة أمتار للوراء، ثم اتجه إلى شمالك فالطريق سيوصلك.
أتمنى لو أنها أطالت الوصف لأبقى في ملكوت الجمال سابحاً ، ولكني

أتبع إرشادها وأسير ، إلى أين يأخذني هذا الدرب ؟ هل يوصلني إلى السماء ؟ إنه صعود حاد ، أستوقف أحد المارين في الطريق لأسأله عن المدرسة، يبتسم ويقول: أنت تقف على بعد أمتار منها.

هناك ارتفع صوتي ،أنادي أستاذنا وصديقنا الذي كان مدرسة للخلق السلطي ونبل أهل المدينة ،أنادي أبا معن أينك ؟أنادي الإخوة والأصدقاء ورفاق السلاح والعمر ،أينكم ؟ هيا نتفيأ ظلال سلطنا ونغنيها.

أدخل بوابتها ، يأخذني الشوق إلى الزمن الذ ي أسست فيه ، ماذا كانت تعلم؟ كيف خرجت رجالات الدولة في كل المجالات ؟ السياسية الثقافية والفنية.

من المنشية وتحديداً من مدرستها أعود أدراجي إلى وسط المدينة ، وأنا أقف على ذلك التقاطع ، أحتار إلى أين أتجه ، وأخيرا أقرر أن أتابع سيري باتجاه الشمال ، حيث شارع الميدان ، والذي سمي بهذا الاسم لأنه كان مكاناً للفروسية وسباقات الخيل ، هذا المعمار التراثي والفريد يأخذني إلى تلك العصور ، وذلك الزمن ، زمن الرجال الرجال ، وأسأل محافظ المدينة ورئيس بلديتها ومدير سياحتها ما زال تاريخ السلط القديم مجهولاً، فماذا فعلتم لتكشفوا عنه النقاب، وتنفضوا عن عيون ذلك التاريخ التراب ؟

أتلفت حولي فمن هنا إلى شارع الحمام ، والجدعة والعيزارية ،البيوت تتلاصق وكأنها في عناق أزلي ، أو كأني بها تعيش لحظة التلاقي بعد زمن من البعد ، ومن هذا الدرج نصعد إلى السلالم ، أتابع مسيري نحو الشمال فيصادفني وادي الأكراد ، وأتابع دربي إلى حيث يمتد البصر ، إلى حيث مثلث زي الأغوار ، وهنا يبدأ السحر ، وهنا يفرض عليك الصمت، هنا تبدأ تخيل القصيدة التي ستزينها باسم السلط .

هل يعقل أن تختصر السلط بقصيدة ؟ هل يمكنني وصفها بكتابة ؟ وإن كان كذلك عن أي شيء ستكون الكتابة ؟ عن تاريخها ، أم عن أهلها وعطائهم المستمر ، عن أي المناطق ستكتب ، عن المدينة عاصمة البلقاء ، أم ستزور ألويتها وأقضيتها وكل منها تحتاج للكثير الكثير ، من هنا من هذا المثلث ، تنطلق إلى زي وطباعة العواملة وجلعد وأم العمد، وأيضا من هنا وعلى مسافة أقل من كيلو مترا واحدا تنعطف بك الطريق إلى الرميميين بشلالاتها الرائعة ، ومن ثم إلى البقعة وعين الباشا ، وإذا ما سرت با تجاه الغرب فإنك تتجه عبر طريق متعرج كثير الانحناءات إلى الصبيحي وميسرة ومن ثم إلى الأغوار.

وللحديث عن مدينة الطهر والطاهرين مدينة الشموخ ، مدينة المهباش وعطر السمن الذي ينادي الضيف ، مدينة الأنبياء والصالحين ، فمن

هنا يحرسها يوشع بن نون، ومن الطرف الآخر يقف نبي الله شعيب .

***

ديرعَلاّ مع الاعتذار

هنا أقف لأعيد نشيد الراحل سليمان عويس ، القلب يغنيه ، والروح تطير به إلى الأعالي حيث تقبع هذه المحافظة الآبية .

سلطي أنا وحاكورتي
فيها الشجرْ هالطولْ
ومسيّجهْ لوزْ وعنبْ
والفستقهْ هالطولْ
فيها طواحينْ وعصافيرْ
وحكايا مطرّزهْ
لو تنحكى بتطولْ
فيها انزرعْ جدي
وأبو جدّي وِرِثها عن أبوهْ
اللّي انولدْ فيها
واللّي بنى فيها
بيرْ ومراجيحْ وحرثها سنينْ
عرضْ وطولْ

يا بوي محلا شجرة العلّيقْ
والصبّارْ والزعرورْ
يا بوي محلا شجرة البلّوطْ
فيها يكنكن العصفورْ
ولاّ العريش هْالمستريحهْ
هناك حد السورْ
والدوشق الممدودْ والتنّورْ
وبجالها بيدر زبيبْ
مصبّرْ ومنثورْ
ودلالْ قهوهْ مصهَّيهْ
وفنجانْ دايرْ دورْ
نيّال هالعصفورْ
راح ورجعْ ع العينْ
قبل العين ما تغسلْ
جدايلها
قبل الشمس ما تفيقْ
ويشقشق عليها النورْ
نيّال هالعصفور

معفي من هموم السفرْ

معفي من هموم الطفرْ

معفي من أقساط المدارسْ

وانتخابات المجالسْ

والطوابعْ والصورْ

سلطي أنا

وداري لأهل الخير مفتوحهْ

وأرضي لبنة خيرْ

مفلوحهْ

وجبال خضرا وعاليهْ عالخدْ

مشلوحهْ

ما تنحني هاماتها

ما تنثني راياتها

لو طيّروا بحاراتها

مليون شرتوحهْ

سلطي أنا

ولْ ما يحب السلطْ

لا يسكنْ مرابعها

ولْ ما يحبْ السلطْ

لا يرتعْ مراتعها

تاري براري السلط

لو تكبر مواجعها

تقطع "نسيت" الجن

لو قضّت مضاجعها

تقدح شرار وعلقم ومرّارْ

لو جازتْ مواضعها

سلطي أنا

وأهل الكركْ ومعانْ

يوم يلعلع البارودْ

يحموني

وميّة جبل عجلون والكفرينْ

يسقوني

وزينة شباب الحي بالرمثا

وشباب الغور لو ناديتْ

سمعوني

يا حمودْ لن هب الهوا

وثار العجاج وفطّتْ

جفوني

إقرأ على الموت السلام

وصيح لاقوني

سلطي أنا

ولْ ما يحب السلط

ما يعرف حلاة الحبْ

ما يعشق أبدْ

ضيّع شبابه لازرع أرضهْ

ولا أرضه حصدْ

مجنون من عرف الهوى

بعيون سلطيّهْ

ولا عقله شردْ

أنظر إلى الغرب فأشاهد خضرة الأغوار وأنوار القدس ، فيأخذني الحنين إلى مسرى رسول المحبة والإنسانية ، وتتقد في الروح نيران الغضب على إخوة سمعوا معي أنين النهر ، ووجع الباذان ، سمعوا معي صرخات جبل النار ، ودموع يذرفها الأقصى وتشاركه القيامة ،

سمعوا وصمتوا وتركوني وحدي مع أخي هناك نتقلب على جمر الجرح وابتعدوا .

وأنت تسير في الطريق ، وما أن تقطع مسافة الكيلو مترين ، حتى تشعر بأنك مجبر على الوقوف، إلى يمنيك تربض مع الشموخ زي ، والى يسارك ، تقطن في السفح كفر هودا ، إلى أين تتجه ؟ فلكل منهما مكانه في القلب ، هناك النشامى من أبناء الخريسات ، يحمسون قهوتهم، ليملأ شذاها الأفق ،ومهابيشهم تعزف لك تحية الضيوف ، تعزف لك أنشودة أهلا وسهلا التي ما غابت أبداً عن شفاههم ، وهناك ، أبناء الزعبية والخرابشة والعواملة ، كلها تناديك ، وتزغرد أشجار الزيتون ، والكروم حيا الله بالأخ والابن القادم إلينا .

تأخذك الحيرة أي نداء تلبي أولاً، تكتفي بالنظر لبيوتهم العامرة الطاهرة، ويأخذك الدعاء بقلب خاشع ، اللهم أدم نعمك عليهم ومتعهم بالأمن والسلامة ، اللهم هؤلاء الشامخين من أبناء الوطن الشامخ ، ما زالوا على عهدك يا رب ، ما زالوا على بيعتهم ، لا يخذلون أخ، وما زالوا أرضاً تتحقق فيها معجزة الإخاء الأولى.

ولكن هنا اختلفت قليلاً، إخاء بين الأديان التي أنزلتها يا رب ، أرض الأخ وابن الأخ ما دام يحتفظ بقانون مهباشها، ودستور بيت الشعر فيها .

يعتذر القلب من أحبة سكنوه ، وأتابع مسيري إلى حيث ديرة من ترابها كان شهيقي الأول،تعترضني منطقة الصبيحي، ترادوني بالدخول إليها، تمنحني بعضاً من نسيم أروض به حرارة أرضي،أخفف من لهيب شمسها ،تقبل ترابها عيوني، وأتابع رحلتي إلى هناك .

تلوح لك الأغوار بذراعها أن اقترب لترتوي من بحر البطولة، وترتشف من معين الكرامة، وترى بأم عينك ذلك التلاحم الأسطوري بين الشقيقين ابن الضفة الشرقية والغربية .

تناديك الأغوار لترى بأم عينك الأرض التي أبى أن يفارقها صحابة رسول الله من أمين الأمة إلى ضرار بن الأزور، ورفضوا إليأن يكون نشورهم منها إلى باري السموات والأرض ، تأخذك الأغوار إلى ذلك الزمن البهي بكل ما فيه لتعلمك أن هذه الأرض وإن تعثر فارسها ، وكبى حصانه لابد له من أن ينهض ويسترد ما ضاع منه ، لا يقبل منزلا له غير جبين الشمس.

تأخذك أرض الأغوار المزدانة بخضرتها وبسمرة أبنائها إلى حيث هناك، إلى دير علا ، حيث تلها ما زال شاهد اً على أزمنة ارتحلت وأبقت شواهدها .

ديرعلا بتلها العتيق والذي ما زال عطر الأنبياء يفوح منه ، ينادي المعنيين بالكشف عن الأثار ، ليزيلوا الغبار عن تاريخ هذه المنطقة التي شكلت قبل أن يكون الإنسان .

دير علا سلة غذاء الأردن والتي تمتد من ضريح أمين الأمة وحتى جسر الأمير محمد ، يفوح أريجها عبر حرارة صيفها ودفء شتائها ، ويسمع أنيين قلبها الصادق والمحب ، من وجع قرن صرطبة ، من ألم الأهل هناك غربي النهر والذين مذ كانوا وهم تحت طائلة الابتلاء .

كيف لا يجري القلم للتغزل بدير علا، التي كانت اللثغة الأولى لجسدي منها تنطلق ، كانت زقزقة العصافير أول موسيقى يسمعها هذا الجسد ، وكانت فراشات الأرض وخضرتها أول لوحة تطل عليها العين ، فتعرف معنى الجمال وتقدره .

ديرعلا التي استقبلت هذا الجسد الغض ،عندما أبت الجوزاء إلا أن يكون من أبنائها ، فلا يليق بأبناء هذا اللواء الطيب إلا الجوزاء بعليائها.

هنا وفقط هنا وأنت تجوب الدروب التي اكتنزت بالخضرة، وعندما تطلق للروح العنان تتعلم كيف ترسم فوق ملامح الجسد

المتعب الابتسامة الصادقة النقية، وأنت تجوب الأرض وتتأمل ألوانها المتناثرة بإبداع تتسأل ترى لم يتكئالأشمخان على كتفيها، وتسمع رنين ضحكتهما وهي تجيبك لنمتع النظر بما حبى الله هذه الأرض من جمال.
هنا وفقط هنا تعلمك الأرض كيف تتخذ المواقف، متى تكون لينا طيبا معطاء ومتى ينادي للشدة مناديها .

هنا، وهنا فقط كل الأشياء تسبح باسم من أعطى ومنح. دير علا ، بأرضها المنبسطة كراحة اليد، بخضرتها الزاهية، بزراعتها المحمية يدهشك المنظر وأنت تتأمل المركبات وهي تتلوى في دروبها لتنقل خير الأرض إلى الدنيا .

فلهذا الطين أنشد شاعرالأردن:

والغور ما انفكت غدائر نبته زهوره تحنو على غدرانه

وقال:

و (الغور)مدهامة جناته وأنا في معشرمن بني قومي ميامين

من ديرعلا بقراها التي ما زالت تحتفظ بعادات أهلها حيث لا إذن للزيارة ،كما تحتفظ بخضرتها الدائمة وإرثها، تحتفظ بدفء مشاعرها وحرارة الحب الساكن قلبها ، هنا أقف لأستذكر حديث أبي ، وكلمات أمي التي طالما اختلطت بالدموع وهي تتحدث عن تلك الفترة التي أعقبت معركة الكرامة الخالدة ، حيث كانت تشتعل حرب الاستنزاف

على طول الواجهة ، أستذكر حديثهم عن الغارات الغاشمة التي راح ضحيتها الكثير من الأطفال والنساء و الأبرياء .

الغارات التي كان يشنها العدو كما يدعي كانت تستهدف رجال المقاومة، وويل لذلك الغاشم أما درى أن كل شيء هنا هو مقاوم من التراب للطير والشجر وحتى الإنسان المجبول من هذا الطين ،أسأل أمي لم البكاء وأنتم تتحدثون عن الشهداء ، وهم في جنات الخلد رفاقهم فيها الأنبياء وأولياء الله ؟

تقول: يا بني لو كتبت لهمالحياة لربما استطاعوا أن يغيروا من الواقع، أسأل أبي بخبث، يا أبي لم تسمونه عدوا وقد وقعت الاتفاقيات، وأصبح جاراًأردنا ذلك أم أبينا، أصبح صديقا، يستثمر الأرض والإنسان هنا، يا بني، هل يعقل أن أمد يدي لأصافح من قتل ولم يرحم، هل يمكنني أن أحادث من جلد وحرق وشرد .

يا بني السلام المزعوم سلام حكومات ، وليس سلام شعوب ، وما لم يقرره الشعب أبدا لا يدوم ، أرد عليه بسؤال وماذا أنتم فاعلون ؟ الأمر يترك للأيام لتسطر ما يكون .

هنا تترك الروح تنصب حبال العشق بين جبال البلقاء وجبال نابلس لتتأرجح الحب حاديها ، عشق السنا الإلهي هنا يناغيها ، والقلب ينشد سبحان من أبدع هذا التراب . ***

في طريق العودة

نتناول الوجبة التي أعدت تحت تلك الدالية التي تمددت طولا وعرضا لتقص لنا قصصا عن التراب الذي منه كانت، نتناول الوجبة على نغمات الوالد ودموع الوالدة وهم يحدثوننا عن أيام رحلت ، وخطفت معها شباباً كانوا بعمر الزهر .

نصعد إلى المركبة متكلين على الله في طريق عودتنا ، وتدعو الوالدة بدعاء السفر،ونحطلق، يبدأ الحديث، دقائق قليلة ونقف إلى نقطة تفتيش على سيل الزرقاء ، الذي أبى إلا أن يفيض بمائه حتى وإن رحل الشتاء ،يبتسم الجندي القابض على بندقيته ويسمح لنا بالمرور ، نصل إلى منطقة فيها تشكلت خيوط الذاكرة الأولى إنها معدي ، معدي تلك القرية الوادعة والتي تقسمها قناة الغور الشرقية والشارع الرئيسي إلى قسمين ، معدي المكتظة بالأشجار، نتوقف عن مسيرنا، أركض إلى الجسر وأتكئ عليه أنظر إلى الماء ينساب بوداعة .

بالله ، كم هي ساحرة هذه المياه ، كيف لهذا الهدوء والصفاء أن يزهق الأرواح ، ومنه الحياة .

أنظر إلى الماء ، يأخذني إلى أيام مضت بجمالها وشقاوتها ، يأخذني إلى أيام الطفولة والشباب، وتتداعى الصور، أستذكر المدرسة، هنا تعلمت شرب السجائر قبل أن أتعلم رسم الحرف ، من هنا من دكان البيطار اشتريت أولى سجائري ، تلك هي المدرسة ، صور المدرسين تتداعى أمامي ، الأستاذ ربحي ، الأستاذ مفلح الختوم ، الأستاذ عوني مدرس التربية الإسلامية ، الأستاذ سليمان خريسات مدير المدرسة ، يا الله كم كانت تلك الأيام غنية بما فيها ، من هناك من الجهة الغربية كنا نقفز عن سور المدرسة لنغزو بيارة الكايد، هنا كنا نقف نتلصص على الصبايا، ومن هنا كنت أصعد إلى أقاربي في الضفة الشرقية من معدي، هنا نقف ونقص على بعضنا مغامراتنا مع الصبايا، يا الله كم كانت عفويتنا ،وسذاجتنا .. حتى كذبنا في تلك الأيام كان جميلاً.

تنطلق السيارة مرة أخرى ، نصل إلى مثلث العارضة حيث المنحنى،أما أن تتابع طريقك أو تنحرف من أمام المركز الأمني لتصعد نحو البلقاء، نقرر أن نتابع المسير، حيث نصعد من طريق مختلفة، بضعة كيلومترات، وكنا على مثلث المصري إلى يسارك مزرعة الجامعة وإلى يمينك تتجه إلى جسر الأمير محمد ، هذا المعبر كان المقترب الثاني الذي عبرت منه قوات الاحتلال في معركة الكرامة، وهنا كان للنشامى وقفتهم التي سنبقى نباهي بها الدنيا، نصل إلى الجسر ، أتسأل ما الذي

يمنعني من العبور إلى الجهة الأخرى ، من الذي يمنعني أن أصل العوجا وأسلم على الباذان وأصعد لأصل لمسرى سيد الأنبياء ، يجيبني أبي ما باليد حيلة ، حتى محاولة الاقتراب تعني نهاية الحياة .

ننطلق نحو الجنوب، نحو كرامة العز والإباء، نحو كرامة الأمة التي أعيدت على هذا التراب الطهور، حيث كان للرجال أن ينتفضوا وكان للتراب أن يثور، وكان للشعب أن يغني .

وكان التحدي مع المعتدي الذي ما نجح في مقاصده وترك جرحاه وقتلاه ومعداته وولى هاربا، يخشى الرجال ويخشى التراب الذي يسير عليه .

إلى حيث الكرامة وما أدراك ما الكرامة، حيث انتفض مهزوموا الأمس ، ضمدوا جرحهم ووقفوا بوجه الغربان وحطموا الأسطورة التي صنعتها الهزائم السابقة ، حطموا مقولة الجيش الذي لا يقهر ، نعم هناك كان لأبناء الضفتين أن يشكلوا درعاً منيعا بوجه العدوان على هذا التراب المقدس ، وما زلن نشميات ذلك الثرى المقدس يسمعنك تلك التراتيل التي كن يرددنها في المعركة الخالدة ، معركة الربيع ليرتوي الزهر بدم الشهداء الإخوة .

كان الفارس الأردني الذي يحتضن بندقيته ويستمع لزغاريد الأردنيات وهن يرددن ما رددته زوج أبي سفيان :

نحن بنات طارق

لابسات النمارق

إن تقبلوا نعانق

وإن تدبروا نفارق

فراق غير وابق .

والبواسل ينشدون ويصهلون ب:

هبت النار والبارود غنى

اطلب شباب يا وطن وأتمنى .

تدهشك ابتسامة الزهر، وتسحرك أناشيد الأرض، وتأخذك الجباه السمر إلى حيث المهابة والنخوة، إذا نظرت للغرب عانقت جراح نابلس والقدس والخليل، وإذا نظرت للشرق شعرت بأن أشجار عجلون والسلط تتحرك باتجاه الغرب لتوقف نزف الإخوة هناك ، بينما أبناء الصحراء يلوذون بقصورهم.

يا الله ، كيف لهذا الصدر أن يحتمل الأشمخين الرابضين على كتفيه تقف إلى جانب النصب التذكاري لشهداء الكرامة والذي يربض في شونة العز والفخار ، وعلى مقربة من معبر الملك حسين ، تقرأ الأسماء

التي طرزت العز وساماً على كوفيات الرجال، وعقد فخار في أعناق السيدات، كيف تحفر بداخلك تلك الأسماء، وتسكن الذاكرة لا تدري، تدقق في الأسماء وتراجع السجلات وإذا بكل هؤلاء الشهداء عندما صدقوا وعدهم ورحلوا لملاقاة باريهم كانوا قد كحلوا عيونهم بتراب وادي السيسبان. افتدوا ترابه وساروا في طريق العلى نحو الرضوان، ليكونوا هناك بمعية سيد الخلق .

من الشونة أعود أدراجي إلى الفتنة ، إلى السحر ، إلى السلط من طريق وادي شعيب ، يخطف الألباب سحر الأشجار التي تطاول السماء ، الرمان في السيل المحاذي للطريق ، والتلال المتوثبة ليوم اللقاء تنتظر لحظة الثأر من أبناء الخنازير ، يدهش الناظرإليه عدم قدرة الريح على بعثرة ترابها بل زادتها صلابة .

أثناء صعودك الطريق باتجاه الديار الأبية ، يوقفك نبي الله شعيب ، ليروي لك بعضا من قصة هذه الأرض ، ومن قصة عزتها ، وتتساءل عن السر الذي جعل أنبياء الله وأوليائه يفضلون هذه الأرض عن أية أرض أخرى ليكون رقودهم الطويل فيها ، ومنها يبعثون لخالقهم، أتابع سيرى وأعتذر من الروح التي كانت متوثبة لزيارة أرض الملح ، لزيارة سدوم ، ولكن بالتأكيد لي عودة ،ولكن متى ؟

عيرا ويرقا تناديان بشوق ، وماحص والفحيص من الجهة الأخرى تدعوان ، وأنا أصغي السمع لأغنيات الرمان ، ومعزوفة السيل تبعث النشوى في القلب فنهبط هناك ، يلاقينا زهر الرمان بالابتسام ، والماء بالصفاء ، صفاء قلوب أبناء هذه الأرض، نتناول قهوتنا هناك ، وأنا نسيت من هم بمعيتي وأنا أسال الرمان متى ينضج ثمرك ؟ متى يحين قطفك؟ وشذى الزهر يفوح من الجنبات ويغريك بالبقاء .

ويستمر الصعود نحو الذرى لألتقي بالسلط مرة أخرى لأتجول في حواريها من جديد، ولأنادي الأهل والأحبة هناك من جديد ،لأطبع على جبينها قبلتي وأعود إلى بيتي الجديد في أرض الإله، أرض عين غزال والقلعة وسبيل الحوريات .

***

في حضرة الحارث

(البتراء)

في حضرة الورد ، في حضرة الحارث: ألوذ بجنباتِ السكون ، أستمعُ لقهقهاتِ الحصى عندما تلامسها خُطى القادمين إليها، المشتاقين لروعتِها ، اللاهثين خلفَ تاريخِها الحافلِ بالإنجازاتِ، الحالمين بالنظرِ إلى بهائِها، الآتيين للتمتعِ بجمالِها الأسطوري ، الباحثين عما يهديهم إلى نفوسِهم الضائعة ، ويثيرُ فيهم التساؤلات عن سرِ اختفائِها في قلب الزمن قروناً .

أستمتعُ بأناشيدِ الجنودِ وصليلُ سيوفِهم، أنظرُ إليها،أتأملُها، فصمتهُا يبوحُ شعراً. وصخرُها يفوحُ عطراً، وليلُها يذيبك نشوةً وعشقاً، همهمةُ الحصى التي تحتضنُ الخطى بكلِ الدفءِ أبلغُ من كلِ القواميس ، وأقوى من أي تعبير ، أي شعرٍ وأية كتابةٍ هي التي قد ترتقي لمستوى البتراء ؟

البتراءُ وبالرغمِ من الصمتِ الذي يلفُها إلا أنها تضجُ بالحياةِ، بالحبِ والحنينِ، وتشعرُك بلذةِ وجودِك وقيمةِ انتمائِك لهذا التراب الذي منه كان الأنباطُ ومنه كنت .

البتراءُ تعجُ بالحنينِ إلى ما يعيدها أسطورةً باقيةً، ومعجزةَ الإنسان الخالدة .

تقودني الروح إلى مدينة الحلم ، المدينة التي أدهشتني عندما وقفت على بوابتها للمرة الأولى وكنت حينها مازلت على مقاعد الدرس فتياً، كنت بعمر الورد عندما حُفرت بذاكرتي، كانت مخيلتي لا تزال تحتفظ بعذريتها ، كنت ما زلت الثغ أول حروفي ، وكان جنوني في بداية خطوه يحاول تمزيق ثوب الطفولة وعتمة البراءة .

ظلت تناديني وأسمع ذلك النداء يشدني إليه وتغيب الروح في أركانه البهية، لكنه الزمن القاسي وعجرفة الأيام كانا يسدان الطريق بيني وبين أول نقش حُفر على جدران الروح، ظل يلح عليّ بهاؤها الخرافي ولونها الوردي وانعكاس أشعة الشمس على أعمدتها ودروبها للعودة إليها.

ها أنا أعود إليك مكبلاً بقيود الشوق لأطفئ ظمأ القلب؛ لرؤية الروح الأسطورية التي تكونت منها مدينة الحلم ، واختلاط اللون الوردي مع أشعة الشمس لتشكلان روعة الفن وقمة الإبداع الإنساني ، لتخمد نيران الروح المشتاقة لبهاء المعابد فيها والاطلاع على جدلية الحياة ،" فلسفة الموت وقيمة الوجود "، أي فن كان يقام على مسارحها الموزعة بأناقة على الساحات والدروب المطرزة بالحجارة التي صقلتها أيد فنانة مبدعة .

إنها البتراء أنشودة الدنيا وترنيمة الحياة مذ كانت، وأظنها مستمرة كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، البتراء الآتية من زمن رحل بكل مافيه من نشوى الانتصارات، نشوى الفرح بأفواج القادمين إليها بحثاً عن الأمن ، نشوى الاحتفاء بالقادمين إليها ليودعوا خيرات أراضيهم فيها .

وحدها البتراء والتي لفرط عزتها اختفت عن العيون وغابت خلف صمت الصخور، ارتدت ثياب صمتها ونامت في عيون الزمن عندما تجرعت مرارة الخيانة وذاقت جمر الهزيمة ، نعم غابت ولكنها أبقت أثرها شاهداً على تاريخ عز وشموخ وإباء .

هي وحدها التي جعلتني أطرح سؤالي على صخورها دون خوف أو خجل ، إن كنت قد رحلت لمدن النسيان ردحاً طويلاً من الزمن ، من أين ورثنا نحن نشوة الهزيمة والفخر بالتبعية والاعتزاز بالانكساروالمباهاة بتسمية الهزائم والانكسارات؟

فمن نكبة إلى نكسة إلى تحرير كاذب ثم عاصفة الصحراء وحرب للخليج سميت بالأخيرة ، ها نحن نسفك دماء بعضنا فأرض النعمان اقتسمها الخوارج (الرافضة) ومن تبعهم، وهاهو الدم يسفك في أرض دجلة، وفيها تتكرر أيام التتار، ويُستنسخ (تيمورلنك) أيها الكاهن أدخلني لسيد الأرض فأنا جئته طالباً النجدة لوقف نزيف الشمس على

أبواب مدينة السلام ، هاهي المعابد يا سيد التاريخ تهدم على رؤوس من فيها، وكذلك المراقد هاهو دجلة يُصبغ بالأحمر القاني، أعدنا لذواتنا حتى لو اضطررت لإبادتنا.

إذاً هي سيدة الأرض، هي مملكة الصحراء، "مهد الإله شراه" حاضرة التاريخ والمئذنة على جبينه، نقش الأنباط على صدر الزمن، درة الحضارات، أرض البداوة ، أرض الحوارث، "أرض رب أيل " مملكة الأنباط؛ أنباط البتراء ، أبناء هذه الرمال وهذا الطين الذي منه كانوا ومنه كنت.

أرى الشمس ترنو لغرة الأياملبتراء والتاريخ الذي أبداً لا يفارقها.

البتراء هي الجدارية الأولى التي أبدعتها يد الفنان النبطي وأهداها للإنسانية؛ لتبقى شاهد عصر للأنباط، الذين زاحموا روما أعظم ممالك الأرض في ذلك الزمن، بل وهزموها وكانت المسيطرة على طرق التجارة البرية والبحرية في زمنها .

أقف أمام خزنة الجرة التي هي المدخل الرئيسي للبتراء ، تنساب الدموع من القلب والعيون، وأتساءل ما الذي أسقط الدمعة الحرى النقية وأنا على مشارف الحلم ؟أهي دموع الفرح بأن حققت حلمي بالعودة إليها؟ أم هو وهج القلق، وحرارة الدهشة؟ أم هو انحباس الكلمة داخل شيطاني أو ملهمي؟ أم إنها السعادة بتحقيق الخطوة الأولى من هذا

الحلم الذي بقي يراودني منذ رأتها عيناي لأول مرة؟ أم تراه الشوق والحنين للبتراء وزمنها الحر العزيز ؟

أقف في حضرتها وأمام الخزنة الخالدة مخاطباً : الشوق يشدني إليك يا بتراء العزة، يا وجه التاريخ المشرق ، يا خلود الأجداد ، يا معجزة الأنباط الخالدة رغم أنف الزمن وتفاعلاته.

أقف أمام بوابة البتراء أو خزنتها "خزنة الجرة"مع زميلي في العمل، وهو يمسك بقلمه، أخاطبه يا عزيزي هل تستطيع الكلمات أن تُبقي على معانيها وهي تقف في حضرة عروس الممالك وزهرة الصحراء، وقُبلة ذلك الفنان الدائمة على وجنة الأرض .

إلى هنا يا صديقي كان الفرعون وزنوبيا والنعمان وكل ما كان يحيط بهذه المملكة من ممالك كانوا يأتون بخيراتهم، وهم يعلمون علم اليقين بأنها لن تضيع أو تنهب ، هنا أبداً لا تخان الأمانة .

أقف على بوابة البتراء ، أستعيد ذكريات المرحلة المدرسية التي قادتني إليها ، أستذكر تلك الأسئلة الساذجة التي كنا نوجهها لأستاذ لم يكن يعرف من تاريخ البتراء شيئاً، يا إلهي كم اهتزت صورة المعلمين في نظري بعد أن ظلت ولفترة طويلة لا تقبل الجدال، وهي المعرفة الكاملة والشاملة لكل الأشياء، كيف لكلمات المعلم أن تحتمل الخطأ والصواب؟

هيا يا بن هذا الطين، يا بن الحسنات والبدول، يا بن الحويطات ، يا بن البداوة لنبدأ رحلتنا إلى السحر، إلى انبجاس الحضارة، إلى الرمز الإنساني الخالد ، هيا يا عزيزي لأطلق سراح الروح التي أتعبها هذا الجسد لتصغي لبوح البتراء، ولتلوذ بفنائها الرحب، لتسمع وتستمع بأناشيد النصر التي ترددها ألسنة الجنود المنتشين بفرحهم ، وأغاني العشق التي تطلقها حناجر الصبايا الجميلات والفرسان الحق، وتفرغ انطفاءات القلب وتداوي جراح السنين وتعيد تشكيل الذات من جديد، من خلال الانتشاء بالمكان المسكون بعظمة الأنباط وأيام إشراقهم . ها أنا أسير في سيقهاها أنا أسير في سيقها الأطول من تاريخنا، الأسمى من وجودنا، ولا أزال تحت تأثير خزنة الجرة، أتلمس الحجارة فتنعشني نعومتها، أصغي لأغنيات الحصى المتطاير من تحت الأقدام ، أشعر بالجند يحيطون بي من كل اتجاه ، من هنا سيطل عليّ أحد الحوارث، أرى نفسي وأنا أنحني أمامه ، أسمعه يوبخني على انحنائي وينكر عليّ عروبتي ، من هنا ستظهر "شقيلة" أذوب في سحر عينيها ، يغرقني عبق أنوثتها وتخيفني هيبتها .

آآآه أيها القلب كيف تجمع في شخصها الأنوثة الطاغية وهيبة المُلك؟شقيلة أيتها الملكة الرائعة يا أم رب أيل الثاني؛ كيف سيرتي أمور مملكتك العظيمة في غياب أعظم ملوك البتراء، كيف لي أن أطبع قبلتي

على يدها فأدخل التاريخ ؟ وأعلو بهاكزعرودة البتراء، بعد قليل سأمتع عيني بالنظر لابنة الفرعون التي احتفى بها الأنباط، وبنو لها قصراً أسموه قصر البنت ، هنا سيوقفني الجند ، يسألونني من أنا ومن أين أتيت وإلى أين سأتجه ؟ أخبرهم بوجهتي وبحثي عن أجدادنا الأنباط .

يركض صديقي أحمد باتجاهي وأنا أنادي "شقيلة " يا امرأة تجسدت في عينها روعة الكون، يا امرأة فاح عبق سحرها في الدنيا، وأشعلت بشموع أنوثتها ليل البتراء ، أيها التاريخ ، من لنا بعد الحارث الرابع، من لنا بعد شقيلة، صدى صراخي وأنا أنادي؛ أيها المكتشفون، يا علماء الأثار، فتشوا في حجارة البتراء؛ لعلكم تعثرون على المزيد من أخبار هذه المملكة العصية على الفناء ، لعلكم تجدون من أخبار شقيلة ملكة بترا المزيد من الأخبار .

يفاجئني صوت زميلي ورفيق رحلتي بصوته الخفيض ليخبرني بأننا وصلنا إلى المعبد، أتسلق الدرج الطويل، أسابق أنفاسي، يتراءى لي الكاهن ، أرجوه أن يعمدني بتراتيل الأنباط، وأن يعيدني من زمني المقرف ، آه يا سيدي أين شراه ؟ اسمح لي بالمثول أمامه ،لأرى ذلك الإله العربي اللسان الآرامي الحرف، قدمني قرباناً على مذبحه لعله يرضي شعباً يئن تحت وجع الأيام وظلمها كما كان يرضي شعبا مترفاً، شعبا كان سيد نفسه وسيداً لمن حوله ، قدمني قرباناً على مذبحه لعل

دمي يتسرب بين شقوق البتراء فيختلط بلونها البهي ، فأكون جزءاً من بتراء الأنباط .

ها أنا الجأ إليك ، ألوذ بأبهائك السنية ، لأطفئ عطش السنين ، أركض لمدافنك أحاول نثر التراب عن أضرحة أناس اختاروا بطن الأرض قبل أن تمسهم الهزيمة .

أعود إليك وأنت التي اخترت البعد عن البحر لأنك لا تأمنين غدره، ابتعدت عنه قليلاً ولم تفارقيه، جاورت رم وكانت ضمن حماك ، آه يا ابنة الصحراء شهيقك نسيم البحر وزفيرك وهج الصحراء لتكون غيوم الشموخ وتمطر على هذه الأرض عزة ومجد .

ها هو نبي الله هارون يربض بالجهة المقابلة لعينيك يحرسك بدعائه يتوجه إلى الله أن يبقيك زهرة للأرض وزغرودة تلجأ إليها القلوب لترتاح من عناء أيامها الثقيلة.

أخيراً:

شكراً أيها المغامر الصغير لأنك أعدت تأثيث الذاكرة الإنسانية من جديد ناقشاً البتراء وشماً يزين تاريخ البشرية منذ أول ضربة إزميل في صخور تلك الأرض، شكراً لأنك نفضت التراب عن تلك المدرجات

والدروب والساحات التي زينت ببلاط نقشه الفنان النبطي ، شكراً لأنك أعدت اكتشاف البتراء لتعيد الفرح لشفاه الشمسعندما ترى أشعتها وهي تمتزج باللون الوردي الذي يشع من أعمدة وبلاط البتراء بيركهارت .. ألا من عودة للبحث والتحري ونفض المزيد من التراب عن تلك التي ما زالت تختبئ تحت أطنان منه.

شكراً بيركهارت لأنك أعدت البتراء غمامة تظلل هذه الأرض، وتنعم عليها بأوسمة الأجداد ، شكراً أيها المغامر العملاق لأنك أعدت اكتشاف البتراء فأعدت اكتشاف الإنسانية .

شكراً ديفيد روبرتس لأنك طرت بالبتراء إلى الدنيا ، لأنك كحلت عيون العالم برسم البتراء عندما غفلت عنها عيون أبنائها ، شكراً أيها الفنان العظيم، يا فنان البتراء لأنك أعدت تسويق البتراء وجعلت الحجيج يأتون إليها على كل ضامر ومن كل فج عميق ، شكراً لكل يد نفضت عن عيون بترا زهرة الصحراء ذرة تراب لترد عن عيون الشمس حزنها.

***

رحلة إلى الله

لا أدري كيف اخترقتني كلمات تلك المرأة الأمية، تلك الياسمينة التي يعبق شذاها في بيتنا، تلك المرأة التي لا ننام إلا إذا التففنا حولها ، تلك الأنثى الأمية وحدها من صعقتني بكلماتها ، أشعرتني بضعفي وأنا الذي لم أكن أؤمن إلا بما أحسه وأراه ، كلمات قليلة، كلمات مختصرة ، ولكنها تحمل من الحب ما تعجز عن وصفه كل الكلمات .

كلمات اخترقت قلبي ، استقرت في وجداني ، هزت شيطاني وأربكته ، قريني الذي عجزت كل حيله عن طرد أو انتزاع تلك الكلمات وذلك الوجه بملامحه الملائكية من ذهني.

يا بني كفى من العمر ما مضى ، كفاك ما قضيته من عمرك طيشاً ولعباً وعبثاً بدنياك دون أن تغنم منها شيئا بل أنت الخاسر دوماً ، يا بني تعرف على من أحبك دون أن يحتاجك بل دوما أنت من يحتاجه ، تعرف على من هو دوماً كما تظنه، تعرف على من وسعت رحمته كل شيء، اقترب من النور، اقترب من الله جل في سماه، اقترب منه وستجد مخرجاً

لكل أزماتك، وفرجاً لكل ضيق، تعرف عليه ورافقني لزيارته، وبعدها لك الخيار، أن تستمر في دربك ، أو أن تعود إلى من سوَّاك .

كانت تعزف على الوتر الذي تعرفه جيداً، كانت تضربني دوما على خاصرة العاطفة ،كانت كلماتها المتحدية تخترق ضعفي ، وتسقط آخر قلاعي ، كانت واثقة من هزيمتي أمامها كالعادة فهي دوماً من تنتصر، تتلعثم الحروف على لساني أخرجها عنوة وأسألها :

أين أزوره يا أمي ؟ أين يقيم ؟ وهل له مكان يتواجد فيه لتتم زيارته ؟

هو في كل مكان ، معك أينما كنت وفي كل وقت، هو من وسع كرسيه السماوات والأرض انظر لنفسك هل تملك من أمرك شيئاً، تأمل السماء ، واسأل من بناها بغير عمد ولتجب على نفسك بحيادية دون أن يكون للأفكار المسبقة أي وجود ، تمعن في الأرض وانظر كيف تتبدل وتغير جلدها في كل مرة فمن ربيع مزهر إلى أرض جرداء إذا ما حل الصيف ، وكيف تتعرى أشجارها عندما يحين وقت الخريف، إنه يراك دوماً وأنت لا تراه إلا في خلقه ومعجزاته .

حسنا يا سيدتي: سأرافقك ولكن لا تجبريني على شيء لا أود فعله، لك هذا.

أيام عديدة استمرت وأنا أفكر في كلماتها البسيطة وحوارها الهادئ، هناك شيء يتسرب إلى داخلي ولكني لا أعرف ما هو ، هناك فرح يغزوني ولا أعرف له سبباً، هناك مشاعر مختلطة تقتحمني ولكني لا أستطيع تفسيرها ، وأخيرا كان القرار الذي لا رجعة عنه وهو أن أكون رفيقا لأمي وشقيقتي التي تصغرني بعامين، قريني يحاول ولكن كلمات أمي كانت هي الأقوى، ونجحت في أن أُلحق معاملتي بمعاملاتهن وأنال تأشيرة الدخول لبيت الله معهن بالرغم من تأخري !

حان الموعد ، حملت حقيبتي وسرت معهن، خطواتي تسبقني ، لماذا ؟؟ هل لأنها المرة الأولى التي أغادر فيها ديرتي ؟ تبرير معقول لحالة الفرح المذهل الذي كنت أشعر به في تلك اللحظات، صعدنا إلى الحافلة كانت والدتي وشقيقتي تجلسان في نفس المقعد وأنا اتخذت من مقعد مساعد السائق مقعداً لي.

أبو يونس أسر في أذني بأنه إن لم يجد من يشاركه السهر في هذا الطريق الطويل يخشى أن يسيطر عليه النوم وهو يقود الحافلة، فيكون السبب لوقوع كارثة لا قدر الله، فوعدته بعدم النوم حتى نصل إلى المكان الذي هاجر إليه حبيب الله ومنه تكونت إمبراطورية الإسلام، والتي انتشرت حتى ملكت الأرض كلها،(ولكنك لن تطيق مع أسئلتي صبرا).يااااه

وهل سأرى حقيقة المكان الذي نصره وأن أرى قبره وأين كان أول مسكن له وأين عقد أول اجتماع لدولة دانت لها الأرض،كل هذه الأسئلة كانت تراودني وأنا أعجز حتى الآن عن وصف المشاعر التي غرقت بها وليتها استمرت أو ليتني قضيت نحبي وقتها .

سارت الحافلة من رغدان باتجاه وادي الرمم، كانت تسير الهوينا حتى تجاوزت مبنى الإذاعة والتلفزيون، وفجأة بدأت تلتهم الطريق، كانت الساعة تشارف على السادسة مساءً عندما وصلنا إلى إحدى الاستراحات في بلدة القطرانة ، وهناك بدأت أولى المشاكل حيث تعطلت الحافلة، وانتظرنا إلى ما بعد منتصف الليل حتى وصلتنا الحافلة الجديدة التي سنواصل بها رحلتنا إلى الله، كنت قد راهنت أبا يونس على أن ثلثي من كان معنا ليس متجها إلى الله، بل لغايات أخرى ،وبعضهم لن يكمل معنا الرحلة بل سيضربون لنا موعداً لكي نعيدهم معنا فاستجاب لرهاني، وما إن وصلت الحافلة الجديدة حتى بدأت و أبو يونس نوقظ من كان نائماً وننادي من ترك الموقع ونبحث عن آخرين، ساعة من الزمن أو ما يقارب ذلك حتى اجتمع الناس وصعد أبو يونس خلف مقود الحافلة وأنا لجانبه، كنت باستثناء شقيقتي أصغر من في الحافلة ، التي بدأت تلتهم الدرب بلا رحمة، يا الله ما أعظم ما وهبتنا ، وهبتنا العلم ولولاه لما كان هذا الاختراع الذي يختصر الوقت

ويبتلع المسافات ، طلبت من السائق أن يفتح باب الحافلة لأنظر إلى السماء ، رفض بشدة وقال بلسانه الثقيل:" الدنيا ليل، والليل أسود .. شو بدك تشوف؟ قليل من الوقت ونصل الحدود وتشوف السماء مثل ما بدك، وتعد نجوم مثل ما بدك، وتتذكر حبيبك وتشوفه وين ما بدك " التزمت الصمت وبررت رفضه ورحت أتأمل الرحلة منذ أن انطلقت حتى تلك اللحظة ، فقط أريد أن أصل إلى أرض الله، بيت الله ، أريد أن أتعرف إليه ، أريد أن أراه ، لم أر من الطريق شيئاً إلا ما كان يسمح لي به نور الحافلة .

معان ، نحن الآن في معان ، وهنا لا بد للذاكرة أن تقف لا بل أن تعود إلى الوراء كثيراً إلى تاريخ زاهر ما زالت ملامحه واضحة جلية تسقط كل الأقنعة عمن يدعون أن هذه الأرض ما كانت إلا مع تأسيس الأمارة ، كيف ؟ وهنا كانت الدولة الأقوى في تاريخ المنطقة ، هنا المكان الآمن لكل الخائفين منذ فجر التاريخ حتى يومنا ، هنا عاصمة الصحراء ، هنا تأسست وقامت دولة العرب الأولى ، هنا كان النظام الذي يسير عليه كل أفراد المجتمع هنا كانت دولة الأنباط التي أهدت العالم الفن الحقيقي والدائم .

من هنا خرجت الجيوش التي طهرت الأرض من عسكر روما ، هنا توحدت قبائل المنطقة في نظام شامل ، هنا ولد الحارث الأول والثاني والثالث والرابع ، إلى هنا لجأت ابنة الفرعون لتحتمي من خوفها وأُسس لها قصر ما زال يسمى باسمها "قصر البنت " هنا كان مستودع الذهب والفضة لكل الدول المجاورة إذا هنا كان الأمان ، ومن هذه المنطقة مر رسول رسول الله حامل رسالته لهرقل عظيم الروم، حيث كان لاعتراضه من قبل الغساسنة واستشهاده على أيديهم السبب في موقعة مؤتة الخالدة، حيث منها بزغ نور الدولة الأهم عبر القرون الآتية، وهنا تأسست مملكتي الحديثة ، وهنا كانت تزرع بذرة الجيش العربي الذي أنا الآن أحد منتسبيه وأُفاخر الدنيا بانتسابي إليه، هنا التاريخ ومن هنا عاد الراعي ليؤسس دولة أعداء الإنسانية ، أعداء الله ورسله ، وفي ديرتي كانت العدالة وكان شعيب ، لماذا تنهال الذاكرة وينساب التاريخ بهذه السرعة في ذاكرتي؟ فقط لأنني وصلت معان ، معان حاضرة الصحراء وسيف يحمي خاصرة المدنية ، معان أم التاريخ حاضنة الثورة العربية التي لو قُدر لها أن ينجح هدفها لكانت أمتنا على غير ما هي عليه الآن ، معان تقترن برم والعقبة ، ترتبط بمدين والأغوار، معان وثيقة الصلة بالكرك ومؤتة والطفيلة ، مدين وسدوم وحشبونومادبا وأورشليم، كلهن شقائق لمعان .

أحتسي فنجانا من الشاي وأشعل سيجارة لعلي أفر من ذاكرتي التي ازدحمت بالعناوين، عناوين كثيرة آخرها من هنا والطفيلة، من تجمع البادية ، بادية الغر الميامين، المُحلقين ببداوتهم إلى ذرى المجد ، هنا صدر البيان الأول الذي رُفض به وعد بلفور ومن هنا كان ينطلق جيش الثوار لتحريرِ فلسطين، ومن هنا كانت تصدر الأسلحة والذخائر إلى المقاومة الفلسطينية ، معان آه يا أم المدن وأم التاريخ ، يا أم الرجال الذين ما حنثوا عهدا ولا سكتوا على ضيم .

بقيتُ على هذه الحال شارد الذهن ، أبتسم حينا، وأسقط في فخ الدمعة حينا آخر ، حتى أخرجني أبو يونس من عالم التاريخ وأدخلني بوابة الواقع بقوله: محمد نحن الآن في المدورة ، هيا نتمم معاملات الركاب وننجزها ، لنتابع مسيرنا نحو الديار المقدسة ، تركته وكأني لم أسمعه وسرت باتجاه الشرق ، لا أدري عما أبحث ، كل ما أراه في الهزيع الأخير من الليل هو رمال أحسها تغوص في باطن قدمي لا بل تحتضن قدمي وكأني أعلم أنها تعرف أني من أبناء طينتها ولكني لا أعرفها لم أشعر ببرودة الرمل أو الصحراء كما تعلمنا ، ولكني كنت أحس والرمل يحتضن قدمي أن دفء العالم يلفني ، دفء العالم انطلق من هنا .

أحلام ورؤى تكثفت أمام ناظري وسؤال فاجأني أين حكومتنا من هذه الأرض ؟ كيف نسيتها ؟ وبإمكانها أن تحولها إلى جنة غناء ، ولم يوقظني من أحلامي ومن جلد السؤال لنفسي إلا نداء أبي يونس وصراخ أمي التي تنادي وكأنها لن تراني بعد هذه اللحظة ، أقل من عشر دقائق حتى وصلت إليهم وفاجأني أبو يونس بكلمات لا أدري من أين أتى بها ، يا بني نحن في طريق طويل و لا يلزمنا مجانين لأنهم قد يعطلوننا عن مسيرنا ويقتلون الوقت بأشياء مجنونة ، نظرت إليه مبتسما وكان رد أمي قد سبقني لأنها لا تحتاج إلى تحضير كلمات كما أحتاج ، لا تحتاج إلى قاموس تبحث فيه عن كلمة لترد بها وتوصل ما تريد قوله ، قالت : وهل لذة العيش إلا للمجانين ، ليتنا كلنا نحمل ما يحمل من جنون ، أبدا لا يضيع منه الوقت إلا في البحث والتأمل ومع ذلك فهو في مدرسته لا يصنف مع المتفوقين لا ولا يقترب منهم همه الحصول على علامة النجاح ليرضيني ويرضي أباه "هيك خلقه ربه شو نسوي إحنا "، وهنا حلت المشكلة الثانية ، حيث لم يُسمح لحافلتنا بالمغادرة إلا بعد أن يثبت على تأشيرات الدخول رقم الحافلة الجديدة " يعني وقت طويل للمكوث في هذه الأرض، وقت لا يقل عن عشر ساعات ذهاباً وإياباً يعني الليل القادم سيكون وقت مغادرتنا هذه الرمال المجبولة بكل القيم الإنسانية التي خلق منها الإنسانالأردني ، عشر ساعات وقت

ليس بالقصير أستطيع أن أسرق نصفه وأغرق في بحر من الأحلام التي قد أكتشف فيها ما لم أكتشفه في صحوي ، ذهبت إلى المسجد، تمددت على أرضيته ، أشعلت سيجارة ما قبل النوم، فاحتج أحد الملتحين ، حرام عليك يا بني هذا مكان طاهر ، حرام أن تدنسه بالدخان ، نظرت إليه مبتسماً ، يا سيدي أي حرام هذا الذي تتحدثون عنه؟ إذا فوجود الرجال والنساء في مكان واحد أكبر إثماً من دخان سيجارتي أليس كذلك ؟!! الاستماع والاستمتاع بضحكات الصبايا في المسجد أكثر حرمة مما أفعل !!! فلندع الحديث بهذا وليقض كل منا حاجته ، وسلمت عيوني لملك النوم .

لم أستيقظ من نومي إلا على صوت أمي يداعبني انهض يا بني حضر أبو يونس وأنجزت المعاملات وسنغادر بعد قليل، الكل في الحافلة الآن نهضت واتجهت إلى الحافلة ، وما هي إلا لحظات حتى غادرنا آخر نقطة من الأرض الحبيبة والتي لا تساويها أرض حتى لو كانت الأرض المقدسة .

انطلقنا وما هي إلا دقائق معدودة حتى وصلنا " حالة عمار " ونحن في طريقنا إليها بدأ الخوف يتسلل إلى نفسي ، لأن رحلتنا هذه كانت في وقت حرج للغاية فالعلاقة السياسية بين بلدي والعربية السعودية

متوترة ، نظراً للموقف من الحرب على العراق والذي اتخذ فيه بلدي موقفا مغايرا لكل أشقائه العرب، نعم الخوف يتسلل إليّ ، ها نحن وصلنا إلى نقطة التفتيش الجمركي وهنا كانت المفاجأة، لم أتوقع أن نعامل بكل هذا اللطف .. نعم عوملنا بكل دفء ومحبة وكنت أشد الناس فرحاً بهذه المعاملة، ولم يكن شيء لينغص عليّ فرحتي إلا ذلك السؤال الذي غرس في قلبي من أحد الموظفين الخبثاء في المركز الحدودي حين قال: أنت من جيش صدام حسين ؟

وكانت إجابتي بعد أن تلونت الدنيا بعيني ، إننا في الأردن الوحيدون الذين نحمل شعار الجيش العربي ، فأنا لا أنضوي تحت راية جيش صدام أو غيره من الناس أو القادة ، ولكنني أنضوي تحت راية الجيش المصطفوي الذي يقوده حفيد المصطفى، ونحن جيش الحق العربي أينما اعتقادنا ، وبعد ذلك العراك الكلامي حضر مسؤول من الدائرة يسأل عن سر الصراخ والإشكالية، فأخبرته بما حصل ، وكانت ردة فعله بالنسبة لي مفاجأة حقيقية ، حيث نهر الموظف وأخبره أنني أولا ضيف الرحمن، وثانياً أنني شقيق ومواطن عربي لا علاقة له بالسياسة وبما يحدث خارجاً عن إرادتنا نحن المواطنين ، اعتذر مني وقد امتلأ القلب فرحاً برده وإحقاق الحق،ودعنا .

صعدنا إلى حافلتنا وسرنا باتجاه الجنوب ، وأخذت الحافلة تلتهم الطريق من جديد ،غابات من النخيل ، طريق مستقيم وطويل والمباني الشاهقة أخذت تلوح أنوارها في الأفق، ونحن نقترب منها رويداً رويداً، أنا والسائق نحتسي الشاي وسيجارة "المارلبورو " تفوح رائحتها سألته أبو يونس ما اسم المنطقة التي سنصلها ؟ فأجابني إنها تبوك ، عادت الذاكرة إلى التعب من جديد ما الذي تحمله تبوك من معانٍ في المخيلة ؟

وهنا أخذتني ذاكرتي في رحلة يزيد عمرها عن ألف وأربعمائة عام حين ثارت الأرض بكل شواهدها ضد الروم فهزمتهم قبل أن تصلهم سيوف الله ، أي شيء تعنيه تبوك ؟ أي سماء هي التي تظل تبوك ؟ وأي أرض تقلها ؟ أي بحر يتشرف بمجاورتها؟ أية لحظات هي التي قادتني إليها؟ إذا ليكن تأجيل رحلتي إلى المدينة ولأبقى هنا أستطلع معالمها وأغوص في تاريخها ، لأتعرف على ما يحمله ابن تبوك من إرث إنساني وما علمته أمه الأرض الحرة .

أردت كتابة ملحوظاتي عن تلك المدينة الثائرة المدينة الحرة فضاعت مني الحروف وأنا الذي كنت قبل لحظات مشتعل بهاجس الكتابة عن هذه الأرض، عن هذا النخيل الذي يطاول السماء شموخاً وعزة

صغرت الكلمات أمام سموها وبهائها ، إذا بأي شيء أعبر عما يحتويني من مشاعر أكبر بكثير مما يمكن أن يعبر عنه مخزوني من مفردات ، أين أنا منك يا تبوك ، يا أرض النخيل وابنة السمو ، ما أجمل حدائقها وهي تعكس نور الله ونور المصابيح، فتزداد أرضها بهاء وجمالاً، يسيطر عليّ الشوق لهذا التراب الثائر .

هذا هو التراب الذي ما زال يزهو بنصره على جيوش الروم القادمة من أرض الشام ، لتقتلع نبتة دين الله ، فكان للأرض جولتها وكانت كلمتها هي التي حسمت الأمر ، إنها حَمية الأرض، إنها الأرض التي إن شعرت بالظلم تحولت نيرانا تلتهم المعتدي ، طلبت من السائق أن تكون استراحتنا القادمة في تبوك ، فقال بشرط أن لا يتكرر جنونك في المدورة . حسنا : فقط لنستريح في تبوك ، وحقيقة كان الجنون يستعد للانطلاق ، أعد اللحظات للوصول إلى تلك الديار ، في الثانية صباحاً كان موعد وصولنا إلى المدينة التي أحببتها منذ رأت عيناي نورها من مسافات بعيدة ، اهدأ أيها العقل قليلاً فلست بالعارف لهذه البلدة التي لم تطأها قدماك حتى هذه اللحظة ،اهدئي أيتها الدهشة فلم تتوقف الحافلة بعد، اهدأ أيها الشوق أيها الجنون قليلاً فما هي إلا لحظات حتى تتعرف إلى هذه الأرض، الكل نيام في الحافلة إلاي وأبو يونس وأنوار المدينة وصوت الأرض الذي سمعته يناديني ألا أهلاً بالمشتاق ، هي

ذات الأرض، وهو النخيل عينه ، تبوك هذه المدينة الساحرة بمبانيها الشاهقة التي توفرت لها الإمكانيات فطاولت أكبر مدن العالم جمالاً وسموا، تنظيمها نظافة شوارعها هدوئها أضاف بهاءً على بهائها، اتخذت لأمي وشقيقتي مكاناً في الاستراحة وطلبت لهم الوجبة التي يريدون ، وأطلقت لنفسي العنان ، إلى أين تقودني خطاي ؟ لا أدري لأني لا أعرف أين أنا أكثر من أنني في تبوك ، معالم المدينة متشابهة والليل فيها واحدالقمر، كل أشيائها متشابهة وهذا مصدر جمالها .

أنظر إلى النخيل الذي يطاول السماء بهاءً وأتلمس سيقانه أُحاول هز جذع نخلة عساه يساقط عليّ رطباً جنيا، ولما لم أستطع أن أهزه حاولت العودة إلى موقع حافلتنا والقلب قد ارتاح قليلاً ، ولكن ما يثير المشاعر هو الوقت الذي يمر بسرعة غريبة ، أريد قليلا من الوقت لمزيد من الاكتشاف .

وما هي إلا ثوان حتى سمعت صوتا يناديني، ألا يا فلان تقدم ، سرت باتجاه الصوت وإذا بها سيارة للشرطة ، خفت قليلاً ولكني احتملت خوفي وسرت إليهم ، صباح الخير ، صباح النور .. أنت ضائع ؟ لا بل أنا تائه ، من أين أتيت؟

من الأردن، لا ليس هذا ما قصدته أين تقطن هنا ؟ أنا لا اقطن هنا، ولكني خرجت من الاستراحة ، وعند محاولة عودتي فقدت اتجاهي ولم أستطع العودة، آخر ما أذكره هو الدوار لأن كل الأشياء في هذه المدينة متشابهة " شنهو لعاد تحسبها عمان " أخشى من عاقبة إسماعهم ما يتردد بداخلي بعد ما سمعته من كلمات ، وهل من مدينة على وجه البسيطة تشبه عمان .

يسعفني أحدهم من سوط كلماته بقوله:تعال يا أخي سأرافقك لموقع حافلتك ، سرت معه وهو يـردد " البارحة العين ما نامت يعرض لها النوم ومعيا " أوصلني للموقع ، ولما نظرت للحافلة وإذا بالجميع نيام ، صعدت إلى أعلاها وجلست أتأمل هذا السحر وهذا الجمال الإلهي وزادها الباري بأن منحها الماء والخضرة، آه كم تمنيت أن لا يعثر علي ذلك الشرطي وأن أبقى في ضياعي، ولكنه حظي السيئ أبى أن يتركني سابحاً في ضياعي متمتعاً بلحظات التيه لأكتشف هذه المدينة أكثر ، لأغوص فيها أكثر لأجوبها من أقصاها إلى أقصاها لعلي أكتشفها فأكتشف نفسي ، النفس تراودني على البقاء ، وشيطاني يقودني بلا إرادة مني إلى أرض العامرية .

وفي لحظات التأمل تلك يجلد القلب سؤال توجهت به لنفسي أولاً ولله جلت قدرته ثانياً، هل عاد جند روما من جديد ؟ هل دنسوا هذه الأرض كما دنسوا حفر الباطن وما حوله من مدن أبية ؟لماذا يا رب لم تكرر تلك المعجزة وتبق على عذرية هذه الأرض؟لملم تمنحها القدرة على الثورة كما منحتها في عصر نبيك وحبيبك ؟ ما الذي اختلف ؟ فهي نفس الأرض وهو نفس البحر ونفس النخيل لمَ لمْ تلق يا رب الرعب في صدور هذه الجراذين القادمة من الغرب ؟ .

يعود قريني بجنونه ليعيدني لليلى ومجنونها العذري، الذي قضى في سبيلها ، تلك الرائعة تناديني وفي نفسي هاجس يقول لي اهدأ فأنت في طريق التوبة في طريقك إلى الله ، نعم ولكن أي توبة تمنعني من التمعن قدر المستطاع في تاريخ هذه الأرض وأبنائها، أي توبة هذه التي تمنعني من نبش الذاكرة؛ لاستخراج ما علق فيها، أو ما تبقى فيها عن هذا التراب المؤدي إلى العراق، التي رحلت إليها العامرية ومرضت فيها وتمنى ابن الملوح أن يصل إليها ويكون الطبيب المداوي .

يقولون ليلى في العراق مريضة فيا ليتني كنت الطبيب المداويا

ولكن كم من الصحراء سنقطع حتى نصل تلك الديار الغضية التي ما زال يفوح منها عطر ليلى ، وينبت نحيب قيس زهوراً من الياسمين، أو

أشجاراً من النخيل الشامخ كروح قيس وقلب ليلى ، كم من الرمال ستثور لتقتل سرعة الحافلة قبل أن نصل تيماء؟ كم من الوقت سيموت وأنا أنتظر الوصول عساني أعثر على بقايا من أثرها ؟ أو قطعة من شال كان يغطي رأسها ، لا بد من العودة لأبي يونس ومعاودة سؤاله ، اتجهت إليه بنظري وناديته، فقاطعني وكانت إجابته بمنتهى الخبث عندما نصل سأخبرك ، اصنع لنا الشاي وناولني قطعة من الخبز ، لماذا السؤال؟ وماذا لك فيها ؟ هل نجمتك تاهت فيها وتريد البحث عنها؟ شعرت بأنه يجب عليّ أن أستخف به ، لا يا سيدي ولكنك قلت بأنك أتيت إلى هنا أكثر من مرة فأردت أن أرى أثر خطوك فيها ، فهو لا يعلم أن القلوب من هنا شهقت بالحب وهنا ودعته وهنا أيضا تبحث عنه ، هنا مكان ولادة القلوب النقية التي تحتمل كل المصاعب لأجل من تحب، تحب الحياة رغم قسوتها فقط لأن فيها الحبيب ، هنا تاريخ حياة خالدة لا تفنى ولا تزول حتى وإن كانت قصيرة ، كيف لا ؟ وهنا كان مصيف ليلى وأهلها .

وسارت الحافلة .. الأرض تطوى تحت عجلاتها ورغم ذلك كنت أراها واقفة لا تتحرك، سيجارتي لا تنطفئ ، أمي تناديني من على بعد مقعدين أو ثلاثة ..التفت إليه: أرح جسدك بني هذا اليوم الثالث لك لم تعرف طعم النوم ، إن لجسدك عليك حق ، القهوة الشاي والسجائر

كلها ستؤدي لقتلك، توكلي على الله يا أمي ، لن أموت إلا بعد أن أكمل دورة العمر المقررة من رب الكون .

هذه الأرض،هذه الرمال وهذا الطريق الطويل يسرق النوم من عيوني ويشعرني بالمتعة الحقيقة والسعادة الغامرة ، التاريخ يا أمي يبقي القلب مستيقظاً ،أي تاريخ يا بني كلها أيام وترحل ولا يذكر شيء بعد الرحيل، لا يا أمي فعلى امتداد هذه الصحراء كان تاريخ الإنسانية الحقيقي، هنا يا أمي ولد النقاء والصفاء والحب، من هنا مرت ليلى، أخي أبا يونس إذا ما وصلنا تيماء أو اقتربنا منها فأخبرني ، لماذا ؟ فقط أخبرني ، دون أن أخبرك أعلم إذا ما توقفنا للاستراحة فلن تكون وقفتنا إلا عند مسجد تيماء فهي ليست بالبعيدة من هنا ساعة من الزمن أو ساعة ونصف حتى نصلها يعني ما يقدر بصنع إبريق من الشاي بالزعتر وشربه وكوب من القهوة حتى نكون قد استهلكنا فترة الساعة أو أكثر بقليل، حسنا فلن أسألك بعد ذلك عن شيء .

صنعت إبريقاً من الشاي ورحنا نشرب نادتني أمي بقولها "يطلع لي أن أشارككم في هذا الإبريق" لأنك يا بني طردت النوم من عيني ، آه لو أعرف بماذا تفكر ، فمنذ زمن طويل لم تأتك لحظات الجنون التي تعيشها الآن ، حقا قد افتقدناها ، لأنها وحدها من تهبك القدرة على التحدي

ألا يمكنك يا بني أن تنقل عدواها لبقية أهلك عساهم أن ينالوا درسا في مدرسة الحياة،أضحك، لكِ هذا يا أمي سأعطيهم من ريقي.

أبو يونس ها نحن قد وصلنا إلى تيماء، ابحث عن نجمتك التائهة ، حاول إصلاح ذاكرتك المثقوبة كما تريد وليكن بعلمك أننا سنغادرها بعد صلاة الفجر مباشرة لنكون في المدينة المنورة عند آذان الجمعة .

حسنا، كلهم ذهبوا إلى المسجد إلاي، رحت أتأمل تلك الرمال، وتتراءى لي ليلى بشعرها الليلي اللون وعباءتها السوداء الشفافة وعيونها الواسعة ، كنت أحس أنها ما زالت هنا في هذا المكان أو ذاك تنتظر قدوم المحبوب ، أسمعها تناديه ألا يا ابن عمي ، يا كل القلب طال انتظاري لقدومك ، أحرقني الشوق لرؤياك ، يوقظني من ذلك الجنون لسع الجوع ، أحس بأني قادر على التهام كل ما أعثر عليه من طعام ، حملت شيئاً من أوراقي وقلما يكاد يلفظ ما تبقى به من مداد ، جلست إلى إحدى الطاولات والتي سميت مجازا طاولة وبدأت بالكتابة والتساؤل لماذا لم تقم ليلى في هذه الديار الأنيقة ؟ لما اتجهت إلى العراق ؟ أهو فرار أهلها بها من حبها ؟ وهل لبعد الديار أن ينسي الخل خليله ؟

كان إلى جانبي شخص عرفت بعد وقت قصير من جلوسي بأنه يمني ، وأنا الذي سألته عندما لمحت الخنجر المعقوف يتوسط بطنه ويعلوه

حزام عريض من القماش الأخضر ، اعتقدت في البداية أنه عُماني ، قال لي بعد أن اعتذر عن تطفله علي ما الذي تكتبه ؟ لا شيء فقط أدون ملحوظاتي وما تسعفني به الذاكرة من معلومات ومشاهداتي وانطباعي عن كل منطقة أدخلها حسب تأثيرها علي ، قال ماذا يعني ، لا شيء فقط العمر يمر سريعاً، غدا تنتهي هذه الرحلة ، وعندما أتذكرها في المستقبل أعود لهذه الانطباعات ، عرفني باسمه الذي لم أعد أذكره فقط كل ما أذكره عن ذلك الرجل أنه كان كبير السن وأنه شاعر، قال لي أنه معروف في بلاده ، شاعر غنائي كتب الكثير من كلمات الأغاني لعدد من المطربين في اليمن ، وأسمعني شيئا من قصائده العمودية الجميلة .

عندما سمعت قصائده أيقنت بأن القصيدة العمودية التي تحارب من الحداثيين وكتاب ما يُسمي قصيدة النثر تستوعب كل ما جاءت به الحداثة ، وثبت لي بالوجه القطعي والذي لا يقبل الجدال أن العيب ما كان أبداً في شكل القصيدة، وإنما العيب في الشعراء ، بعد أن استمعت إليه لعنت كل وزارات الثقافة في الوطن العربي والتي تبخل على بنيها بإيصال أصواتهم لأشقائهم وأصوات أشقائهم إليهم ، ملعونة هي كل وسائل الإعلام ووزاراتها والتي تهتم بالعري والفذلكات أكثر من اهتمامها بمثل هذا المبدع العربي والذي كنت على يقين بأن كثير من أبناء

ديرتي لم يسمعوا باسمه وإن سمعوا به لم يحظوا بفائدة الاطلاع على إبداعاته .

قال هي دعوة مفتوحة لك لتكون في ضيافتي باليمن ، لتكتب عن البلد الذي كان سعيداً وتاريخه وستجد كل المساندة والدعم ليس مني فقط ولكن من كل أهل اليمن، من كل أبناء حمير وأحفاد بلقيس ومن كل الدوائر المختصة، من الثقافة والإعلام واتحاد الكتاب.

ولماذا كل هذا، لا لشيء يا أخي ولكننا نحب أن نرى صورتنا كيف ترسمها عيون الأشقاء ، تناولت وجبة الطعام وكانت من الأرز البرياني والدجاج، وأبى ذلك الشاعر إلا أن تكون على نفقته ، فاتتنا الصلاة أقصد صلاة الجماعة، ولكننا صلينا معاً اليمني وأنا أمام الاستراحة ، لا أدري كيف سرقني من دهشتي كيف أنساني ما كنت أعتزم القيام به، وهو التجول في تلك المنطقة ، قليل من الوقت وحضر المصلون وأبو يونس ، جاء على خلاف عادته ، غابت ابتسامته وعلا صوت صراخه ، يا لله نطلع من هون ، قابلته ، ما بك يا أبا يونس ما الذي أصابك ، قد قلت إننا سنغادر من هنا بعد صلاة الفجر ولم تحن الصلاة بعد ، المحترم الشيخ لم يسمح لنا بدخول المسجد وكأننا سندخل إلى بيت أبيه ، ملعون أبو أحسن شيخ ، (طيب أبو يونس روق) هذا مسجد للصلاة

والعبادة فقط وليس استراحة للنوم والاسترخاء ، اهدأ أبا يونس ودعنا نستمتع بهذا الجو الرائع ، ألم تداعبك هذه النسمات وترجوك المكوث فيها ، انظر إلى النخيل ألا يشدك إلى أن تسمو إلى مستواه ؟! انظرإليه وتخيله كيف يستقبل الشمس في كل صباح، وكيف يودعها ليستقبل الليل، انظر إليه وهو يداعب النجمات الساهرة مع رمال خطت فوقها ليلى، انظر إليه وهو يعانق السماء وكأنه يقلب صفحات ذكريات جمعته بمعشوقته الخالدة ، وكأنه يعيد نظم القصائد التي تخلد ليلى و مجنونها، هنا تجمعت قلوب العشاق، وهنا فرقتهم الأقدار أيضا، هنا في هذه الديار كان مصيف العامرية ، ومن هنا كان طريقها إلى العراق حيث أقامت واعتلّت، هنا وقف ابن الملوح يخاطب هذا التراب ويسأله عن ليلى .

دعنا من كلامك الفارغ، وهيا لننطلق إلى أرض الأمن والطمأنينة إلى أرض الدفء والسكينة ، إلى المدينة المنورة لنصلها ونأخذ قسطاً من الراحة قبل أن تحل صلاة الجمعة.

***

في رحابِ رسولِ الله

ومدينته الطاهرة

ما زالت خيوط الدهشة تخترق عواطفي وشموع الفرح تنير جوارحي وتضيء عتمة الذاكرة التي لم أعد أستطيع قراءة ما علق بها ، أين نحن الآن لا أدري؟ أين وصلنا ؟ لا أعرف ، لم أعد اسأل أبا يونس عن شيء، ولمِ يخطرببالي أن أسجل أسماء تلك البلدات التي لم ندخلها وإنما كُتبت أسمائها على لافتات على جانب الطريق، الشوق لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومدينته وزمنه يخترقني ، يقتحمني ويشعل نيرانه في القلب ، تتراءى لي صور أولئك الأجداد ، أحن إلى الأمس البعيد ، إلى أولئك الفرسان الذين اجتازوا بحور الظلمات ، وأشعلوا شموس المحبة والإخاء ، إلى من نشروا رسالة الصفح والعفو عند المقدرة ، التسامح حتى مع الأعداء .

هم الذين أهدوا البشرية معنى الكبرياء والشموخ ، هم الذين كانوا في جاهليتهم أعزاء لا يرضون بالضيم ولا يخضعون إلا لألهتهم ، وبعد أن اهتدوا لرسالة الحق وأمنوا بها خضعت لهم العزة ، وامتطوا صهوة

الكبرياء وحملهم المجد على جناحه، وكانوا هم وحدهم من دون بني الدنيا شعار السمو والنبل والعظمة، وما عادوا بعد إيمانهم يحنون الهامات إلا لله الواحد القهار ، فقط الملك العدل من يخشونه ويخشعون ويذلون عندما يكونون في رحابه .

ديار الأجداد الذين منهم من طردته ديرته وأهله الأقربون ومنهم رسول المحبة والإنسانية، الأجداد الذين خرجوا من هناك لا يملكون من الدنيا إلا النور الذي يملأ صدورهم ، والجراح التي علقت في أجسادهم أوسمة فخر واعتزاز ، أوسمة كتب عليها إلهي إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، وأجداد نصروا وأزروا وضحوا بالنفس والمال وبكل زينة الدنيا ومتاعها ، وعندما يُسأل المنفيون من ديارهم عن عدم إقبالهم على الدنيا الغرور ، تكون إجابتهم واحدة موحدة " إن الدنيا وما عليها لا تساوي عند الله جل في علاه جناح بعوضة ، فكم أُساوي أنا من هذا الجناح ؟ وكم هو نصيبي منه إذا ما أقبلت عليها ؟ " لا فنحن نشتري دار الخلود والبقاء ، نحن نشتري جوار العفو الرحيم ، ونرغب عن دار الزوال والفناء .

هنا سرقني أبو يونس من تداعيات الذاكرة والصور التي راحت تتراكم أمام عيني وخيوط الدهشة التي تجتاحني، ليخبرني إننا الآن على

مشارف مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مشاعر مختلفة ومختلطة، مشاعر مضطربة ، نشوة الفرح تغمرني ، لا أدري إن كانت الحياة هي التي احتضنت قلبي أم أن قلبي من احتضن الحياة ، كل الأشياء تلونت بالأخضر الزاهي ، أسمع كل الأشياء تغني من فرط سعادتي حتى إطارات الحافلة ، كنت أسمعها تردد نشيد الحياة والحب ، كيف لا ونحن بعد قليل من الوقت سنكون في ضيافة رسول العزة والسمو والكبرياء، هل يمكن لكلماتي البسيطة أن تعبر عما يكتنفني من مشاعر؟ هل يمكنها أن ترسم سعادتي أو تصفها ؟من يصفعني؟ لعله يجعلني أشعر بأني أعيش الواقع، إني حقيقة في مدينة رسول الله ولست أحلم بذلك ، أين أمي تعنفني ؟ لعلي أخرج من عالم الوهم لتعيدني إلى ما أنا فيه من حقيقة، هل يمكن للشعر أن يصف ما يحتويني من مشاعر؟ وكيف له ذلك وأنا الآن قد فقدت كل قدراتي على الوصف والتعبير؟

وقبل دخولنا مدينة حبيب الله عليه السلام، لفت انتباهي ذلك المبنى الرائع والمهول في شكله وطريقة بنائه، اعتقدت للوهلة الأولى أنه المسجد النبوي الشريف.

أبو يونس ألم نصل بعد ؟

- لا .

-أليس ذلك هو المسجد النبوي ؟

لا ذلك المبنى الذي تراه هو قصر الملك فهد بن عبد العزيز ، وهل تعلم يا أبا صخر بأنه لا طريق تؤدي إلى هذا القصر.

- وكيف الوصولإليه ؟

- عن طريق الطائرة فقط، لأنه كما ترى يقع على مرتفع عال.

-ياه، يا أبا يونس؛إنه المال وما يصنع .

أخذنا الحديث عن القصر ودخلنا أرض رسول المحبة والعطاء ، دخلنا أرض أبي القاسم والصديق والفاروق وذي النورين ومن كرم الإله وجهه ، دخلنا إلى انبثاق النور والهدى ، يا إلهي هذا الخافق بداخلي لم يعد يحتمل مقدار الفرح والسعادة اللذان يملآنه ، لا بل يتسعان عن ذلك لأصبح كلي عبارة عن شعلة من الفرح .

-هل نحتاج لكثير من الوقت للوصول إلى طيبة؟

لا نحن الآن فيها وفي طريقنا لموقف الحافلات ، وعاد أبو يونس يسير الهوينا ، اقتربنا من مبنى ضخم البناء شاسع المساحة اتخذ أبو يونس فيه مكاناً وأوقف الحافلة، ونادى بمكبر الصوت حمداً لله على

سلامتكم، نحن الآن في المدينة المنورة وذلك هو المسجد النبوي الشريف .

- أين نحن الآن ؟

- نحن في ساحة المحكمة ،ويا مجنون سميت بهذا الاسم لأنه المكان الذي تُنفذ فيه الأحكام الشرعية .

لم نكن نبعد عن حدود التوسعة للمسجد الشريف إلا أمتاراً قليلة ، هبط المعتمرون وكل سار في اتجاه نادى أبو يونس بصوته الجهوري: قليل من الوقت ويحين موعد صلاة الجمعة، من أراد أن يبحث عن سكن يبحث، ومن أراد أن يقيم في المسجد فليذهب للمسجد ، سنقيم في المدينة أربعة أيام ، وأنت يا محمد ؟

ما الذي تريده ؟

- أريد سكناً نرتاح فيه كيفما شئنا ، وكانت أمي قد تعرفت على اثنتين من النساء من العين الأخرى ،العين التي أصابها الرمد من نابلس المحتلة، نابلس الثورة والإنسان، وقد اختارتا أن تشاركانا السكن .

- انتظر قليلاًوسأصطحبك إلى سكن مريح ،وصاحبه محترم وأسعاره ضمن الإمكان .

-حسنا : هيا بنا .

وسرنا وما هي إلا مسافة قصيرة حتى قابلنا باب السلام لمسجد الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، اتخذنا الاتجاه الأيمن، وإذا بلافتة صغيرة كتب عليها "سكن النعمان2" دخلنا إليه واخترنا جناحاً كان مكوناً من غرفتي نوم وصالة بالإضافة لتوابعه ومكيف ، هي فرصة للاستسلام لملك النوم والأحلام ، لأن بانتظاري الكثير من العمل في الأيام الأربعة القادمة ، مباشرة اتجهت للحمام وأخذت حماماً ساخناً شعرت بعده بالارتخاء التام .

خرجت منه مباشرة للسرير، رميت بجسدي المرتخي فوقه، وأسلمت جسدي وروحي لملك النوم بعد أن قرأت آية الكرسي والمعوذات ورحت في نوم عميق ، فاتتني صلاة الجمعة والعصر والمغرب ، ولما استيقظت من النوم توضأت وأسرعت إلى مسجد الحبيب قضيت الصلوات التي فاتتني وانتظرت صلاة العشاء وما أن أنهيناها حتى طلبت من أبي يونس أن يرافقني برحلة داخل المدينة ، كان مشروع توسعة الحرم النبوي في بدايته ولم يكن يبعد عن موقف الحافلات إلا أمتاراً قليلة، تفقدته في نظري ، لم أرَ إلا الأنوار المتناثرة بشكل شاعري، لم أستطع تمييز الأشياء إلا أن لجانبي الأيمن المسجد النبوي وأنا الآن في

ساحة المحكمة.

- أبو يونس سأذهب للسوق للتعرف عليه هل ترافقني؟

- نعم .

-هيا.

نهضنا وسرنا باتجاهه ، يا إلهي !! أين مدينتي الحبيبة من هذا ؟ أين زقاق وحواري عمان من هذا الترتيب الرائع؟ أسواق هنا تعني أسواق، ولا يوجد مساكن أو عائلات ، لكن فوضى عمان وشقيقاتها الأردنيات تبقى الأجمل ، الصخب في عمان يمنح القادم الحياة ، والهدوء في طيبة يمنحك القدرة على التأمل والتمعن في الأشياء ، عمان تمنحك الشعر والإبداع ، الهدوء في مدينة الحبيب ومسكنه تمنحك الدفء والحب ، مقهى السنترال في شارع السلط يمنحك القدرة على اكتشاف حيوات أكثر ، ويرسلك إلى ثقافات متعددة ، ولا مقاهي في المدينة المنورة ، أيهما أحب إلى قلبي يثرب أم عمان ، أقسم أن طيبة حبيبة، طيبة الأنثى الرشيقة التي تغوي القادم إليها بالبقاء وتراوده عن نفسها لتنسيه ما يحب في ديرته، وهي قادرة على ذلك لما تتمتع به من صفات ومزايا ، الدين فيها والإنسان الأحب لكل من نطق بلا إله إلا الله ، فيها عودة

الإنسان لنفسه وتعايشه مع الآخرة،هنا يبقى الحلم بمرافقة الشفيع في جنان الله في اليوم الذي لا ينتهي .. يوم الخلود .

ولكن عمان المتناقضات لا تقارن بمدينة أخرى،عمان بسهلها وواديها بتلالها وسفوحها، بفوضاها العارمة، وهدوءها المزعج هي الأحب ، ولكن أين هي من هذا التنسيق وهذه الروعة ؟ أرد على أسئلة النفس يا سيدي جمالية عمان تبقى في فوضاها ، خصوصيتها في تناقضها ، اهدأ فلا مكان لعمان هنا، ابق مع حبيبك ومدينته المحمية من المسيح الدجال، ومع ذلك لا يوجد في الدنيا أغلى من عمان فوالذي نفسي بيده لو خيرت ما بين الدنيا بأسرها وبين عمان لاخترت عمان ونسيت ما تبقى من الدنيا، لا أدري سر هذا الإصرار والمقارنة بين عمان وأية أرض أدخلها، لماذا تسيطرعلي عمان بشوارعها الضيقة والأخرى المتسعة؟ لماذا تسيطرعليَّ عمان بمخيماتها ومناطقها البرجوازية ؟عمان بنت العشيرة،عروس الدنيا .

يخرجني أبو يونس من عاصفة الحنين التي تجتاحني لندخل إلى السوق ، يا لهذا الجمال ، وهذه الروعة ، يا لهذا التنظيم ، لا تحتاج للخروج من هذا السوق إلا عندما تنهي كل احتياجاتك ، لا ليس سوقاً بل إنه مدينة مصغرة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان ودلالات ، سوق يحتوي

على كل ما يخطر بالبال من أصغر الأشياء حتى أكبرها ، وأنت تتجول في هذا السوق تشعر بمتعة غريبة، مضى الوقت ولم نشعر به عاد أبو يونس لخطفي من متعتي ليخبرني بأن الوقت تأخر وأصبح لزاماً علينا العودة ،حسنا لنعود ولكن لنغير الطريق الذي أتينا منه ، علنا نكتشف شيئاً جديداً من ذواتنا وحقيقتنا التي طالما غابت عنا،عسانا نكتشف براءتنا وطفولتنا عندما نكتشف براءة وطفولة هذه الشوارع .

واستمر المسير وقبل أن نصل كل منا إلى مكانه كان المنادي ينادي لصلاة الفجر ، اتجاهنا للمسجد وهناك وبعد أن أدينا تحية المسجد أمسكت بكتاب الله ورحت أقرأ كلماته، وكنت قد فتحت المصحف الطاهر على سورة الإسراء وكانت " سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير " وتعود الدهشة لتخطفني من جديد ، بالتأكيد أن المصطفى في رحلته تلك مر من هنا ، إلى تبوك وعمان والأغوار إلى القدس الشريف ، الأن اكتشفت أن سر تعلق الإنسانالأردني بأرضه هو البركة التي أنزلها الله على هذه الأرض التي تجاور الأقصى ، إذاً هذا هو سر التوحد بين الضفتين ،إذاً لم يكن سر التعلق بين شرقي النهر وغربه محض صدفة بل هو منحة إلهية وهبها الله لأرضي؛ لتكون في جوار

المساجد الثلاثة الحرام والنبوي والأقصى ، إذاً هو سر الخلود لأرض الأنبياء والمرسلين .

هو سر البقاء والعشق لأرضي أرض الحشد والرباط . ياإلهي .. أنا في بيت رسول الله وصحبه ولا ألقي بالتحية عليهم ؟ هل يمكن أن أكون في بيت أكرم خلق الله ولا أُشرف عيناي بروضته الطاهرة ؟ أشتاق لأن أُلقي بتحيتي إليه فيردها لي بأحسن منها، يا له من شرف عظيم وغاية الأمنيات، نهضت من مكاني وركضت باتجاه الإمام الذي شرفه الله تعالى بأن يكون إماماً لثاني الحرمين، ركضت باتجاهه ، كان ينتابني إحساس غريب لا أدري كنهه ، ربما كان ذلك الإحساس نتيجة الأمنية التي باتت تسكنني وهي أن أصل إلى تلك الروضة ، كان يُخيل إليّ بأن نور يشع من عيني ذلك الإمام ومن جبينه لا بل كان النور يسطع من الإمام،والسؤال في النفس كيف لا يشع النور منه وهو في حضرة كامل النور وخادمه ، كيف لا يسطع نوره وهو المشاء في الظلمات ، أنا لا أريد نوراً كما نوره ، أريد نور الحبيب أن يملأ قلبي عسى أن يمسح ذلك النور عتمة سنين خلت بلا فائدة أو طائل .

اقتربت من الإمام وكانت علامات الخوف والرهبة قد بدت تظهر على ملامحي ، وفاجأني بكلماته، ولم يكن بالمسجد غيرنا إلا نفر قليل.

- ما بك يا بني ؟

- أريد أن أسلم على الهادي ، أريد أن ألقي بالتحية عليه ، أريد أن أشكو له حالي وأرجوه أن يقبلني من أمته، وأنا الذي انصرفت عنه إلى الملذات والشهوات ، أريد أن يتقبلني فيكون شفيعي في" يوم لا ينفع فيه مال أو بنون إلا من آتى الله بقلب سليم" فقط أريد أن يتعافى قلبي .

- حسنا يا بني ودعا الله بأن أنال القبول سرت خلفه وما من خلية في جسدي إلا وكانت ترتعش وكنت أشعر بها تبكي ندماً على ما فات من العمر وفرحاً بزيارة أعظم وأنبل وأشرف من وجد على هذه البسيطة ، هو من صلى الله وملائكته عليه، أنا في حضرة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وصلنا الروضة وكان هناك حاجز حديدي لمنع الدخول إلى الروضة ، وكان قبلها الإمام قد طلب مني أن أردد خلفه ما يقول: السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صديق، السلام عليك يا عمر وراح يدعو الله جل في علاه أن يتقبلني وأنا لا أكاد أتبين ما أقول من شدة بكائي .

خرج الإمام وخرجت خلفه و غاية أمنياتي لو قضيت نحبي في تلك اللحظات التي كنت أشد خلق الله ارتباطاً بالله ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

عدت لموقع الحافلة ووجدت أبا يونس ونفر من المعتمرين هناك ، سألت أبا يونس كيف لي أنا أتجول في مدينة النور والبهاء ، فقال بسيطة أبو صخر ، تقف أمام السكنعلى الشارع ، وستجد الكثير من الحافلات الصغيرة والسيارات التي تأخذك إلى حيث تريد ، حسنا ، تجولنا في المنطقة حول السكن وعدنا إلى موقع الحافلة نلعب الورق ونحتسي الشاي والقهوة ونسيت قلب الأم الذي سوف يحترق خوفاً على ابن خرج منذ صلاة العشاء ولم يعد حتى هذه اللحظة ، وأخت حائرة مشغولة على أخيها، أين ذهب في منطقة لا يعرف فيها شيئاً؟ ولكنهن متأكدات بأني في وضع جيد ، لأنهن يعرفن طباعي، وأنني إذا ما أردت شيئاً لا يوجد ما يردني أو يمنعني عنه إلا ما هو أقوى مني، أخبرني أبو يونس بأن الوقت تجاوز الثامنة صباحاً، وأنه حان الوقت لأعود إلى أمي وأختي وابني الصغير ولسريري ، أي سرير هذا الذي تتحدث عنه ؟ سأذهب لأمي أتناول إفطاري معها وبعدها أخرج في رحلتي للاطلاع على هذا المكان الذي يشعرك بالدفء والطمأنينة .

وعندما وصلت إلى السكن وجدت أمي تقف مع السيد محمد نعمان مدير وصاحب السكن، وتخبره عن خروجي وعدم عودتي ، أسمع صوته وأنا اقترب منهم ها هو قد عاد ،

- أين كنت يا بني ؟

- كنت عند الحافلة مع الشباب تجولنا في السوق وها أنا قد عدت .

- أمي أريد الخروج إلى بعض المواقع الدينية .

- حسنا سنذهب سويا.

ذهبت برفقة محمد نعمان لاستئجار حافلة ونجحنا في ذلك فقال السائق: من أين نبدأ؟

قلت له : من أي مكان تريد ، لأننا لا نعرف المناطق نريد زيارتها جميعاً .

- حسنا ، نبدأ من مسجد قباء .

- توكل على الله ، هل المسافة طويلة ؟

- لا ما هي إلا دقائق ونصل .

شدتني كثيراً لهجته البدوية والتي لا تختلف كثيرا عن لهجة أبناء ديرتي ، كنت قد طلبت منه أن يحدثني عن أهل المدينة الحديثة .

فقال : يا أخي لا تسألني عنها إذا رغبت فهناك من عاصر تأسيس الدولة الحديثة، أو من الجيل الذي تلاهم ، وأخذ يتحدث عن دولته وتوفيرها كل متطلبات الحياة الكريمة لأبنائها ، والنهضة التي تعيشها العربية السعودية من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية.

ها نحن قد وصلنا قباء يا أخي.

عندها سيل من المشاعر اجتاحني ،أخذني معه لعصر حلمت لو كنت أحد أبنائه ، هنا تأسست الإمبراطورية العظمى ، هنا كان النداء الأول لدولة اجتاحت الأرض وعلمت البشر أينما تواجدوا معنى الرقي ، من هنا انطلقت شموع الحرية والإباء ، من هنا كان التعريف الحقيقي لمعنى الإنسان ، من هنا كانت انطلاقة الحق ، ومتى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.

إلهي .. كيف كان الاجتماع الأول بين ابن هذا التراب والقادم الجديد المبشر بسعادة الإنسانية؟

ما الذي دار في ذلك الاجتماع ؟كيف لمجتمع أسس على هذه المبادئ أن لا يجتاح الدنيا؟ وأن لا يقبل عليه من ضاقت بهم الدنيا وأعجزتهم صروف الدهر ؟

نعم هنا كان المؤتمر التأسيسي لانبثاق الدولة الأعظم في تاريخ البشرية ، إمبراطورية السلام والمحبة ، هنا كان النداء الأول ، هنا صعد بلال الحبشي لينادي العالم بالنداء الخالد " الله اكبر "، هنا صدرت الشهادة الأولى علنا دون خوف أو وجل بأن " لاإله إلا الله .. وأن محمدا رسول الله ، هنا في ساحة هذا المسجد تآخى المهاجرون وأصحاب أوسمة الكفاح في سبيل الله ، في سبيل احترام إنسانية الإنسان ، هنا كانت تتخذ القرارات الأهم ، من هنا صدر القرار بالاعتراض لقوافل قريش القادمة من الشام ، من هنا نادى منادي الجهاد لبدر وأحد وغيرها من معارك وغزوات الإمبراطورية الجديدة .

يا سيدي ما دمنا في قباء من أين دخل رسول الله إلى المدينة ؟هل يمكننا أن نذهب إلى تلك المنطقة التي تشرفت بمقدم النبي الأمي القادم من أرض إسماعيل والبيت الذي رفع قواعده مع أبيه ؟ من الأرض التي انفجرت حنانا ورفقا على إسماعيل عليه السلام وقست على خاتم النبيين ، ركبنا السيارة وسرنا فترة لا تزيد عن ربع أو ثلث ساعة حتى

وصلنا وقال : من هنا من الثنيات دخل الشفيع إلى المدينة ، وهنا راحت تتراءى لي الجموع المنتظرة لقدوم حبيب الله ، لتستقبل البشير ، لتنصره وتفديه، من هنا وبعفوية تامة ودون ترتيب مسبق وقف الرجال والنساء ينتظرون الهادي ، لا يأبهون بجلد أشعة الشمس الحارقة لرؤوسهم ، أكثر ما يشغل أفكارهم متى سيصل النذير ونمتع أنظارنا برؤيته ، من هنا انطلقت الحناجر عندما هل نوره عليهم تردد :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجاب الشكر علينا ما دعى لله داع

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع

ما زال النخيل يزهو .. والثنيات تفخر وسمت إلى ما بعد السمو ، لأن النذير وصاحبه قد ما منها .

والأن إلى أين؟

سنذهب للمساجد السبعة .

حسنا هذه المساجد لم تثر بي شيئاً يذكر إلا أنها كانت ملتقى لإصحاب الرسالة المنيرة ، كان مرورنا على هذه المساجد سريعا ، شباب بعمر الورود يعطون دروسا عن تاريخ المسجد والمكان بمقدرة عالية ، مستعدون للإجابة عن أي سؤال أو استفسار ، وبعد أن أنهينا زيارة المساجد سالته : إن كان بإمكاننا زيارة موقع أحد المعركة الخالدة؟هيا وانطلق السائق وهو يتحدث بكلمات أفهم بعضها ولا أستوعب البعض لسرعته في الكلام.

وصلنا إلى الموقع وإذا بفتى يقف هنا متوسط الطول مليء الجسد قد استقبلنا وسار بنا إلى جهة القبر ، الضريح ، أو روضة الجنة ، التي تضم رفاة أسد الله ورسوله وسبعون شهيداًآخر ، كان الفتى يتحدث بطلاقة بالغة وبصوت مؤثر عن تاريخ المعركة " أحد" ونتيجتها ، وهنا تدخلت وكأني أدخل نقاش مع دكتور أو أقف أمام عالم :

-هنا يا سيدي تجلت حنكة ابن الوليد ومقدرته العسكرية الذي استطاع أن يقلب نتيجة المعركة من هزيمة مذلة إلى نصر عزيز .

- لا يا أخي إنه مكر الشيطان وليست حنكة سيف الله.

-كيف وابن الوليد لم يهزم في معركة قط ؟

– يا أخي إنه الشيطان الذي أغوى الحماة المنتشرون على الجبل للهبوط والمشاركة في جمع الغنائم ومخالفة أوامر السراج المنير الذي أبلغهم بضرورة البقاء ، إن قتلنا فلا تنصرونا وإن غنمنا فلا تشاركونا ، كان قد قرأ المعركة قبل وقوعها .

–وهنا تأتي الحنكة وحسن القيادة والتخطيط العسكري الفذ. هنا وقفت هند بنت عتبة تنادي أبناء قريش بقولها :

نحن بنات طارق لابسات النمارق

إن تقبلوا نعانق وان تدبروا نفارق

فراق غير وابق

هنا وقفت هند تنتظر من وحشي تنفيذ أمرها بقتل الأسد ، أسد الله ورسوله ، قتل حمزة بن عبد المطلب ، من هنا توجهت حربة الخيانة والغدر من يد ذلك الوحشي الماهر إلى ظهر عم السراج المنير لتخترقه ، وتعلو زغرودة الهنود التي أقبلت لتمثل بجثة حمزة بن عبد المطلب وتلوك كبده، وهنا توعد رسول الإنسانية بأن يمثل بثلاثين من رجال قريش أن مكنه الله منهم ، وينهاه الرحمن عن ذلك بأن عاقبوا بمثل ما عوقبتم .

هنا يعود الفتي ليسحب مني خيوط الذاكرة ويخرجني من دائرة التداعيات ليقول : لم يكن ذلك النصر المؤزر كما تتوقعه، لكنها كانت المفاجأة ولدقائق معدودة بعدها انسحب خالد وطارد المسلمون فلول قريش .

هذا الدرس من الفتي أعادني من جديد للتساؤل أين أبناؤنا من هذه المعلومات ؟ بدأت الغيرة تدب في أوصالي ،لأن الغالبية من أبناء وطني وشبابها لا يدركون من أمور دينهم ودنياهم إلا صرعات الموضة، وآخر ما توصل إليه الفيديو كليب وسيرة هذه الفنانة ومحاولات تقليدها .

أما سيرة المصطفى عليه السلام فلا تُعرف ، الدولة الإسلامية وجدلية تأسيسها بين التحدي للواقع المؤلم ورفض الطبقة الأرستقراطية، وبين تحدي الطبقة الكادحة لتأسيس الدولة التي تمنحهم حقهم في الحياة كما يريدون، هذا لا يعرفه أبناء بلدي لماذا ؟

وعودة إلى أحد الخالدة ، أحد أحد موازين القيامة ، جبل أُحد التي كانت ساقا ابن مسعود أثقل منه ، أحد التي قتل فيها الراعي الأمين ابن مسعود أبوجهل، وهنا خاطب أبو جهل محرضا أيه دونك سيفي يا ابن مسعود ومحرضا إياه أن اصعد الشيماء يا بن مسعود .***

في ظلال الياسمين

ها هي الساعة تشيرُ إلى الرابعةِ عصراً، وأنا أتسكعُ في منطقةِ العبدلي ، وكلما هممتُ بالعودةِ للبيتِ أتذكرُ بأنَ سيدةَ البيتِ، بل سيدةُ الدنيا ليست به ، ورياضُ القلبِ ورياحينه يرافقونها ، وأنا قد وعدتها بأن ألحقَ بها ، ولكن الوقتَ تأخر، لن أستطيع الوفاء بوعدي ، هي التي بوجودها أستغني عن الدنيا وما احتوت لأنها بلمسة يدها تخفف جرح الأيام الذي استقر في سويداء القلب ، لأني أشتم من أنفاسها عبير الجنة ، وبلثم يدها أشعر بأني أعتلي عرش الكون ، بوجودها أنسى كل مآسي القلب وعذابات الروح .

أُتابع تسكعي لعلي ألمحُ وجهاً جديداً أجدُ فيه شيئاً من الفرحِ الذي قد يريحني من نتنِ الشرِ الساكنِ في أعماقِ تلك المرأة أو تلك الأفعى التي ابتلاني بها القدر عندما جعلها شريكةً لفراشي.

أودُّ الفرار من هذا المدينة التي تحتويها، أبحثُ في مداخلِ العبدلي عن وجه أرى في ملامحِه إلى ما يشير إلى استمرارية الحياة التي كنت قد شعرت في لحظة ما أنها ألقتني في جهنم وتوقفت ، أبحث ولا أجد إلا وجوها قد بعثر ملامحها تعب الأيام ، ورسم الفقر خطوطه على تلك

الوجوه المسكينة والتي عفرها الزمن بغباره ، يوقظني من أحزاني صوت أحدهم ينادي " الشام .. شام شام " أسير باتجاهه وقلبي يقفز فرحاً ، قليل من الوقت وأُسطر في سجل أيامي لحظات مختلفة عن الروتين الممل الذي ملكني طوال ما مضى من العمر باستثناء تلك الرحلة إلى ديار ليلى العامرية .

سويعات قليلة وأضيف إلى هذا السجل رحيلٌ جديد ومختلفٌ عن كل رحيل ، رحيلٌ جديد وبحث جديد ، هذه المرة لا أبحث عن شيء إلا الجمال ، وطالما سمعت أن في الشام موطن الجمال ، ليست الشام موطن الجمال فحسب بل وموطن التاريخ ، سويعات ، وتدخل البوم حياتي صوراً جديدة لم يشملها الألبوم القديم ، سأرى وجوها تختلف بالتأكيد عن الوجوه التي قد تعبت من كثرة رؤيتها ، وجوه قد اعتدتُ عبوسها ، ولطالما استغربتُ ارتسام الابتسام على تلك الشفاه التي قد يبستها الأيام .

سويعات ويدخل حياتي ليل جديد يختلف عن كل الليالي السابقة ، ليالي عمان الداكنة ، ليل قد يتجدد فيه الحلم ، غداً صبح جديد فيه الكثير من الأحلام والأمنيات ، إن تحقق ذلك فلن أعود ثانية ، يهتف بداخلي شيطاني الحبيب : وعمان ، معشوقتك وحبيبتك ، هي التي من أجلها قد تقلبت على جمر الحياة وصبرت تتركها لمن ؟

عمان يا عزيزي للحيتان ، لأصحاب الجوازات المتعددة ، للمعفيين من خدمة الوطن ، للذين إذا نادى مناديه فروا لأوطانهم البديلة وتخلوا عنها !!

- يخاطبني من جديد : عمان ليست كذلك !

-أرد : منحت عمان الروح والحياة ، عشقت عمان حتى ذبت فيها، ولكن ماذا وهبتني عمان ؟

- يا عزيزي " لا تنتظرأن تحملك عمان بل أنت من سيحملها وينشد باسمها ".

- أنا لا أطلب منها أكثر من أن تمنحني إنسانيتي، وتحافظ على حقوقي فيها ، تحافظ على كرامتي ولا يستبيحني فيها أبناء الليل ، عمان ليست لأمثالي ، عمان وطن للجميع إلاعشاقها وأبنائها .

أصل صاحب الصوت الجهوري،وأسأله : متى ستنطلق الرحلة ؟

- يجيب : عندما يكتمل عدد الركاب .

- وكم بقي حتى يكتمل ؟

- يرد: راكبان .

- حسناً اعتبر العدد اكتمل هيا لننطلق ، كم نحتاج من الوقت للوصول إلى الشام ؟

- ينظر إليّ مبتسماً من أربع إلى خمس ساعات.

- توكلنا على الله.

أتخذ من المقعد الأمامي مقعداً لي، تسير المركبة وتجتاز ميدان جمال عبد الناصر (دوار الداخلية)، أحلم كيف سأدخلها ؟ وقد سمعت من كثير ممن أعرفهم بأنها بلد الرشاوي ، وبنات الليل فيها يملأن الشوارع ، أخشى على نفسي من مثل هكذا رحلة وخاصة أنه لم يُخطط لها ولكنها ابنة الصدفة المحضة .

تراودني نفسي على العودة وعدم المتابعة ، ولكن العناد سيطر عليّ رغم خوفي، أسمع أصواتاً شفافة تهمس خلفي ، تطربني تلك الضحكات الندية التي تأتيني من الخلف ، أشعل سيجارتي " الفيلادلفيا"، أنظر إلى المقعد الخلفي بعد أن سمعت صوتاً خافتا يداعب أذني ، ياه ثلاث وردات زرعن فيه، لا بل ثلاث شموس أضأنه، وتسلل نورها إليّ. آآآآه فالرحلة عرفت منذ بدايتها، وكما يقولون: " الكتاب يُعرف من عنوانه "، يعلو الفرح بداخلي ويزغرد ، نشوة غريبة تجتاحني ، سعادة لم أتذوقها من قبل تغرقني ، نتفق جميعاً على عدم التدخين في السيارة ، أبتسم وأنا أنظر إليهن وأردد في داخلي ، كم هي ملعونة حواء ، كيف لي أن أبتعد عن رفيقة أيامي وأنيسة سهري وصديقتي التي نشأت معي منذ طفولتي ؟ كيف استطاعت حواء الداهية أن تبعدني عن سيجارتي

؟ لكنه الجمال الساحر ، إنها زقزقة العصافير وغناء العنادل ، وهكذا أنا لا أقاوم الجمال ، لا أقاوم النساء وأضحي بكل شيء في سبيلهن .

هن وحدهن القادرات على أن يجعلن الواحد منا يُلقي بنفسه إلى التهلكة في سبيل الاقتراب منهن ، وما أن وصلنا إلى منطقة البقعة حتى كان اتفاقنا يتطاير مثل دخان السجائر ، ونشعل سجائرنا وشادية ترحل بي على أجنحة أغنيتها " يومين واسافر، يمكن ألاقي الصبر في سكتي ، يمكن ألاقي الراحة في غربتي ، يومين واسافر" .

يا إلهي المركبة تبتلع المسافة وتدوس الطريق بكل جبروت، والدرب صامد يكتم أنينه بداخله ويصبر دون أن يظهر على ملامحه التأثر بالعجلات وظلمها .

الوقت يسير والمسافة تدنو وقبل أن نصل الحدود الفاصلة بين الجفن والرمش تقف السيارة بجانب إحدى الاستراحات، ويقول السائق: من أراد تبديل النقود فليتفضل .

ونزلت من السيارة وقبل ذلك سألته: ألا يمكننا التبديل من الشام؟ .

قال: بالعكس ولكن قد نتأخر بالوصول ويطول البحث عن مكتب للصرافة بهذا الليل، دخلت الاستراحة وبدلت ما قيمته واحد وعشرين ألفا وثلاثمئة ليرة سورية،أي مايعادل ثلاثة مئة دينار أردني ، وابتعت علبتين من سجائر " المارلبورو" ليس حباً، ولكن لأتماشى مع شموس

المقعد الخلفي ، آآه كم تمنيت أن أجلس بين تلك الورود ، أتنفس شذى عطرهن، وأتأمل سحر أنوثتهن ، كنت أتمنى استنشاق عبيرهن، وأن لا يخرج من داخلي أبداً .

آه بالكاد مضت ساعة من الزمن ، لم نغادر بعد الأرض الحبيبة، والتي أرغب بالرحيل عنها حتى شعرت بلذة الحياة ، أحسست بقيمتها وتذوقت طعمها الغريب ، إنهن يتحدثن بدون تردد ، ويلقين بالنكات ، وتسمع ضحكاتهن كمعزوفة فرح تنبع من القلب ، ومنذ أن عدت من الاستراحة إلى المركبة لم ألتفت إلى الأمام ، لم تعد تهمني الطريق ، كان شدوهن يجبرني على الالتفات إلى الخلف بالرغم من تعب رقبتي ، أتأمل ابتسامة ساحرة ترتسم على وجه الأولى ، وأتابع حركة الشفاه الرقيقة والتي تفوح عطراً ، آه كم هو ساحر ذلك اللون الذي يغطي شفاه الثانية ، أتابع انفتاح تلك الشفاه وإغلاقها ، أتمعن في غمازين صنعا لخدود الوردة الثالثة، تلك الوردة التي يميل لونها للسمرة، هي التي لفتت انتباهي ، أتأملها بشغف قاتل ، انتظر أن أستمع لكلماتها ، أسمع ترنيمة صوتها ، أنتظر حتى أصبح ذلك حلما يسعدني تحقيقه ، وبدون مقدمات تفاجئني بكلماتها ، بماذا تفكر يا أخي ؟

صعقتني بكلماتها ، أي أخ أنا ؟ يمكنني أن أكون أي شيء إلا الأخ .

عفواً ، ولشدة ما كررت كلمة عفواً وعذراً ، ولو سمحت ، قالت لي هل أنت شاعر ؟

فأنكرت ذلك لأنني لم أكن قد عثرت على خطواتي في درب الجنون بعد، فقلت: يعني ، تقريباً ، أنتظر الآن صمتها الساحر ، وما أن صمتت حتى بادرتهن هل يمكن أن نقطع كل هذه المسافة دون أن نتعرف على بعضنا وبدأت باسمي أنا ولا أدري ما الذي دفعني للكذب، فقلت: أنا اسمي لوتس صوالحة، ولم أكن أعرف أنهن على درجة عالية من الثقافة، وأنهن شابات أديبات وإن كن مغمورات.

- فقالت الأولى: هل والدك شاعر ؟

- فأجبت ب لا.

- وأمك ؟

-ورددت : ولا أمي.

- حسناً وهل تعرف معنى اسمك؟

بالطبع يا سيدتي .

- تقول والابتسامة تعلو شفاهها الفاتنة: آنستك.

- حسناً يا وردتي عفوا يا ورداتي الجميلات فهو إله النصر والجمال عند اليونان القدماء، وهو زهرة مصر منذ عصر الفراعنة وحتى يومنا، ولا أدري إن كنت دقيقاً في إجابتي أم لا، السعادة تغمرني ، آه لو طالت

الطريق ، أرغب بالاقتراح على السائق العودة إلى عمان لنعاود الانطلاق من جديد دعاء حار إلى الله جل في علاه أن تتعطل المركبة ، أن يحدث أي شيء لأبقى في هذه الجنة الغناء ، لم أتعرف على الآنسات .

أنا شيماء، وأنا لبنى ، وقالت الوردة الثالثة أما أنا فاسمي ليلى .

وشدني اسم ليلى ، ليس غريباً على هذا الجمال أن تكون صاحبته ليلى ، ليلى بمعناه الشفاف وما يثير فيك ، ولأنه يذكرك بتلك العاشقة ، ابنة تيماء ، هل من هنا مرت إلى العراق ، هذا الاسم (ليلى) ياله من معنى يمنحك شاعرية عالية ، لا بل معناه بحد ذاته قصيدة ، ليلى نشوة الخمر!!!!.

لم يلاحظن بأني أكذب بل كنت الأكذب عندما غيرت اسمي، وتوقعت أنا بأنهن غيرن أسمائهن ،ولكن كما يقال " حبال الكذب قصيرة "، سلمنا جوازات السفر للسائق لينهي المعاملة على الحدود الأردنية ، وجلسنا ننتظر، غادرت ليلى السيارة لوقت قصير وعادت وقد أحضرت أربع زجاجات من العصير الطبيعي دون استشارة ، عندما بدأت بتوزيعها قلت لها مازحاً : أنا لي اثنتان ، لأني أحتل مكاناً لراكبين

ردت وهي تبتسم : أنا سأحتل مكان الراكب الثاني .

آه لو فعلتها حقاً، رحنا نتحدث بأمور شتى سياسية ، ثقافية ، البنية الاجتماعيةللمجتمعات العربية، أوجه الشبه بينها وأوجه الاختلاف .

قالت إحداهن : هذا الجو رائع لهبوط وحي الشعر ، أقاطعها : بل شيطان الشعر .

قالت لبنى: أنا أكتب الشعر ، وليلى تكتب القصة ، وشيماء فنانة تشكيلية .

ياه كل سوريا الآن معي قصتها وشعرها وفنها ، وأنا أكتب الشعر العامي ، وفجأة تحول حديثنا للهم الثقافي في الوطن العربي .

قاطعنا سائق التاكسي وبدأ بتوزيع جوازات السفر ، " خذ جوازك يا محمد " شعرت بالإحراج الشديد لكذبتي بتغيير اسمي نظرن إليّ اسمك " محمد يا كزاب" هذا الاسم الرسمي المسجل بدوائر الدولة، ولكني أُنادى ب لوتس منذ صغري ، صعدنا إلى السيارة وما هي إلا دقائق حتى قابلتنا لوحة كبيرة على الجانب الأخر من الحدود وعليها صورة بحجم اللوحة للرئيس الراحل حافظ الأسد، كتب عليها أهلا بكم في سوريا .

ذهبنا للموظف المختص، كل منا وقف على نافذة ، أنا على نافذة العرب القادمين لسوريا وهن على نافذة المواطنين .

اختلفت صورة سوريا كلياً بنظري، لـمَا سمعت من سوء معاملة للقادم والمواطن على حد سواء ، فلا بد من الرشوة وكنت قد هيأت نفسي للدفع ولم أجرؤ على سؤال السائق عن ذلك أو المبلغ الذي يدفع ، لم

أضطر لذلك؛ لأن التعامل معي كان من أبدع ما يكون سواء من ناحية سرعة إنهاء المعاملة وختم الجواز أو من ناحية فن التعامل، فأهلاً وسهلاً تسمعها من الموظف عند وصولك إليه ، يقلب صفحات الجواز يختمه، ويتمنى لك طيب الإقامة ، يالك من بشر ظالم ، يالكم من أناس لا تستحقون إلا جهنم بل هي كثيرة عليكم ، لماذا هذا التنفير؟ .

عدنا إلى سيارتنا وبدأت من جديد تبتلع المسافة ،ما اسم هذه المنطقة التي نمر بجوارها ؟

- هذه دَرْعا .

يا لجمال أرضها بتربتها الحمراء والزي الأخضر الذي ترتديه وكأنها تتأهب لحفل زفافها .

- وبعد ماذا يأتي ؟

- من هنا تتجه إلى السويداء وغالبيتها من العرب الدروز .

الطريق طويل ومستقيم وسرعة السيارة عالية والشموس ما زال حديثهن مستمر، وأنا مازلت ألتفت إلى الخلف .

قطعت حديثهن بقولي آنساتي : أنا الآن غريب هنا، وأود التعرف على سوريا، فمن منكن ترافقني رحلتي ؟

- أجابت شيماء هل الدعوة مخصصة لواحدة بعينها ؟

- بالتأكيد لا .

- إلى أين تنوي الذهاب؟

- لي معارف هنا أنوي زيارتهم ، ولا أدري كيف أصلهم ، أود زيارة الأديب طلعت سقيرق ، وعبد القادر الحصني، وليلى مقدسي ،

قاطعتني لبنى بقولها: هذه الأديبة ليست في الشام ، وإنما تقطن بحلب، وهي صاحبة دار للنشر والتوزيع ، كيف تعرفت عليها ؟

- التقيتها في عمان ؟

وطلعت سمعت عنه ولم أره بعد أعرفه من خلال جريدة شبابيك.

قالت ليلى: حسناً أنا سأرافقك في رحلتك هذه مع شيماء ، لكن لبنى بالتأكيد لا تستطيع لأنها تقيم في حمص ، وهنا أود التعقيب على ما قلت في البداية بأنك غريب ، فأنت تحمل نفس اللسان الذي نتكلم به، ونفس الدين، أنت كما أنت في عمان بين أهلك، نرافقك في رحلتك بشرط عندما نعود إلى عمان تكون رفيقنا في رحلتنا، وتعرفنا على الأردن فنحن لا نعرف منه إلا عمان .

آه ما أسعدني، ولكن كيف لي أن أتصل بكم ؟

- لا داعي لذلك نحن سنتصل.

- لا أحمل هاتفا هنا.

- وأين ستنزل ؟

- ولأني لا أدري سألت عن هاتف أتصل من خلاله بإحداكن .

كتبت رقم الهاتف بخط أنثوي رقيق، وكتبت الاسم تحته .

- وإن رد على الهاتف أحد من أهلك سألتها؟

- عادي يا بنيي فنحن عائلة بُنيت على الثقة والحرية.

- في أي وقت عادة يكون صحوك؟

- ليس لي وقت محدد ولكن عندما تتصل بالتأكيد سأكون مستيقظة .

أخذنا الحديث ولم نشعر بالطريق إلا والسائق يقول: حمداً لله على سلامتكم، وصلنا إلى الشام ، طلبن منه إيصالهن لبيوتهن ، فأجاب بالموافقة وحدد أجرة ذلك، فوافقن عليها.

نزلت من السيارة ليلى أولاً وبرفقتها لبنى، ومن ثم نزلت شيماء في شارعآخر، ولكنه قريب .

- سألني السائق الآن دورك إلى أين ترغب الذهاب؟

إلى فندق أم لشقة.

- قلت بل شقة، لأني سأكون أكثر راحة واستقرار.

سارت السيارة، ونزلنا إلى أحد المكاتب وطلبنا منه شقة.

فقال : الشقة متوفرة ، كم ستمكث ؟

أسبوعاً.

أجاب : أربع آلاف ليرة .

صمت قليل أنهض من مكاني وأطلب من السائق مرافقتي ، وبقينا على هذا الوضع حتى استقر الآجر عند الف ليرة، فوقعنا العقد واستلمت المفتاح، واتجهنا إلى الشقة في حي التجارة، وتحديداً عمارة مرسيدس وكانت في الطابق التاسع .

دخلت الشقة وسألت السائق هل يمكنني الصعود إلى سطح العمارة؟ فأجاب بنعم، أخذت حماماً سريعاً احتسيت كوباً من القهوة ، صعدت إلى السطح ، ياله من منظر خلاب الأنوار منتشرة في كل الأنحاء تشعر بأنها تناجيك هنا مرتفعات، وهناك منخفضات، الأنوار تضفي جمالاً بديعا على الشام .

ما الذي غير مزاجي ؟ ما الذي يدور في خاطري ؟ لا أدري .

سوريا يا نداء الروح ، يا روضة القلب ها أنا آتيك لأستظل بجناحيك من وهج أيامي ، ألوذ بعينيك الساحرتين لأرى من خلالهما الدنيا، لأن عينيَّ أطفئتا ، ألجأ إليك باحثاً عما ضاع من أيامي لعلي أعثر عليها مخبأة في واحدة من طرقاتك، متى يأتي الصباح لتطل شمسي وأرافقها إلى دروبك؟

أسير معها في حواريك، نستمع لقصائد أرصفتك ، أُمتع سمعي بصوت الباعة ، لإتمختر في أسواقك علي أجد فيها ما يعوضني عن عمان ، عمان المعشوقة الظالمة ،عمان صاحبة الكبرياء الشهي ، أين أنا منك يا

حبيبتي؟

أين أنا من الملك الضليل وصاحبه ؟ أين سأبحث في الشام عما يعوضني عن البعد عنك؟

أهبط إلى شقتي ، أتناول كأساً من البيرة ، أرتشف من،ه وأنا أجلس قبالة التلفاز ، لا أرى فيه ما يلفت الانتباه ، أستمع إلى المذياع يصدح صوت صباح فخري، وبعده كانت ميادة تشدو بأغنيتها الرائعة "أنا بعشقك"، أشعر بثقل أصاب عيني ، أضع الكأس جانباً وأسلم نفسي لسلطان النوم .

لا أدري كيف فات الوقت ، يوقظني صوت المنبه ،الساعة التاسعة صباحاً، أتجه إلى الحمام أستمتع بالماء الساخن ينساب على جسدي ، أخرج منه منتعشاً، أرتدي ملابسي، أغلق الشقة ، أتأكد من إحكام إغلاقها أتجه إلى المصعد ، أهبط به إلى الطابق الأرضي ، أخرج من المبنى باتجاه المسبح المجاور لعمارة مرسيدس، ألقي بنظرة على ذلك المسبح ، يلفت انتباهي متجر انتصب على الجهة المقابلة للمسبح .

أتجه إليه أتناول علبة من السجائر وأسأله عن هاتف ، يخبرني أن باستطاعتي التحدث منه ، سألني عن الجهة التي أرغب التحدث معها ، فأبلغته داخل دمشق ، فلبى طلبي ، بدأت يديّ بالارتعاش وقلبي يخفق بسرعة، وجرس الهاتف المطلوب يرن ، الصوت القادم من الهاتف

يسحرني ، لا أدري ربما كان صوتاً ملائكياً ، يذكرني بعمان وبالإذاعية المعروفة بتول عباسي .

- صباح الخير .

- صباح النور أين أنت الآن أسألها ؟

- ترد مازحة؛ يعني أنت مش عارف إنك طلبت البيت.

- لا أقصد كيف سأصل إليك ؟

- دعك من هذا أنت فين هلأ ؟

- أنا بجانب عمارة مرسيدس.

- انتظر بمكانك ، نصف ساعة وآتيك مع شيماء .

- حسنا ها أنا أنتظر .

أغادر المتجر بعد أن جاهدت صاحبه، الذي كان كريماً جداً معي، ورفض بشدة في البداية أن يأخذ حساب المكالمة عندما سألني أنت أردني ؟

-نعم .

- من أين من عمان ؟

تترقرق الدمعة في عينه عندما سألني عن أناس فيها فأخبرته بأني أعرف المنطقة ، ولكن للأسف لا أعرفهم ، ولكن إن أردت أي شيء يمكنني الوصول إليهم .

- سالت دمعته وقال أين تصلهم؟ إنهم في ذمة الله احتضنتهم عمان للأبد.

- أسأله عن مكان أجلس فيه بعض الوقت، فسار معي إلى مقهى قريب، أجلس ، أطلب القهوة ، التفت حولي ، ياله من منظر خلاب ، مباني الشام تداعبها أشعة الشمس ، تفوح وتعبق رائحة الياسمين في المكان ، سوريا يا نداء القلب ، يا أرض جلجامش وزنوبيا ، سوريا يا معشوقة التاريخ وابنته، سوريا تناديني فيك تدمر ، وتناجيني أرواد ، ها هو أبو الطيب المتنبي يتألق بثوب القصيدة وهو يمدح سيف الدولة ، وهاهو سيف الدولة يجهز الجند لرد الروم عن أطراف بلاده ، ها هو أبو فراس الحمداني الأمير الشاعريرسل بقصائده إليك وهو هناك في سجن أنطاكيا، ها أنا أسمع صوته يناجيك :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر

أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمر

بلا أنا مشتاق وبيّ لوعة

ولكن مثلي لا يذاع له سر

معللتي بالوصل والموت دونه

إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

ها هو الملك العادل يوعز لقادته بالتجهز لصد العدوان عن أرض الإسلام ، وصلاح الدين ينطلق منها إلى الكرك ومن ثم إلى مصر ، لتبقى راية الإسلام خفاقة ولتبقى كلمة الله هي العليا .

- صباح الخير .

- يالها من أنشودة تداعب مسمعي ، يالها من قصيدة تخرج من فم ملاك: صباح الياسمين ، صباح الشمس وهي تغتسل بندى الشام ، تفضلي بالجلوس ، نتناول الإفطارونغادر المكان.

- حسنا تتناول إفطارك لوحدك.

- لماذا ؟

- لأننا تناولناه في البيت .

- حسنا نأخذ القهوة أو الشاي.

- لا هي لنبدأ رحلتك، أو رحلتنا في الشام ،من أين تود أن تبدأ ؟

- من أي مكان تختارين .

نتحدث وشيماء ، تلك الجميلة صامتة .

أسألها ما بك ؟

لا شيء ولكنكم احتكرتم الحديث، فالأفضل لي أن أصمت على أن أتكلم مع من لا يسمعني .

لا يا سيدتي .. كلنا أذان صاغية، فقط أسمعينا شدوك ، اقترح أن تبدأ من الشام القديمة وحواريها ، وأسواقها ذات النمط التراثي .

حسنا فلنبدأ ، نسير، تذكر لي الشوارع وأنا إما شارد مع تاريخ هذه الأرض، الأرض التي انطلق منها خالد بن الوليد ليحقق النصر الأهم على إمبراطورية الروم العظمى ويعلمهم بأن ابن الصحراء القادم من أرض السراب قادر على الفتك بالجرذان القادمة من أرض الضباب ، وكانت اليرموك الخالدة ، هذه هي سوريا عاصمة الخلافة الأولى لدولة الإسلام بعد المدينة المنورة ، من هنا انطلقت جيوش الأمويين تفتح الأمصار من روسيا إلى حدود الصين وإسبانيا وبلاد البربر (المغرب العربي) تونس والجزائر ومراكش وليبيا الرابعة الحلوة ، إلى هنا كانت تأتي أخبار الانتصارات الإسلامية، من هنا خرج الحجاج بن يوسف الثقفي ليقضي على الفتنة في العراق وليؤدب المتمردين.

إلى هنا جاء علي بن أبي طالب ليقابل معاوية وبرفقته مئة ألف مقاتل، ومن هنا انطلقت الأيدي الأثمة لتغتال الحسن بن علي وأخيه الحسين ، وأيضاً من هنا انطلق الحجاج ليقضي على تمرد عبدالله بن الزبير ويصلبه على أبواب الكعبة ، وهنا نشأ الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز .

آه تسرقني الشام حتى من الجميلات اللاتي يرافقنني .

- تخطفني ليلى من تداعياتي لتقول: هانحن في الشام القديمة ، متأكدة أنا بأنك لم تسمع شيئاً من حديثنا .

- لا بالعكس أنا معكن .

- والله ما أنت معانا ،" اللي ماخذ عقلك يتهنى به " أخذت عقلي الشام أنظر إلى روعة البيوت فيها بنائها أناقتها ألوانها المتشابهة ، أتأملها، المبني مؤلف من طابقين في أغلبها، الطابق بارتفاعه العالي ويحتوي على نافذتين الأولى لا ترتفع أكثر من متر عن الأرض وليست بالكبيرة ، تتخلل فتحة النافذة قضبان الحديد وهي من الخشب ، ونافذة عليا لنفس الطابق ، أما الطابق العلوي فرأيت له نافذتين على استقامة واحدة على الجدار ، أما الحديقة فهي مزروعة بالياسمين الذي يتسلق الأسوار وبعض الأشجار المثمرة، وهي ليست بالكثيرة ولكن الزهور تنتشر في المكان لتفوح كل صباح بشذاها الذي يملأ المدينة ، نتسكع في المدينة ، محمد ولا لا لوتس ها نحن أنهينا هذه الحارة هيا لنذهب إلى السوق .

هيا .

نسير مسافة ليست بالقصيرة ونحو الساعة الخامسة مساء ندخل السوق ، إنه سوق الحميدية يا محمد أنظر فلا شيء تشتهيه إلا وتجده ، ندخل إلى أحد المحلات التراثية ، يا إلهي حقيقة إنها تحف فنية رائعة ، تحف صنعتها أيد فنانة مبدعة ليست أثرية، ولكنها تعيش معنا وبيننا

ماذا لو أتيحت لها الفرصة ، أنظر حولي الزوار من كل الجنسيات العربية والأجنبية تجوب السوق ذهاباً وإياباً .

هناك محل للمطرزات الشرقية ، هذا الثوب يليق بأمي، وهذا الشال لشقيقتي ، وهذا ، لكني لم أشتر شيئا منها ، لكني أمسكت بثوب هالني شكله وطريقة حياكته .

-هل لي يا ليلى أن أطلب منك شيئا ؟

- أنت تؤمر.

- هل لي أن أرى هذا الثوب عليك ؟

- نعم!!

- هل لي أن أراه وهو يتزين بك؟

- طيب

أتناول ثوباً أخراً في غاية الجمال، وأطلب من شيماء أن ترتديه ترفض في البداية ، أرجوها فتوافق أخيراً ، ذبت عندما رأيت ليلى بذلك الثوب، أربكتني مشاعري كان يراودني شيطاني أن أخطفها وأطير بها إلى دنيا غير هذه الدنيا ، حقيقة أدهشتني ، تسير به نحوي ، يتصلب نظري ، أين منك جمال الدنيا يا ابنة الشام ؟ يا ابنة بردى ، وقت قليل وتخرج شيماء بثوبها المطرز بفنية عالية ، أتجه باتجاه صاحب المعرض وأسأله عن سعر الثياب فيبدأ بسبعة آلاف ليرة ، يستمر الجدال من ثلاثتنا معه حتى

وصل إلى ثلاثة آلاف ليرة للثوب الواحد ناولته ثمن الثوبين، ذهبت ليلى ومعها شيماء لتبديل ملابسهن .

آه كم تمنيت لو كنت معهن ، استبدلن ملابسهن وخرجن ، ألم تشعرن بالجوع يا آنساتي؟

بلا.

هيا بنا لنتناول طعام الغداء ، غداء أم عشاء قالت ليلى ؟

-كما تريدين.

- اللوم عليكن، أنا لم أشعر بشيء لفرط فرحتي ، هيا، أوقفنا تكسي ،إلى المزة لو سمحت .

- نعم قلت باستغراب .. إلى أين ؟

- إلى المزة .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، كان خوفي من هذا الاسم؛ لان سجنه وصلت سمعته إلينا في الأردن، لذلك ظننت في البداية أن المزة هو اسم سجن ، صعدت السيارة قليلاً ، وصلنا إلى المنطقة المرتفعة ، نزلنا من السيارة بعد أن دفعت الأجرة للسائق الذي بقي صامتاً طوال الطريق .

دخلنا إلى المطعم ، أدهشني المنظر الذي واجهني ، في البداية المطعم لم يبن على الطريقة الحديثة ولكنه عبارة عن " معرش" أنظر حولي كل الشام تحتي ، كلها قبالتي ، يا إلهي صمتها يبوح شعراً، بأضوائها تزهو

دمشق، حقا ما قلت يا شوقي ولكن لو حرفت قليلاً في قصيدتك وقلت :

سلام من صبا القلب أرق ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق

بدلا من :

سلام من صبا بردى أرق ودمعٌ لا يكفكف يا دمشق

الحوريات من حولي، ودمشق تحيط بي أي جنة هذه التي أحيا بها ، استمرت سهرتنا لما يقارب الحادية عشر ليلاً ، بعدها غادرنا المطعم أوقفنا تكسي وغادرنا المزة الشهية ، أوصلت كل واحدة لبيتها، مدت ليلى يدها وناولتني حقيبة بلاستيكية .

- ما هذا قلت ؟

- هذا الثوب.

لا يا عزيزتي هذا هدية من إنسان أحب هذه الأرض وعشقها، فأردت أن تكون هديتي إليكن ، لتكون الذكرى إن حان الرحيل ، فربما لا نلتقي، ومتى سترحل ، لن أغادر دمشق ، لن أغادر سوريا إلا إذا ذبحني الشوق لعمان.

- في أي وقت سنلتقي غداً ؟

- في الوقت الذي تريد .

- كما اليوم ولكن بشرط أن نتناول الإفطار سويا.

- أين تقيم أنت؟

- في عمارة مرسيدس الطابق التاسع .

- ياه برجوازي .

حسنا سنأتي إليك في الشقة.

-نعم .

- سنأتيك في الشقة لاتخف فلسنا كما تظن ؟

- لا يا عزيزتي ولكن العادات ، التقاليد .

- مادمت لم أفعل العيب أو أرتكب خطاءً فلا يوجد مايضيرني ولن آتيك وحدي .

حسنا ودعتهن وتابعت سيري في التاكسي إلى أن وصلت العمارة، وما كدت أدخل حتى عاجلني رنين الجرس، فتحت الباب وإذا بها امرأة من بائعات الهوى ، اعتذرت منها وأغلقت الباب ودخلت ، لم أعر الجرس أي اهتمام ، أمسكت بالجريدة أطالع عناوينها أبحث عن خبر عن عماني ولم أجد ، القيت الجريدة احتسيت كأساً من الفودكا، وأسلمت الروح لملك النوم، لعل عمان تراودني في أحلامي .

آه يا صاحب الملحمة الأولى في التاريخ الإبداعي ، آه يا ذا الهيبة وصانع الحرف الأول، آه لو وهبتني المقدرة على تشكيل الحرف وتطويع الكلمات، لو منحتني قاموساً من المفردات لأرتقي به لمقامك السني .

إليك يا سيد الزُهرة وعاشقها أشكو ضعف حالي وقلة حيلتي وضياعي في بحر الكلمات، وأنا الذي في حضرتك وعلى تراب أرضك اختلطت عليّ الألوان، وارتبكت ريشتي وارتحل شيطاني ، وحرفي صار خنجراً يمزق محاولاتي في الكلام .

زنوبيا ، سيدة الشام وياسمينة التاريخ ، إلى أين المفر من هواك وعشق هذا التراب ، هنا على أرضك ولدت فلسفة الحياة ، من فوق هذا الثرى المبارك كان لليد العربية أن تمتد لتقبض على الشمس ، وترتبط معها بعلاقة حب دائمة ، فقط لأجل هذا الحمى تقاتلت الأمم لتنال من رضاها وبركاتها ، لتنعم بالتمرغ بأديم الجنة، لتعمرها وتترك لها أثراً فوق صفحات التاريخ ، هذه الأرض الممتدة من سواحل الأبيض المتوسط إلى الأحمر ، عمرها الفنيقيون، وكان لأثينا جولة فيها ، وروما ما زالت أعمدتها تشهد على عطاء هذه الديار لمن يعطيها .

وبقيت على هذا الحال حتى جاءها سيف الله المسلول ليحرر هذا التراب الشهي من جيوش هرقل " عظيم الروم"، الذي وقف مكسوراً على ثرى الشام مودعاً إياها، بقوله :وداعا يا دمشق ، وداعاً لا لقاء بعده ، وتستمر رحلة التحرير والصمود إلى صلاح الدين فاتح القدس .

وهنا التقى (محمد) كاتب هذه السطور بليلى وشيماء وفوق تراب دمشق ارتسمت خطاهم ، ومن أسواقك كانت إشراقتهم وإطلالتهم على

الأمس ونظرتهم للغد ، هنا تعانقت أيديهم وتبادلوا الهدايا ، هنا في هذا المسرح كان لليلى أن تُنسي محمد "طلعت سقيرق ، وليلى مقدسي المرأة الحمصية ، صاحبة الصوت الدافئ " وهنا أقسمت عليه أن يؤجل رحلته للمحافظات لزيارة أخرى.

إليك يا سيدة الحروف وعروس الكلمات تلجأ نظراتي لتمسحي عنها دموع الرعب والقلق ، ينطلق إليك القلب لتداوي جراحاً سكنته ، وعذابات عرقلت مسيرة أيامه وأرقت لياليه ، إليك الجأ لتنقذي روحي من نيران غربتها ، إلى حماك ألوذ لعلك تمنحينني القوة لأعاود الانطلاق في رحلة الحياة من جديد.

الشام هذه المدينة الرائعة لاتختلف كثيراً عن شقيقاتها من المدن أو العواصم العربية، فالشوارع داخل المدينة ضيقة ، والأرصفة مكتظة بالناس والبضائع، الاختلاف الوحيد والمهم هو عدم الاعتناء بالشوارع من حيث النظافة والصيانة ، وأهم ما يميز أهل الشام أنهم أُناس مقبلون على الحياة بالرغم من ضنك العيش، الابتسامة ترافق السلام وهي مرتسمة على معظم الوجوه ، أُناس اقتصاديون بطبعهم ، في بيوتهم ، في حياتهم ككل ، المواطن هناك لا يشتري إلا ما يحتاج يوماً بيوم .

كرم الضيافة شعار يرفعه أغلب أهل دمشق القديمة ، حسن المعاملة من قبل الأغلبية ، أبنيتها ترحب بالضيف ،يا سمينها يحييك ، قهوة الضيف دائماً جاهزة .

بعد أن تجولنا في شوارع دمشق وشعرنا بشيء من التعب لارتفاع درجة الحرارة جلسنا ثلاثتنا في أحد المقاهي الشعبية إلى جوار شيخ كبير السن يُكنى الشيخ أبو علي ، سألته عن أيام زمان بقولي : أبوعلي كيف كانت الشام زمان ؟.

والله يا بنيي أحسن من اليوم ألف مرة .

- كيف فالناس كانت تعاني الفقر والمرض والجهل والآن العكس تماماً

- لا يا ولادي صحيح أن الفقر والمرض والجهل كانا شعاراً لذلك الزمان ، والآن يا أولاد راح الفقر ؟ خلّص الجهل ؟ إحنا أمنين ؟

- بالطبع ياسيدي فالأمان شعار سوريا العروبة ، سوريا الصمود .

- يا بنيي الأمان الداخلي متوفر منذ أن كانت الشام ولكن الأمان الخارجي فلمواقفنا نحن مهددون من كل العالم فأين الأمان ؟

أبو علي يحدثنا عن ذكرياته في هذه المدينة التي لم يغادرها أبداً إلا للحج ، أيام زمان أجمل في كل النواحي ، فكان الحب يسكن كل القلوب ، والتسامح سيد التعامل ، الترابط الاجتماعي ومشاركة الآخرين في كل المناسبات ، التواصل مع الأهل والجيران والأصدقاء لا يتوقف على

قدوم الشهر الفضيل أو العيدين بل هو مستمر على مدار العام بعكس هذه الأيام التي لا يعرف فيها الجار جاره ، يا أولادي لم يبق من هذه الأشياء شيء !!

- كيف يا سيدي وأنا لم ألاحظ خلال إقامتي القصيرة هنا إلا الكرم والترحاب من الجميع ؟

قررت أن أعرف بيت ليلى وأتعرف على أهلها وأن أزورهم في اليوم التالي لماذا ؟

لأطلع على نمط الحياة بعيداً عن الشارع ،ولكن كيف ؟ أخشى من شيء لا يسرني، أخشى من الرفض، تنحنحت شيماء، وقالت لم يبق الكثير عن افتتاح المسرح.

- أين تقام فعالياته سألتها ؟

- في مركز الأسد الثقافي .

- هيا لننطلق.

- أُفضل أن نذهب سيراً على الأقدام.

كما تردن ، تغمرني النشوة ، ويتململ بداخلي قريني ، كيف لا وأنا أتوسط ملاكين كريمين، أو حوريتين لم يخلق مثلهما على هذه البسيطة ، كيف لا أشعر بالنشوة والورد يحيطني ذات اليمين وذات الشمال ، كيف لا وأنا أسير في شوارع لا ترى فيها إلا الوجوه الباسمة والتي تعاند

تعب الأيام ومرارتها ، تتحداها بالابتسام فتقهر التعب ، كيف لي أن لا أنتشي وأنا في عمان الثانية بشوارعها الضيقة ، بأزقتها وحواريها ، بفوضاها العارمة وهدوئها الساحر ، حتى الفعاليات الثقافية تتكرر هنا ولكن بتنسيق ، هم المبدعون عينهم ، الهموم نفسها ، أرى عمان تتجسد هنا بكل تفاصيلها ، ولكن الاختلاف هنا بأن المثقف ليس هشا كما المثقف الأردني ، فقط ما يختلف عن عمان هو أسماء الشوارع ، ووجوه الناس ولهجتهم .

وقبل أن نصل للمركز الثقافي ، مركز الأسد ، نظرت لليلى ، حاولت أن أتكلم ولكني ترددت .

- سألتني مابك يا محمد ؟

- لاشيء .

- تود الكلام فتكلم .

- كنت أود أن أسألك عن شيء ، ولكني تراجعت لأني أخشى أن أُفهم خطأً .

- فقالت: تكلم واسأل .

- هل يمكنني أن أتناول فنجاناً من القهوة من يديك ؟

- نظرت إليّ باستغراب، وقالت: أين ؟

- في بيتكم أجبتها .

- أهلاً وسهلاً، ولكن متى ؟

-غداً

- بتشرف.

(آه يا عم العز للرز) قالت شيماء.

- لا والله يا غاليتي ولكن سؤالي كان موجها لكنّ، وليس لواحدة ، ولكني خشيت منك .

- لا تخشى شيئاً قالت تزورنا قبل سفرك بيوم ليكون الوداع على أمل اللقاء .

- حسناً.

دخلنا المركز الثقافي المهيب البناء ، وابتدأ العرض المسرحي ، ما أذهلني حقيقة عدا عن قيمة العرض الفنية هو تواضع الفنان السوري ، وما يتمتع به من أخلاقيات تبدأ بفن التعامل مع من يقابله، و لا تنتهي بكرم الضيافة، التقيت الفنان المبدع بسام كوسا ،والفنانة ذات الإشراقة البهية فرح بسيسو، والفنانة الرائعة مها المصري، والفنان القديروالنجم العربي الكبير صاحب القامة الفارعة والنكتة الحاضرة خالد تاجا والكثير منهم ، بكل الحب يستقبلون الملاحظات وبكل التقدير يتلقون الإعجاب .

عدت للشقة بعد أن انتهى العرض المسرحي والذي عالج قضايا اجتماعية مهمة ، مثل علاقة المواطن بحكومته وما يشوبها من انتقادات لاذعة ، ومن أهم ما يميز تلك العروض جرأة الطرح .

لم يتطرق أي عرض من العروض التي تابعتها إلى التجريب الفنتازي؛ كما في مهرجانات المسرح في عمان ، وعندما سألت أحدهم عن ذلك قال بوضوح وصراحة :

إن مشاكل المواطن السوري والمواطن العربي وقضايا الوطن لم تنته بعد ، ولماذا الابتعاد عن الواقع وماذا يعني التجريب ؟ ومن قال بأننا لم نجرب ؟ ولكن التجريب هنا يكون بلغة المسرح وأدواته ، بطريقة العرض ، وطريقة الطرح ، في المسرح خطاب للجمهور العادي الذي نسعى للارتقاء بذائقته الفنية ، المسرح في مثل عروضنا ليس صامتاً ، فنحن نعرض أعمالنا وننتجها للجمهور العادي وليس للنخبة؛ لأننا بذلك سنخسر وبالتالي سنتوقف ، عندما ننتهي من مشاكل المجتمع التي تبدأ بفاتورة الماء والكهرباء، ولا تنتهي بالبحث عن الوظيفة وتأمين لقمة العيش يكون موعدنا مع الفنتازيا قد حان.

نعم عدت للشقة بعد أن أوصلت ليلى الرائعة وشيماء الملاك إلى بيوتهن ، دخلت الشقة وأنا أنتظر الغد بشوق عارم ، أنتظر الصباح ، حتى أدخل ذلك البيت التي حبت على أرضه وبين زهوره ليلى ، أنتظر الصباح حتى

ألاقي ذلك الملاك في بيته وفي مهده ، أنتظر الصباح حتى أتذوق طعم القهوة من يديها اللتين تفوحان عطراً ، أنتظر الصباح لأتعرف على المواطن السوري على طبيعته وليس من الشوارع والمقاهي ، لأطلع على جزء من حياته علماً بأنني أعرف بأنه لن يكون على طبيعته في التعامل معي وبوجودي ، بل سيكون متحفظاً بكل تصرفاته للمحافظة على الصورة النمطية للإنسان العربي وخصوصا الريفي منهم ، رحت أحلم بالغد كيف سيكون؟ وماذا ستكون هديتي ؟ هل تكون للبيت ؟أم أخص بها ليلى ؟ كيف سأقابلهم ؟ كيف سيكون شكلي ؟ بماذا أبرر زيارتي ؟

تناولت زجاجة من الفودكا ورحت أشرب منها مباشرة ، وصلت إلى عالم الأحلام وأنا أتمنى أن أحلم بالغد ! ولكن عمان سيطرت على حلمي، أسمعها تناديني، الشوارع تحن لخطوك ، إلى تعليقاتك على الصبايا في شوارعي، متاجري تحن إلى نظراتك ، مقهى السنترال والجامعة العربية ينادیانك، جريدة الأسواق ،بناة المستقبل تشتاقان لقلمك .

آآآه كم أنت قاسية يا عمان، الشوق أليك يشدني وظلمك يمنعني ، لا أدري ، أريد أن أشعر بإنسانيتي التي فقدتها فيك ، ابتلعتها شوارعك ، أفقدتني حريتي .

أنهض من نومي ، أشعر بصداع غريب ، أتجه للحمام ، الماء الساخن يغسلني ، أحتسي فنجانا من القهوة ، أنظر إلى الساعة تشير إلى الحادية عشر صباحاً .

- أتصل هاتفياً بليلى ، صباحالخير .

- صباح النور "وينك يا أستاز " .

- أجيبها أنا في الطريق .

- تعاود السؤال هل تعرف العنوان؟

- لست متأكداً منه .

- إذا توقف عن الحركة ، اعرف اسم المكان الذي وصلته واتصل بي لآتيك .

حسناً.

بعد نصف ساعة تقريباً اتصلت بها بعد أن وصلت مركز الأسد وأخبرتها بمكاني .

- حسنا انتظرني عشر دقائق وأصلك .

وقفت أنتظر ، أنفث دخان سيجارتي في الهواء وأتسأل من أي الجهات ستطل شمسي؟ وما أن أكملت سيجارتي حتى وصلت برفقة شقيقها الصغير ، القلب ينبض بسرعة ، أحس بالفرح يغطيني ، تلعثم لساني واختنقت بداخلي الكلمات وأنا أصافح أخيها ، لا أدري حقيقة المشاعر

التي تملكتني وقتها ، سرنا بعض الوقت وأنا غارق بصمتي ، أفكر بطبيعة هذا المجتمع ، أهي الحرية المسؤولة والثقة العالية بالنفس التي يربى عليها الأبناء؟ أم هو الفلتان ؟ وكيف يكون الفلتان وأنا لم أُلاحظ إلا كل ما هو جميل وطيب .

- قالت لوتس، نظرت إليها وابتسمت ، أين أنت الآن ؟

-أنا معكم ، في دمشق وها أنا أسير إلى جانبك وأخيك .

- ما هذا الصمت الذي تغرق نفسك فيه ؟

- لا شيء بعض الأسئلة تراودني .

- ما هي ؟

- بعدين.

حسنا ها نحن قد وصلنا ، دخل أخوها قبلنا وعلى طريقتهم حتى يأخذ طريق ، تنحنح وبصوته الطفولي الناعم يا لله ، يا الله ، يالها من كلمة جميلة يستأذن بها إنسان للدخول إلى بيته حتى لا يطلع على ما لا يحق له رؤيته ، دخلنا وما هي إلا لحظات حتى حضرت أمها ، تلك المرأة التي لم تتجاوز العقد الرابع من عمرها ، لم أصدق في البداية أنها أمها ، توقعت أن تكون شقيقتها الكبرى على أكثر تقدير ، صافحتني ،جلست قليلاً سألتني عن قهوتي فأجبتها ، طلبت من ليلى أن نخرج من الغرفة ونجلس أمام البيت في الحاكورة، خرجنا كراسي من القش وأخرى

بلاستيكية ، الزهور تحيط بالمنزل من كل الجهات ، أتأمل البيت بنوافذه وأبوابه وسوره المرتفع ، تناولت قهوتي ، وبعدها الشاي ، حاولت الاستئذان ولكنها رفضت ، نادت أمها التي أخبرتني بأن الغداء جاهز ، الخجل يغطيني ، تناولنا الطعام الذي تنوع على السفرة ، بعد قهوة الغداء استأذنت ورافقتني ليلى لبيت شيماء، وهناك أبلغتها بضرورة زيارة ساحة الأمويين .

تفر منك النظرات وأنت تعبر الممرات والحواري إلى أول المساجد التي بنيت في بلاد الشام في العصر الأموي ، تختلط بداخلك المشاعر وأنت ترى الياسمين يتعربش أسوار البيوت، ينثر عطره على المارة موزعاً زهره الأبيض الشفاف على الطرقات معانقاً لشمس الشام .

وعندما تطأ قدماك ساحة الأمويين يبهرك جمال المنظر ، نافورة من الماء تعلم الإنسان الرائي لها معنى العطاء المستمر ، تعلمه فلسفة الحياة ، فلسفة التجدد الدائم وعندما تتقدم قليلاً وتصل المسجد الكبير تختلط بداخلك المشاعر وتضطرب الكلمات ، وينتشي فيك الزمن القديم ، الزمن الجميل ، زمن من علموا الإنسانية معنى الوفاء للمبدأ والرسالة ، تنظر للمسجد قبل أن تدخله تتردد بالدخول إليه لتبقى متمعنا في ذلك الجمال البهي .

القباب الموزعة بانتظام على المسجد ، المآذن المتلألئة والتي ترتفع حتى يخيل إليك بأنها تصافح السماء، بل حقيقة هي تصافح السماء ألقاً وشموخاً.

هناك في ساحة الأمويين ، وفي المسجد الكبير كان للسحر جولته ، وللدهشة دورتها ، وللمآذن وهي تطلق النداء الخالد ، نداء الحياة ، نداء الله وأكبر ، ولفن الزخرفة الإسلامية أيد مبدعة تدهش الناظر إليه ، ويقفز إليك السؤال هل هذا مسجد تقام فيه الصلوات وتؤدى فيه الشعائر؟ أم أنه تحفة فنية مزجت ألوانها أيد ملائكية ؟ ودعت المكان بصلاة ركعتين شكراً لله تعالى الذي أتاح لي فرصة القدوم إلى الفيحاء الساحرة بكل ما فيها ، كيف لنا أن نلوم الخليفة الخامس في الدولة الإسلام على نقل عاصمة ملكه من مدينة رسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الأرض، أرض الأصالة والعراقة .

وفي طريق عودتنا من ساحة الأمويين، سألت ليلى عن أبيها فقالت إنه يعمل في إحدى دول الخليج ، وهنا لا أدري كيف عقدت العزم على العودة لعمان في اليوم التالي .

عدنا للمزة من جديد جلسنا ثلاثتنا لتناول العشاء الأخير في هذه المدينة الشهية ، عدنا للمزة وكانت الساعة تشارف على الثامنة مساء،

وكانت عودتي لهذه المنطقة تحديداً لأصافح الشام كاملة ، لتعانقها عيوني، على نغمات العود وبرفقة الملائكة .

أبلغت ليلى وشيماء بعودتي إلى عمان غداً .

تنهدت شيماء تسافر ولم تف بوعدك لي ؟

- أي وعد يا روعة الشام ؟

- أن تعاملني كما ليلى ؟

- وبماذا وعدتك ؟

- أن تكون العلاقة التي تربطنا عائلية وأن نكون الأخوة والأصدقاء الذين لا تبعدهم المسافات .

- لمأسافر بعد ، ولم تنتظري نصيبك ، وكما يقال:" لو صبر القاتل على المقتول "، وددت أن تكون مفاجأة لك ولكن لا بأس أن أخبرك بها الآن ، غداً ستكون قهوتك آخر ما يدخل جوفي في الشام ، سأغادر الفيحاء وعطرك وليلى كل ما أحمل .

- ابتسمت وقالت حسناً لا تغادر قبل أن آتيك .

- وإن تأخرت ؟

- فقط لا تغادر.

- حسناً سأنتظرك .

غادرنا المقهى في حوالي الحادية عشر ليلاً ، عدت إلى شقتي ، أشعلت التلفاز، تناولت زجاجة من الفودكا، الفودكا المشروب الذي أعشقه ، ارتشفت كأس، اثنان ، تناولت حماماً ساخناً، وعدت لأكمل ما تبقى في الزجاجة بعدها انتقلت إلى عالم الأحلام علماً بأنني كنت مصراً على أن أقضي ليلتي سهران .

أستيقظ في الصباح على رنين الجرس، كانت الساعة تقارب الحادية عشر.

- من ؟

- افتح يا لوتس .. افتح يا محمد .

-ياه ما أجمله من صباح أفتح فيه عيوني على عيون الملائكة ، على الطهارة ، على عيون شيماء وليلى ، يدخلن ، من ستصنع لنا القهوة ومن تصنع الشاي قلت، سنصنع القهوة والشاي سوياً ونرتشف ما نريد أولاً، يدخلن إلى المطبخ، وأدخل إلى الغرفة ، أبدل ملابسي أرتش بقليل من العطر وأخرج ، نحتسي القهوة والشاي ، عيني تُعري كل شيء ، وقريني يشعل النار بداخلي ، نغادرالشقة إلى مكتب السمسار أسلمه المفاتيح ، ومن هناك إلى مكتب السفريات للحجز . شيماء وليلى يصررن على أن يكون السفر مع الغروب ،وعندما سألت لماذا؟ كانت الإجابة : لتشاهد شمس الشام وهي تستأذن للإشراق على

أرض أخرى ، نتفق مع السائق ليأتينا إلى بيت شيماء ، نغادر بعد أن أخذ العنوان ، أقضي ما تبقى من الوقت مع شيماء وليلى وباقي أهلها الذي غمروني بلطفهم ، يا إلهي كيف مر الوقت سريعاً ؟ لم نشعر بمرور الساعات إلا والسائق يطرق الباب أبلغتني والابتسامة ترتسم على شفاهها السائق حضر ، نهضت من مكاني ، صافحت والديها وإخوتها ورافقتني ليلى وشيماء إلى الباب وقبل أن أصافحهن ناولتني شيما حقيبة ورقية وكذلك فعلت ليلى ورجونني أن لا أفتحها إلا في عمان ، مددت يدي ولا أدري كيف طبعت قبلتي على يد شيماء ، وكيف حضنتها فشعرت بكل المشاعر تغزوني ، كذلك كنت مع ليلى طبعت قبلتي على يدها وعلى جبينها ، حضنتها فشعرت بدفء الدنيا وحنان الكون .

ها أنا أغادر الشام وأودعها ، أودعها ليس كوداع هرقل أودعها على أمل اللقاء، على أمل أن تسعفني السنين وتعيدني إلى ذلك الحمى العربي الذي يقف بوجه العالم لبيقي على شعلته العربية الإسلامية تبعث بنورها الأزلي إلى الكون ، لتكون مقصد المتعبين والمقهورين، فالشام وحدها التي تملك اليد الحنونة التي تمسح الألم وتداوي الجراح.

ها أنا أغادر الشام ، أودع شيماء وليلى الشام ، أودعها وهي تغوص في أعمق أعماقي ، أبتعد عنها ، لا هي كما عمان ترتحل معي إلى أي مكان في الدنيا فدمشق وعمان .

آآآ ه لو تكتمل الفرحة وأسجل في سفر ترحالي لقاء الثالثة الكبرى ، آه لو أكحل عيني بتراب القدس الحبيب، فتكون حياتي سجلاً حافلا بالنور ، مكتمل القدسية ، آه لو تشاء الأيام وتقذفني إلى الرابعة الأخرى ، إلى بيروت ، إلى صور وصيدا ، إلى الأرض التي قهرت أعداء التاريخ، يكون سفر حياتي انتهى بكل ماهو جميل ، ها أنا أغادر الشام وأترك الروح تسبح في فضاءاتها الرحبة ، أودعها وأنا أُمنى القلب بلقاء قريب ، لقاء جديد ومتجدد ، على أمل تذوق قهوة ليلى المعطرة ، وتبولة شيماء الشهية .

أغادرها وأترك قلبي لحب دائم ، وأغنية تردد اسم دمشق ، لا بل تحفره وشماً على جبين الأيام .

أغادرك يا دمشق والعين تبكي حرقة الفراق ، والقلب يتأوه حسرة على أيام ستضيع بلا معنى ، البعد عن الشام ليس سهلاً لمن عرف الشام وأهل الشام ، لمن تذوق طعم الفرح على ترابها الطهور ، الوداع ليس سهلاً على من داعبه ياسمين البيوت ، وتعطر بأريج الشوارع .

دمشق ، يا أغنية القلب وفضاء الروح ، يا سماء الخير وموطن الجمال ، يا حلم الواقفين على بوابة الحلم ، يا شقيقة عمان ، يا أخت المجد ومعنى الوجود، إليك تحن المشاعر التي ارتبكت في لحظة وداع الرائعتين ليلى وشيماء اللتين تحملان منك كل ما هو جميل وطيب ، وصيتي ورجائي يا

دمشق أن تكوني النسيم الذي يداعب ليل ليلى وذهب شيماء ، أن تمنعي عن عيونهن الدمعة فهن ذكراي الخالدة فيك يا شام القلب والوجدان ، الشام معنى الحضور ورمز العطاء والصمود ، لا غياب لمن يطأ أرضك أيتها الحبيبة .

أغادرك والقلب يذيبه الألم ولكن نيران الشوق لأرصفة عمان يشدني إليها ، وأظنك لا تلومينني وأنا أقضي ما كتب لي من عمر أستمع لبوح الأرصفة وأغنيات الشوارع وتراتيل المقاهي في رحاب شقيقتك عمان .

وداعاً يا شام ، وداعاً أيها الحب ، وداعاً يا معنى الخلود .

إذاً هي دمشق الفيحاء ، هي علامة الكون أسطورية البهاء ، خرافية الضحكات ، إنها أرض الياسمين ، فيها وفيها وحدها يكتمل الحسن، ويلتقي الجمال بالتاريخ والحضارة ، على ترابها وحدها تسجد الشمس في كل صباح وتحضر النجوم لتستمد لمعانها من قلوب لا تعرف إلا الحب والترحيب بكل القادمين ، من لم يزر الشام كمن لم يزر البتراء ، من لم يقتحم شوارعها ويستمع لقصائد أرصفتها ، من لم يتأمل صمتها ويصغي لنداء الحياة فيها، فقد كل معنىً لحياته .

هي معقل جلاجامش، وأرض زنوبيا وامتداد مملكة الأنباط ، هي أرض معاوية والجاحظ والمتنبي وسيف الدولة الحمداني ، هي العطاء والفداء، هي معنى الشموخ والكبرياء .

ملاحظة : المقصود بكلمة الشام : هي مدينة دمشق أينما وردت .

***

ليالي الشارقة

لا أدري مقدار الفرح الذي سكن الفؤاد، والسعادة التي غمرت الأحاسيس، وأخي يخبرني، بأنه وصلتني دعوة من أختي في شارقة الشمس ، من أرض النخيل وعيون المياه ، أبكتني كلماته وأطربتني .

هل سألتقي بالحلم الذي طالما انتظرته ؟ هل سألتقي بالأهل هناك ؟ إنه الحلم وأي حلم هذا ؟ إذا سأطير إلى هناك ، لن أخبر أحداً بسفري إلى تلك الأرض التي من رملها الحارق أصبح ينتشر الأريج ، أي مكان في الدنيا هي الشارقة ؟ هل هي أرض النفط فقط ؟

فأنا الآن سأدخل إلى أرض تختلف عن كل أرض دخلتها من ذي قبل، سأدخل إلى وريد الإمارات العربية المتحدة، سألتقي هناك بالأرضوالإنسان .

يناديني أخي متى ترغب بالسفر أيها اللوتس، الآن لو أمكن .

وما أن أنهيت حديثي مع شقيقي حتى رن هاتفي ،يااااه إنه الهاتف الذي انتظرته منذ أن أبلغتني بأن حلمي على أبواب السفارة الإماراتية يقف

تكلمنا قليلاً، وسألتني نخلة الشارقة التي لا تضاهيها نخلة ، وشمس تمنح الدفء للقلوب التي أصابها برد الزمن ، هي التي تطلق الصبر في الوريد ،هي التي تمنح القصائد رونقها ، وتهب الكلمات تعابيرها ومعانيها ، هل أنا في حلم ؟ أم أني أعيش الحقيقة ؟من يصفعني ليؤكد لي بأني في تمام وعيي ، سأذهب إلى نبع الحنان ، سألتني متى سأرحل إليها ؟

تهربت من الإجابة ولم أحدد الموعد ، لتكن المفاجأة التي آمل أن تكون سعيدة ، كنت أفكر بأن أستثمر المدة المسموحة لي بالإقامة هناك ، سأعتبر نفسي كاتباً متفرغاً لرحلتي، للشارقة فقط ، وأسئلة تدور في الذهن ، كيف سيكون ضيف تلك الإمارة ؟ طبيعة أناسها ، كيف حال البحر الذي يلفها ، والصخور ، التي طالما حمت تلك الديار من قراصنة البحر؟ متى يكون اللقاء ؟ الانتظار صعب ، واللحظات تمر ثقيلة مملة ، والحلم يشتعل .

أكتب عن ترابك سيدة الدنيا (عمان) الذي تناثر هناك في بحر العرب ، والذي منه كان الناس هناك ، عماني أكتب عن ترابك الذي أردت أن يكون شارقة للحب ومعنى للشموخ، أكتب عن شيء من ترابك الذي يقبع هناك في البعيد .

لا، عماني لا تغار من شيء في الدنيا بل الكل يغار منها ،عمان أيتها الرائعة فلي قلب هناك، أريد زيارته ، وأنت من علمنا الوفاء ، عمان لي نبضة هناك زرعت أريد فقط أن ألتقيها ، وأطمئن على زهرها .

أسهر ليلي الذي مر طويلاً ثقيلاً، كانت عصي الانتظار تجلد الروح، ولم يكن للصباح أن يأتي إلا بعد أن أذاق القلب من العذاب ما أرهقه، ولكن كل شيء في سبيل الرحلة يهون، فلا معنى لشيء أمام تحقيق الحلم الأغلى.

وحان الموعد وانطلقنا إلى الجبل الشامخ ، الجبل المسمى جبل عمان ، وَلَجْنا باب السفارة وهناك تيقنت بأني سأرحل إلى الأرض التي استخلفوا فيها ، منتهى الاحترام ، روعة في التعامل ، إذا لمَ لا تكون هذه البلاد خليفة لعمان ، لمَ لا تكون حاضرة الخليج ، وملتقى العالم ، ما الذي نريده ، غير ابتسامة في الاستقبال ومثلها في الوداع ، وقت قصير انتهت به المعاملة ، يسألني شقيقي إلى أين الآن ؟

إلى أقرب مكتب للطيران .

- لماذا؟

- للحجز في أول رحلة .

- وهل ستخبرهم بموعد وصولك إليهم أيها اللوتس؟

- لا .

- كيف ذلك؟

أنت ذاهب للكتابة ، من سيرافقك ؟ فقد تكون الرحلة طويلة، وأنت تريد التجول.

- سيكون برفقتي من ستقوده أحاسيسه وقلبه للقائي ، متأكد أنا بأن قلبه سيقوده ، وسيعرفني من بين الجميع .

- كيف .

- أردنيتي تعلو جبيني ، وعمان شمس تسطع من عيوني .

- وإن خاب ظنك ؟ ولم تجد أحداً في انتظارك ؟

- عندها يستخدم الاختراع الذي يدعى بالهاتف .

- في أي الفنادق ستهبط ؟ يا رفيق التعب ، وشقيق السهر ،عمان ستفتقد أريج أنفاسك ، سأريح القلب من عناء هذا الحب ، سأبحث عن حب لا يقيدني ، سأبحث عن أرض تنتزع مني جنوني وتعيد إليّ العقل الذي فقدته منذ حبوت على أرض عمان ، تعلم بأن عشق عمان أدماني .

- حسنا لك ما تريد ، لتنس كلمات الشوق ودموع الحنين لحبيبتك التي تود الرحيل عنها.

ها قد وصلنا يا شقيق الروح ، ها قد وصلنا أبا صخر ، طرقنا باب

المكتب ودلفنا إليه ، أهلاً وسهلاً كلمات الترحيب المعتادة ، أرغب بالحصول على تذكرة لدُبي ،عاصمة الدنيا الاقتصادية ، بأول رحلة.

-الاثنين القادم.

-وقبل هذا الموعد ؟

- المقاعد محجوزة بالكامل .

-حسناً ،إذا هي فرصة لأنقطع عن الحب الساكن بي ، لأنقطع عن الحنان الذي ينتظرني .

- أيها اللوتس كيف لمن هو مثلك أن يحمل كل هذه السادية ، وهذه القسوة ؟

- ليست القسوة ، بل لأشعل نيران الشوق ، لأرسم لوحتي لتلك الديار ، الديار التي تقطنها نفرتيتي العصر، بحرالحنان ، منبت الحب ، تلك الفرعونية التي أزهرت هناك ، ونشرت شذاها فوق الرمال فمنحتها الخضرة ، منحتها الصفاء ، يا شقيق الروح دعك من كل الأسئلة الآن ، احتفظ بها لحين العودة من هناك ، دعني أستمتع بلحظاتي ، تسعدني سياط الفرح التي تجلد القلب ، وتبهجني النيران التي تشتعل بروحي ، يفرحني مرور الوقت سريعا للالتقاء بجلالة الفرعونية ، فهناك أيضا حتشبسوت ، وقد التقي بوردة وقد أقامت

بتلك الديار لتنتقم لابنها الفتي القتيل ، فقط تنتظر اللحظات لتعلن وقت الثأر من (المكعبر) ملك البحرين، هناك بالتأكيد سألتقي بالحضارة ، وألتقي إبداع الحاضر ، سألتقي بكل ما أريد.

تمر الساعات طوالا ، أنبش في النفس عن أسئلة تضيء الجوانب المظلمة ، أو التي أجهلها عن تلك الأرض ، عن تلك الرمال التي نثرت هناك ، ليلفها البحر ، وتطربها أغنيات البحارة وكلما اكتملت الصورة في الروح أحرقها لأنها ليست الصور التي أريدها ، كيف تكون هناك الحنان ، وكيف يكون هناك المبدع الرائع خالد الصقور، وقناص الجزائز الشاعر والمسرحي عاطف الفراية وأرضى بهذه الصور كيف ؟ بمن سألتقي أولاً؟ ومن أي مكان ستنطلق رحلتي؟ كلها أسئلة بعد أن أعثر على إجاباتها، أشعر بتفاهتها، فألقي بها بعيداً عني كأيامي ، التي ارتحلت ، أمحوها من ذاكرتي ككل أشيائي التي أجبرت على التخلي عنها.

وتنقضي الأيام بعدما جلدت القلب بسياط الانتظار ، يأتي الموعد ، نتجه للمطار ، يرافقني الأهل ،الأم(أرق الأمهات وأكثرهن حناناً) تسكب دموعها الصامتة ، تلقي بقصائد الوداع من خلال تلك الدموع ، الوالد يخفي وجع الفراق بابتسامات كانت تنثر شموع القلق أمامي ،

برفقتي أيضاً العائلة بكاملها ، ينثرون أمامي زهور الدعاء بالتوفيق والسعادة، وحده ذلك المشاكس شقيقي الأصغر الذي كان يقول لي بسخرية أنا لا أريد إلا هدية واحدة ، لا تكلف الكثير شيء من الحنان ، وأن تنثر باقات سلامي لتلك الأرض التي تقل الحنان والسماء التي تظلها ، بالله عليك شقيق الروح أن تخط اسمي على المقاعد التي تجلس عليها من دبي وحتى العودة ، فقط لأكون رفيق رحلتك.

أصل إلى المطار، أتقدم بمعاملتي (جواز سفري وتذكرتي) ونجلس هناك ننتظر النداء على المسافرين ، شقيقي الذي يصغرني في غاية الكرم يمنحني بعضا من دفء الأخوة ، من الحب الكبير الذي يسكن أعماقه ولم أشعر به قبل تلك اللحظات ، هناك أمي ما زالت الدموع تنفر من عينيها رغم ابتسامتها التي لم يكتمل رسمها ، وأيضا أبي يدعو لي بالتوفيق، يطلب ممن جل في علاه أن يمنحني الرضا والقبول ، أحس بدفء ذلك القلب، أسمع نداءه أن لا تتأخر كثيراً ، فهنا من هو بانتظارك ، آه أيتها الحبيبة الرائعة ، يا بدء التكوين وكل مساحات الروح ، ها أنا أرحل وقد لا أعود ، أرحل عليِّ أخفف من وطأة حبك الذي قادني إلى ما أنا فيه من ألم ، أعلم بأن الشوق سيستل سكينه ويقطع ما تبقى من الفؤاد .

ويأتي الصوت من حيث لا أرى ، على السادة المتجهين لدبي التوجه نحو البوابة رقم (...) ، قلبي يزغرد فرحاً ،الروح تغني قصيدة حبها الذي ستلتقيه بعد وقت قصير ، سأطير إلى دبي تلك القلعة التي أصبحت محجاً للعالمين ، تلك الأرض العربية التي بت أخشى عليها من أعداء العروبة ، من سماسرة الإنسانية .

أصافح الأهل وأتجه باتجاه البوابة التي منها سأعبر للطائرة ، يتم التأكد من جواز سفري وتذكرتي ويسمح لي بالدخول ، على باب الطائرة أيضاً يتم التأكد من التذكرة ويتم قطعها ، ترافقني المضيفة إلى المقعد المخصص ، قليل من الوقت ويأتي النداء ضرورة الامتناع عن التدخين وربط أحزمة الأمان ، ويتم الإبلاغ عن ساعة الوصول .

تقلع الطائرة ولا انتبه لشيء إلا للساعة في يدي ، وكم انقضى من الوقت ، شعور من الخوف يسكنني ، وسواس يقلقني بقوله قد يحصل للطائرة شيء قبل أن تصل ، ترتعد أوصالي ، يسألني شريكي في المقعد: ما بك ؟ ينصحني بقوله : إن كنت خائفاً فعليك أن لا تنظر من النافذة .

ألقي برأسي على المقعد ، لعلي أغفو فيتبعثر قلقي وخوفي، وأحلم بلحظة الوصول ، ولقاء بحر الحنان ، صاحبة القلب الكبير .

أرفع رأسي على صوت النداء من جديد بضرورة الامتناع عن التدخين وضرورة ربط الأحزمة، وقت قليل ، ويأتي الصوت مهنئاً بسلامة الوصول.

نهضنا من مقاعدنا واتجهنا لصالة القادمين ، وقفنا كل على النافذة المخصصة له، الابتسامة لا تفارق محيا الموظف المختص بتدقيق جوازات السفر، قليل من الوقت وكنت أغادر النافذة متجهاً لصالة الاستقبال، أتأمل وجوه الناس ، أين حنان منهم ؟ استخدم هاتفي ليأتي الصوت الذي انتظرته ، أن تقدم ، هناك من تحمل بيدها ورقة كتب عليها اسمك، لم تكن بعيدة عني، اقتربت منها صافحتها ، يا الله بي رغبة عارمة لعناقها ولكني خجلت أو خفت .

خرجنا من المطار ، حقيبتي بيدي ، وسرنا إلى الشارع ، أوقفنا تكسي ، وذهبنا للمدينة الجميلة، تسكعنا في الشوارع ، يأسرني جمال دبي ، وتغريني ابتسامتها التي ترحب بكل آت إليها ، إنها تحفة حفرها ولونها الإماراتي ، وإنها أيضا نعمة المال التي وهبت لهذا الشعب الطيب .

نتابع سيرنا والابتسام نتبادله مع كل من تقع عليه العين ، هكذا هم أبناء الإمارات دوماً ، تحيتهم فيها سلاما، وإن جاءهم الضيف رحبوا به ، وكانت منهم الأهلا ابتساما .

نصل إلى موقف الحافلات الصغيرة (سيارات الأجرة) حيث لا يوجد غيرها ونطلب من أحد السائقين إيصالنا إلى الشارقة.

يسألنا أي الطرق نسلك ،الطريق الدائري أم من وسط المدينة ؟

وبسرعة البرق تجيب رفيقة الرحلة ، وشقيقة الروح الطريق الدائري ، كثير من كلمات السائق لم أفهمها لأن لهجته الآسيوية الخليجية الثقيلة كانت صعبة عليّ.

وتبدأ السيارة بسيرها الهوينا في وسط عاصمة الإنارة والضوء ، ما الذي أصابني؟ لم لا أود مفارقة هذا السنا الجميل ، لم أرغب بالبقاء هنا ؟ من الممكن لتقتبس من نور هذه المدينة نورا ، ومن الممكن رُقي الناس وحسن التعامل هما ما أسر الروح ، صبراً أيها الجنون فأنت مع من علمتك رقي الجنون وروعة المغامرة ،وما أن تلقفت المركبة الطريق الدائري حتى بدت تلتهم الشارع وتطوي المسافة ، طلبت من رفيقتي أن تطلب منه أن يرحم الطريق من ثقل العجلات التي تدور فوق رأسها ، لنستمتع بروعة الرمل والأنوار المتفرقة على جانبي الطريق والتي تختلط مع نور القمر لتزيد الرمل رونقا وبهاء.

نصف ساعة من الزمن ، أقل قليلا ، أكثر قليلا ، وكنا نخترق سطوع الأنوار ، تكاد أن تجزم أنك في وضح النهار ، أين نحن أيتها الحنان ؟ ،

نحن على أبواب الشارقة!! إنها شارقة الشمس ، إنها عيون الألق ، ومهابة السحر.

وما أن دلفنا في غرفتنا في الفندق، بادرتني حنان بسؤالها كيف تركت عمان ؟ والأهل هناكترغرغت عيني بدموع الشوق وراحت عمان تتراءى لي وخصوصاً إنني أقيم في فندق يقع فرعه الآخر في أجمل مناطق عمان ، عمان يا أخية تزهو بعباءات الفرح الأخضر دوماً ،عمان النقاء والصفاء ، عمان بدونها لا قيمة للحياة ولا معنى للوجود ،عمان يا توأم عمان إن ابتسمت أزهر الكون وتألق وانتشى ، وإن غصت بدمعتها ، توقفت الأرض عن الدوران وامتنعت الشمس عن الشروق ، عمان أيتها الرائعة هي المنطلق وهي المنتهى ، ليتك عرفت الأردن ، عندها فقط ترين الإنسانية والرقي بأبهى صورها .

عمان ، الأردن اللوحة التي رسمتها يد الإله ، فكانت المعجزة الأهم والأبقى،عمان هي أنثى الوجود التي طالما تناحرت للوصول إليها الأمم ، عمان يا خليلة الروح ، شوق الدنيا وقيمة الإنسان،عمان التي تحاول دوما لململة خيوط الكف العربي والإسلامي منها انطلق حوار الأديان ، وهي التي منها تشع رسالتها الإسلامية للتعريف بديننا الحق ، وتخبر الدنيا بشموخ الإسلام ومعناه.

أما دبي فهي ألق الحاضر ، وزهو النعم ، دبي يا عزيزتي هي كوكب دري، عمان وهبتها إحدى حورياتها الساميات فلبست حلتها وزهت، دبي أنثى استقطبت الحضارة ، استقطبت الجمالدبي النخيل والبحر، دبي الأصالة ، دبي وآه كم هي جميلة عيون دبي.

أردن النشامى ، ودبي آل مكتوم ، الأولى شجرة الحياة والثانية غصن مضيء فيه، تلك الحورية التي تسطع في أرض دبي كقمر حين اكتمالهي أميرة الجمال ابنة باني نهضة الأردن الحديث هي الفارسة الهاشمية وغزالة الجميلات التي تتألق تيها بدبي ، هي رسولة عمان المبشرة بالحب والإخاءلم تتألق لأنها بدبي، ولكن لأنها ابنة الحسين فدبي بها تزدان.

أرأيت القمر بلا ليل فهل من قيمة له ؟ فدبي قمر وعيون هيا ليلهلذا دبي تحمل رائحة عمان، تحمل أريج الأردن لتبلغ العالم معنى الجمال .

من نافذة الغرفة نطل على بحيرة خالد ، نرى انعكاس الضوء على الماء فتتوالى القصائد في المخيلة ،أحاول ترجمتها إلى كلمات فتتبعثر الحروف أمامي ، أململها لأخطها فوق الورق ، فتعلن رحيلها عني ، أي كلمات تليق بهذا السنا ، وهذا الجمال ، تناديني حناني وهي تقف إلى جانبي ، تناديني ، تهز كتفي ، أنتبه إليها ، وتسألني إلى أين وصلت أيها اللوتس (محمد) ؟

- لم أغادر ذلك البحر وتلك الأنوار ، إنها القصيدة التي أحاول كتابتها.

-وما الذي يمنعك عن ذلك ، تسألني حنان .

- الكلمات أعلنت عصيانها ، الحروف تمردت ، وآه آه من تمرد الحرف ، وآآآه من قسوة الكلمة إن استعصت على صاحبها.

- وتعود حنان بألق سؤالها : وكيف تستعصي الكلمات عليك ؟ وكيف تتوهالعبارات على شفاهك ؟

- لا أدري ولكن أريج محبوبتي ، وهذا الألق الذي أراه يفوقان الوصف .

تشدني روعة المنظر الذي يقابلني فأطلب من رفيقتي ومضيفتي أن ترتدي ملابسها بسرعة لنذهب لتلك البحيرة ، لنمتع ناظرينا بذلك الجمال البهي ، لنقف عند تلك النافورة.

أسابق أنفاسي ،عفواً بل أسابق بصري لأصل إلى هناك ، لأبلل القلب بذلك الجمال ، لأعطر القلب بتلك اللوحة المزهرة ، أين أوروبا ؟ أين الحضارات أمام هذا الجمال وهذه الروعة ؟

نقف هناك ، بالقرب من النافورة ، بالقرب من بحيرة خالد ، وكلما اقتربت منها زادت جمالا ، زاد خفقان القلب ، وزاد تجلي السحر.

- أي أنثى هي الشارقة أسأل الحنان ؟

- فتقول :هي أنثى البحر ، هي جوهرة الصحراء العربية هي التي تعلمت من البحر العطاء ، عفواً من علمت البحر العطاء والحب.

يشدك سمو المباني التي تحيط بالبحيرة ، تحاول الذهاب إليها ، بل يقودك القلب والفضول لزيارتها ولكن الوقت قد تأخر، فربما لا تجد ما تريد في هذا الوقت المتأخر . نسمات باردة تعيدني إلى عمان بنسيم صيفها وربيعها ، أشعر بالنعاس يداعب جفوني ، هيا أيتها الحنان الساعة تقارب الحادية عشرة، هيا فالحلم يناديني على أن تكون زيارتنا الصباحية للبحيرة وما يحيط خصرها النحيل . اعتذرت بقولها: في الصباح سأستيقظ مبكرا لأذهب لعملي، أما بعد الظهر فلك .

عدنا إلى الفندق دخلت الياسمينة الفرعونية غرفتها ودخلت غرفتي ، أنظر من النافذة ، يسحرني المشهد ، ونفسي الملعونة تراودني بالذهاب إلى حجرة الملاك النائم ، عساني أتأمله ،عساني أكون ضيف حلمه كما أنا ضيفه في الواقع ، صوت أمي يناديني ، أيها الملعون اهدأ ما هكذا ربيتك ، ولا هذا ما أرضعتك ، أماه ليتك تقتليني فتقتلي هذا الذي كبر بداخلي ، أماه أعيديني طفلاً ، آيات أمي تنتصر على شيطاني ، تأخذني إلى آيات الشارقة ، أنتظر الصباح أرفع سماعة الهاتف ، لا أدري هل أكلم ملاكي،

لا فهذا إزعاج واضح، ونية سيئة ، ويأتيني الرد من الاستعلامات، فأطلب الشاي والقهوة، يضحك موظف الاستعلامات أو هكذا شعرت، أتأمل نافذتي، أتأمل تلك الألوان الزاهية ، الباب يطرق، الموظف أحضر ما طلبت، أسكب فنجانا من القهوة ،وأخرج من غرفتي ، أهبط السلم ، أعد أدراجه ، فقط لأطرد هذا الشيطان الذي لم تنجح كل استعاذاتي بطرده .

يااااه لست وحدي من أتواجد في صالة استقبال الفندق، فكثيرون هم الذين يجلسون هنا ولكن هل فيهم من هو مثلي ؟هل فيهم من أتى الليل فقط ليحرمه من ملاكه؟ هل فيهم من أذابته الإمارات سحرا ونشوة؟ هل فيهم وهل فيهم ؟ وأذهب إلى هناك إلى الركن البعيد ، أتناول الصحيفة التي وجدت على الطاولة أقلب عناوينها ، الصفحة الرئيسة عنوانها الأميز : يحمل خبر زيارة الملك عبد الله للإمارات.

أقضي بعض الوقت في الصالة ، أخرج إلى بوابة الفندق الرئيسية ، يا إلهي ما زالت الحركة مستمرة ، من أين يأتي الناس وإلى أين يذهبون ؟ أصعد إلى غرفتي بعد أن تأكدت من نوم شيطاني الذي أثقلت كاهله القهوة المرة ، وأجبرته على النوم ، لأن شيطاني أبداً لا يطيق المرار.

أصحو من نومي في حوالي العاشرة صباحاً ، أغتسل، أتعطر، أرفع

سماعة الهاتف لأتصل بتلك الحنان ، لتشاركني الإفطار ، لا أحد يجيب على الهاتف ، أخرج من غرفتي ، وما أن فتحت باب الغرفة حتى عثرت على ورقة وضعت تحت الباب وطويت بعناية ، أفتحها،أخي محمد، أدرك مقدار المشقة التي تحملتها بالأمس ، تركتك ترتاح لحين عودتي من عمليحيث نخرج لتشاهد الشارقة في وضح النهار ، أشعر بغصة ، أغلق الباب وأخرج للتسكع في الشارع ، أوقفت تكسي أجرة ، وكان سائقها آسيوياً أيضاً طلبت منه إيصالي لجامعة الشارقة،أطلب الحنان على الهاتف وبلهجة تحمل في ثناياها بعض الغضب أخبرها أني على بوابة المدينة الجامعية ،وبشيء من الاستغراب تسألني كيف وصلت ؟

أجيبها : من أراد الوصول لشيء يصله دون أن يمنعه شيء.

- انتظرني لحظات .

- حسنا .

بدأ شيطاني بالتحرك ، سأسير مع غزالة الشارقة في الجامعة ، آه كم سأتلقى من نظرات الحسد ، آه يا سمو الروح ، أسرعي بخطوك نحوي ،أقاتل هذا الذي يسكنني ، أنادي على أمي ، علها تسمعني فتريحني بكلماتها ، آه الغزالة قادمة ، أي نور يطل علي ، أي ملاك هذا القادم نحوي ، هيا أيتها الرائعة أسرعي بخطاك، الشوق لرؤية ما تحمله عيناك

من أحلام يقتلني ،أسرعي ، يتحرك بداخلي شيطاني ، الآن سأصافح العذراء الطاهرة ، الآن سأصافح عيون الليل ، الأن سأصافح النيل ، وبحيرة ناصر .

تصلني .

- إزيك محمد .

وتطير الذاكرة وتتداعي الصور ، فاطمة ترتسم الآن أمامي بكامل أناقتها ،ضحكات سحر ، دلع الشقية عبير ، تمايل أم سليمان ،أنتفض ، ما الذي قاد الحسان إلى هنا ؟ حنان تشبه من منالغزالات التي استطعت أن أروضهن ، صوتها يشبه سمفونية من من تلك الملائكة ؟ لا أدري ، لكني أنتفض على وقع كلماتها "اللي واخد عقلك"، أحدث نفسي حنان: حقا أنا في الشارقة من الأمس أم أني في القاهرة ، أم هو الجنون عاد ليسكنني.

حاولت أن أمد يدي لمصافحتها ، ولكني ترددت في ذلك ، سارت لجانبي ، وأنا أردد مقطعاً لسيدة الغناء العربي يقول : "واثق الخطوة يمشي ملكا ظالم الحسن شهي الكبرياء".

لا أدري كيف تطوى المسافة ، كيف وصلنا ؟ حنان ترتل آياتها عن الجامعة ، وتتحدث عن سحر الشارقة ،وأنا فقط إما ناظرا إلى عيونها

التي كنت أسمعها تغني ، أو أتمعن بتمايل جسدها ، آه منها إنها كنخلة تسير ، أي تمايل هذا ؟ أين الغزلان تتعلم منها الدلال وسحر الخطى؟

ندلف إلى مقر عملها ، تأخذني للإدارة أولاً تعرفني إلى مديرتها ، وأنا لا أرى إلا حنان فقط أسمع أسماء تردد على تلك الشفاه الندية ،عقلي ليس معي الآن ، اللسان تصلب ، هل أنا في حضانة للأطفال أم في كلية للفنون الجميلة ؟ وكيف تكون غزالتي هنا ، ولا تتزين كل الأمكنة للقائها.

تدعونا مديرة المركز الوطني للطفولة لتناول الشاي أو القهوة ، فأرفض ذلك ليس لأني أرغب الرفض ، ولكن لكي أبقى مع أنيسة غربتي ، ونحن نخرج من مكتب الإدارة تلفت انتباهي تلك البيضاء ،أردنيتها سطرت على جبينها ، ورأيت عمان تسطع من عينيها ، ولا أدري كيف نطق اللسان ، حنان من تلك الفاتنة ، أعتقد أنها أردنية ، قالت يالك من مجنون وكيف عرفت ؟ هي فعلاً أردنية ، جمال الأردن يسطع من عينيها وحياء الأردنيات واضحاً من مسيرها ، هل لي أن أتعرف عليها؟

تقترب منا تلك النشمية الرائعة ، تعرفها حنان بي بقولها : محمد قادم من الأردنليتعرف على الشارقة .

أهلاً وسهلاًمحمد.

يا إلهي ما أجمل اسمي ، فاتنتان يرددنه بلحظات ، فمن حنان، إلى تلك الصبا ، تلك الأردنية البهية .

تأخذنا حنان إلى مكتبها ، تدعونا لشرب شيء ، فأطلب قهوتي وأشعل سيجارتي اللذيذة.

ألا تمل من شرب القهوة ،آه إنها لا تدري سر تعلقي بها ، أردد في نفسي: لو ابتعدت عما أنعم الله علي به لما انتصرت على ما يسكنني ، أحتار إلى أيهن أنظر إلى

الأردنية ، أخت الجنون ، أم إلى الفرعونية ، إن نظرت للأولى حضرت عمان بكل بهائها وطهرها لتنير أرض الشارقة في عيوني؛ لأن التراب هنا يشبه التراب هناك وكل المخلوقات منها خلقت ، وإن نظرت في عيون الساحرة الأخرى حضرت مصر بكل شموخها وعراقتها ، تلفت انتباهي ، حنان إلى ممنوعية التدخين؛ لأسباب عدة ، منها أن الطفل مقلد بارع للكبار ولا يريدون أن تقلد عادتنا السيئة هذه ،وثانيا الأثار السلبية التي يتركها الدخان على مستنشقه.

أعاود النظر إلى حنان فتعود فاطمة بحزنها البهي، وتتألق من جديد في الذاكرة أم سليمان ، تلك الأميرة المصرية ، التي ما أن عدت لعمان حتى بنيت لها محرابا في القلب ، وفي البوم صوري ،أعود إليه كلما اشتد بي

الحنين للطهر.

أضطر لأن أبقى نظري إلى الطاولة لئلا أعود لعمان التي تراودني بين اللحظة والأخرى ، ولا أريد أن أوقظ ذكريات مصر الحبيبة لكي لا أحترق بجمر الدموع والذكريات.

تعاود صبا حديثها ، عفوا تغريدها ، أنظر إليها ، أي صفاء يعلو وجهها الوضاء ويأتي الرد من داخلي ، إنها عمان ، ونور عمان الذي يعلو جبينها.

نحتسي قهوتنا ونخرج ، عفواً قبل هذا ذهبت حنان وصبا إلى الإدارة وطلبن الأذن بالمغادرة؛ لكي يعرفنني بالشارقة، وخصوصاً أن ذوي حنان الذين يستضيفونني يقيمون في عجمان،ووقت زيارتي لهذه الإمارة قصير، نخرج من مبنى مركز الطفولة البهي بكل ما فيه ، الملائكة الصغار والحوريات المربيات ، إلى ساحات الجامعة ، عفوا إلى واحات الجامعة حيث تنتشر الكليات ، الطب ، وطب الأسنان ، والعديد من مباني الكليات المتشابهة ، في واحات الجامعة الخضراء تجد الغزلان تسرح على مهل تتمايل ويفوح العطر من كل الجهات ، هناك العديد من الجنسيات ، الفلسطينية الأصل الأردنية الجنسية والأردنية واليمنية ، وهكذا بعض الخليجيات من عُمان والبحرين ، سحرني المنظر الرائع إلى أين أتجه يا ربي بنظري ؟ إلى تلك الغزلان المتنوعة

المنابت والألوان أم للملائكة التي تمشي لجواري ، ليتني أزرع في إحدى هذه الساحات نخلة تستظل بظلي الحسان ، أشتم شذاهن وألقي بتمري وظلي عليهن .

ليتني أزرع نخلة هنا فتأتيني الجميلات يهززن جذعي فأتساقط عليهن حبا ونبضا حيا ، ليتني أزرع نخلة هنا تأتيني محبة تحفر اسمها على ساقي وتروي جذوري بدموع حبها وتحكي لي حكاية عشق مضى بأحلامه وارتحل .

ويعود صوت الأردنية ليخطفني كالعادة من أحلامي ليعيدني لواقعي ، ليذكرني بأني أسير مع الملائكة ، وبابتسامتها الرقيقة تقول: إلى أين وصلت؟من هز أوراقك ؟ أي ريح هبت عليك فأبعدت عطر اللوتس عنا ، يا الهي إنها شاعرية الأردنيين ، إنها حلاوة كلامهم ، أعود لعمان بذاكرتي ، واستذكر الجمال والحسان ، وأن كلام الأردنيين ما كان إلا شعراً ، لتعود الفرعونية التي عشقت الشارقة لتقول لي انسى كل شيء أنت في الشارقة، لا ترحل إلى الذاكرة ، فذاكرتك المثقوبة هنا تمطر ، فعمان إلى يمينك ، والقاهرة إلى شمالك وأنت في قلب الشارقة فابتسم من فضلك .

كيف ينقضي الوقت ، كيف تمر اللحظات مسرعة ، ألف سؤال يتأتى،

لماذا لا يتوقف الزمن في لحظات الفرح ؟نتجول في الساحات وأنا أشعل سيجارة تلو الأخرى ، ليس من طريقة لتغيب شيطاني إلا بالدخان ليلهو به.

نخرج من المدينة الجامعية ،إلى أين تود الذهاب محمد عفوا لوتس ، ابتسم وأجيب : إلى بحيرة خالد ثانية ،أتأملها ،أراها نهاراً .

لترتسم لوحتها في الذاكرة كنت أود أن نذهب إلى هناك سيراً على الأقدام ، ولكن المسافة كما قيل لي بأنها بعيدة ، أوقفنا آسيويا وطلبنا منه أن يوصلنا إلى هناك ، إلي البحيرة الرائعة ، ذات الجمال الأخاذ .

كنت كعادتي لا أنظر أمامي ، وكيف أنظر إلى الأمام ، ولماذا أنظر للأمام، هل جننت ؟ إن نظرت أمامي ضاعت مني القاهرة وغادرتني عمان ، وفقدت لحظة غالية أتأمل فيها وجوه الحسان ، آه لو كنت الأن في أوروبا وكن معي لرفضت أن أجلس لجانب هذا الآسيوي ، أظنه هنديا ، للرائحة التي تفوح منه ، آه لو كنت السائق لرفضت التوقف إلا في عمان، ومن خلال أطول الطرق وأبعدها ، كيف لا ؟ من يعرف حنان ويتركها بسهولة ، من يعرف حنان ولا يعشق النساء لأجلها ، من يتعرف إلى صبا ذات الألق الأردني الواضح ، ذات الخدود الشفافة ، يا إلهي أتأمل وجهها ، أكاد أن أعد الشرايين الدقيقة التي تزوده بالجمال

والأنوثة ، آه لو سمحت لي بالاقتراب أكثر منها لأرسم تلك الشرايين أو أسرقها ، فاتنة إذاماابتسمت ، أنثى إذا ما تكلمت ، آه لو كنت ذلك المحبس الذي يطوق بنصرها الأيمن ، آه لو كنت ذلك العقد الذي يتدلى من جيد الأميرة المصرية ، آه لو تعلمون أن حنان لم يكن لها نصيب من اسمها وإنما أخذت كامل المعنى منه فهي كتلة من الحنان .

أكثر ما يلفت انتباهك ببحيرة خالد إنها أحاطت نفسها بالجمال ولفت خصرها بالمباني التي أقل ما يقال فيها أنها آية من آيات الجمال .

ندلف إلى السوق الإسلامي الذي بني على الطراز الإسلامي الحديث ، نسير في ممراته ، ندخل إلى قسم الملابس فيه ، نسأل عن اللباس الأردني أوالفلسطيني ، ولكن للأسف غير متوفر ، أنظر إلى صبا وإلى حنان لماذا تراثنا أو زينا التقليدي غير متوفر هنا بالرغم أننا من الجاليات الكبيرة في الإمارات ؟

ألا تقام المعارض هنا ؟ألا تقام الأسابيع الثقافية العربية ؟ لتعرف بإرثها ، تبتسم الصبا وتأسرني ،توجه بسؤالك للسفارات العربية .

وأكدت حنان على ضرورة التوجه بالسؤال للسفارة ، وأعلم إجابتها ،هذا أمر متروك للثقافة والقائمين عليها، نخرج من هناك بعد أن قتل الحلم الأول .

كان بودي أن ألبس حنان الزي الأردني ، وألبس الصبا الزي المصري ، ولحسن حظي أن أمي بعثت بثوبها البدوي هدية لحنان ، ولم يكن لدي أي فكرة عن وجود مثل هذه الصبا هنا ، نتابع سيرنا في السوق حيث الفخاريات ،والمناظر الجميلة التي شكلت بها .

نخرج من السوق بعد أن متعنا العين بشيء من جمال الشارقة إلى سوق الذهب أو ما يسمى بالأردن سوق الصاغة لنخرج من هذا السوق المهيب إلى الشوارع.

نتصل بإحدى الشركات ونطلب منها سيارة أجرة ، يطلب منا عنوان تواجدنا ورقم هاتفنا ، لحظات وتصل التكسي ، يا إلهي : لماذا مجبر أنا أن أبتعد في هذا اللحظات عن الفاتنة الأردنية ونبع ال حنان ؟لم لا أجلس بينهن ؟لم لا أشتم عطر أنفاسهن ؟ أطلب من الآسيوي أن يوصلنا إلى عجمان ،وتحديداً إلى شارع الكويت .

يا ربي لمَ يكتب عليّ أن يفصل بيني وبين الزهر هذا المقعد ، ولكن لا بأس فهناك نعمة أنعم الله بها علينا ، ألا وهي أنك تستطيع أن تنظر إلى كل الجهات بفضل حرية حركة العنق، الطريق مزدحم بالمركبات ، لا تستطيع أن تشاهد الأرصفة ، فقط كل ما تستطيع أن تراه هؤلاء المستعمرين من شرق آسيا .

أطلب منهن فقط إن وصلنا إلى المكان أن تهمس إحداهن بأننا وصلنا ، تحاول صبا أن تتفلت من الذهاب معنا فترفض حنان ، وكذلك أنا أصر على مرافقة رائحة الأردن لي إلى البيت الفرعوني ، إلى الأهل في عجمان، وتوافق أخيراً ، ساعة من الزمن مرت ، لم أشاهد فيها شيئاً أمامي ولا يهمني إلا هذه الورود التي نبتت في المقعد الخلفي ، التفت يميناً ويساراً ، فهناك بعض الغزلان تسرح فوق الأرصفة ، وهناك بعض الآسيويين يتجولون أو يسيرون في الشوارع .

ونصل إلى شارع الكويت ، وتهمس حنان هناك نقف ، وأطلب من السائق التوقف ، لأسير مع الورود الأمتار الباقية قبل أن ندخل إلى حيث الشوق العارم ، إلى حيث الأهل الذين رغبت بلقائهم ، إلى هناك، وأسأل النفس ، كيف سأتعامل معهم ؟أي شيء يسكنني الآن، كيف سيكون حالي ؟ دع كل الأسئلة الآن وكن طبيعياً أيها المجنون ، فمعك حنان وصبا ، وبانتظارك ست الحبايب الأم التي لم تنجبك .

ولكنك رضعت من دعواتها ، لتمت أيها الشطان الملعون ، فلا مكان لوجودك الأن أبداً ، لتمت ولو مؤقتا ، لأننا ندخل بيتا من بيوت عباد الله الصالحين ، ندخل إلى الدفء والحب البريء ، أسير على مهل وتسبقني خليلة الروح تلك النخلة التي تربت على ما جادت به أرض

التاريخ من نبل أخلاق ورقة مشاعر ، ويجلدني سؤال مفاجئ ، ماهي مشاعرك اتجاه الحنان ؟

يجلدني السؤال فيرتجف القلب وترتعش المشاعر إلى جانبي تسير الصبا ، أنظر إليها ، الله ، وهل أصبحت الملائكة تمشي على الأرض ،هل ضاقت السماء بالملائكة فتحولوا بشراً يسيرون ، ندخل إلى البيت ، الابتسامة تعلو شفاه صبا ، تعانق أم بسام وددت لو كنت أنا صبا أو كنت بسام أو أحمد ، لأعانق هذه المربية الفاضلة ، هذا الملاك الرابض هنا يربي أجيالاً ويعلمها ، ندخل ، ولا أدري كيف خرجت مني السلام عليكم ، كان يرددها قلبي، بالتأكيد لم يقلها لساني وإنما نطقتها روحي ، السلام عليكم لم أعتد على نطقها ،أهلاً يابني ، أهلا بالغالي ، وأخيراً رأيتك .

كلمات أبكت القلب فرحاً ، جعلت الروح تطير عائدة إلى عمان ، إنها أمي ، ونفس الكلمات ؟ آه أمي ، ما بك محمد تقول حنان ، اليد ترتعش شوقاً للأم الأكبر ، الشوق يزداد لعمان ، ولكن الجمال هنا يأسر ، لابل يسرق الألباب ، الجمال من كل جوانبه ، جمال التعامل ، رقة المعشر ، طبيعة المنطقة ، أبداً لا تشعر بحرارة الجو، لا تشعر إلا أنك بواحدة من واحات عمان ، أو بجزء من أردنك الغالي ، ما يخفف نار الشوق أن

بمعيتي أردنية ، وأن مضيفتي قد أحبت الأردن .

قليل من الوقت وتحضر حنان القهوة ، وعندما قدمتها قالت :هذا فنجانك محمد

- لماذا ؟

-لأنه من غير سكر ، سادة كما تقولون في الأردن.

أتناول فنجاني ، وكذلك صبا ، تذهلني كلمات الأم أهلا بيك محمد ، كيف أرد عليها ؟ وبأي الكلام أعبر لها عما يكتنفني من سعادة ، قليل من الوقت ويحضر لا أدري إن كان غداء أم عشاء ولكني أنظر إلى الطاولة وما احتشد عليها من أطباق ، الله رائحة الطعام شهية .

صينية الدجاج بالبطاطا، المعكرونة ،الكفتة و السلطات، ياه كل هذا ؟ لماذا ؟ تبدأ حنان بكلماتها (إبسط يا عم ياريتك كل يوم هنا علشان أم أحمد تعمل كل دا ، علشان خاطري تبقى كل يوم) أنظر إليها وأبتسم تطربني كلمات السيدة الرائعة أم أحمد (يا بني ما تسمعش كلامها ، دي بتتكلم وما تاكلش معتمدة المطبخ قدامها أما أنت لو سمعتها مش هتاكل) ولا أدري كيف انطلقت ضحكتي ، ضحكت بعفوية ، حيث أن صبا نظرت إلي باستغراب ، خجلت من نفسي ، كيف يصدر مني هذا ؟

تناولنا ما أعد لنا من طعام ، بحق لم أشبع ، للذة الطعام المقدم أولاً ، ولشدة خجلي من الضحكة التي خرجت بلا إرادة مني لتدوي في المكان ، ذبت في ثيابي ، وكنت أتمنى لو انشقت الأرضوابتلعتني ، كوب من العصير نتناوله بعد وجبة غنية بكل الأشياء ، من قيمتها الغذائية وحتى الفرح والسعادة التي أحاطت بنا نتيجة اللقاء الطيب الذي قوبلنا به من السيدة الفاضلة والأم الحنونغابت حنان قليلاً وعادت بمفاتيح السيارة من أخيها أحمد.

أتناول المفاتيح منها ، تدخل مع الأم الرؤوم لاستبدال الملابس ،وتبقى معيصبا الأردنية الرائعة ، وتقول بصوتها الناعم : أرجوك ألا تسرع ، فالليل هنا جميل ، ونحن سنخرج لنستمتع بالجو والمكان ، آنستي ، لن أسرع هل تعلمين لماذا ؟

لا .

- لأني لا أعرف الطريق وبحاجة لمن يوجهني.

حسنا ، وحمداً لله إنك لا تعرف الطريق ، فأنا أعرف جنون الأردنيين بالسرعة وعشقهم لها،حسناً لك هذا يا صبا، وأقطع بقية الكلمات التي أعلنها القلب وحبستها على اللسانكان القلب يغني لصبا هذه الفاتنة ، والتي أحسد المحبس الذي يطوق بنصرها ، ليتني كنت هو.

نصعد إلى السيارة التويوتا البرتقالية اللون ،وقبل أن أدير المحرك ، تطلب مني الرائعة السيدة أم أحمد أن أبسمل،فألبي ذلك ، وما أن تحركت السيارة بنا حتى راحت تدعو بدعاء السفر و بالصدفة أدير التسجيل وإذا بفنان العرب يصدح:" جتتاخذرسايلها ، خصلة من جدايلها وتدييني جواباتي".

نتكل على الله وتبدى الغزالة المسماة كامري بالتمايل على الطريق ، لا أدري أهذا هو حنان الإطارات على الطريق ،أم إنه الخوف من المجهول؟

حنان وصبا تتحدثان بصوت خافت، أنظر إليهن ، إلى حنان التي أسرت الروح ، و حنان المذهلة بكل ما فيها ، ضحكتها التي نادراً ما تزيد عن ابتسامة وإن زادت فهي الموسيقى ، وصبا التي لا أدري لمَ تغطي فمها بحرير يدها إن ما أرادت الضحك.

فضحكتها صامتة ،أتخشى أن تظهر اللآلئ في بحر فمها ، أم تخشى أن تفتح عناب شفتيها فتحسد ، ولم لا ، فيكفي أني معها ، لتخفي كل معالم جمالها ورقتها ، ولا تدري بأن عيوني تخترق كل الأشياء إن خفق القلب ، أو تململت فيه الروح ،عيونه تخترق الصخر ، فلتخفي ما شاءت صبا ، أو حنان ، فكل الأشياء لدي مكشوفة ، يتحرك شيطاني بداخلي وأنا

أطلب من الغزالتين أن تتحدثا بصوت مسموع أو فلتصمتا وتوافقني الفرعونية الكبيرة ، سيدة النيل ، وأميرة أسيوط أم أحمد.

نستلم طريق عجمان الشارقة ولا أدري كيف داست قدمي على مزود السرعة ويدي تحركت على مبدل السرعة، وبدت الغزالة جائعة فراحت تلتهم الطريق ، وبصوتها الحنون تقول صبا : ما هذا الذي اتفقنا عليه ، وتريد عليها حنان " يا جبانة " العمر واحد والرب واحد " فتقول صبا : لا أريد أن أموت هنا ، أفضل الموت في الأردن ولا غير الأردن " تصعقني كلماتها ، تبهج القلب والروح ، أنظر إلى أم احمد التي تحاول إخفاء ملامح خوفها ومع ذلك تقول العجلة من الشيطان يا بنيي

نصل إلى حيث هناك ، حيث مدينة الملاهي أو الحدائق ، فيحرك ازدحام الوجوه التي غابت عنها ملامح التعب ، الكل يبتسم ، لا تدري أتلك الغزالات التي تجوب الحديقة أو ترسل بنفسها للألعاب فتحتار إلى أيهما تنظر ، وجوه مختلفة وألسنة مختلفة.

ولكن اللافت تمايل الحور في ذلك القطار ، وصراخ البعض الذي يخترق سمعي كموسيقى عذبة أبدا لا تمل سماعها ، قررنا الصعود إلى القطار ، وكانت حنان برفقة معلمة حنان وكان لي أردنيتي ، آه كم كان مقدار فرحي ، أتدري صبا أني أتغنى باسمها الشفاف ، لا أناديها إلا

لأغني اسمها ، كلما مالت العربة، أحاول الاقتراب منها ، أحاول الوصول إلى دواخل صبا ، أتحسر لأن حنان قد ابتعدت عني .

ولكن صوت صراخها يكفيني ، ويرسل بروحي إليها ، أي حياة هذه ، أي ألق يعيشون به ، لم أعرف قبل ذلك اليوم أن للنساء نشوتهن التي تذهب بالألباب ، لم أعرف قبل تلك الرحلة أن للنساء نخبهن الذي يجعلنا نحن أبناء آدم سكارى وما نحن بسكارى ،أي خدر قد أصاب الجسد ، وأي كسل أطاح بالذاكرة، شموع القلب تشتعل ، وقريني استيقظ فجأة لا قهوة الآن ، تخدرني بها،أنا الآن مسيطر على ملامحك ، لو نظرت صبا لعينيك ستجدني وتعرف ما يدور بداخلك، أستعيذ بكل الأشياء من شره ، ومن شر نفسي ، ما أراحني قليلاً هو هذه الجموع التي تحتشد في الحديقة،آه ما الذي يدور بداخلي ، ما الذي أيقظك أيها الملعون ، الرقة والأنوثة توقظاني لو كنت ميتاً ، وما من معنى للأنوثة أكثر من أنثى الربيع التي لجانبك، حمداً لله أن حنان قد ابتعدت في هذه اللحظات .

نهبط من عربات القطار، ننظر لبعضنا ، نسير بين الورود بينما جلست الرائعة أم أحمد هناك على أحد المقاعد ، نلتقط الصور ، يا إلهي والله لو ختم العمر الآن لا أبالي ، لأني بالتأكيد سأغسل بأرق وأطهر دموع،

دموع حنان ، وصبا ، والمباركة عميدة الأمهات ، أم أحمد ، هل أجمل من هذا غسل في الدنيا نتسلى بالمكسرات، وشيء من (الترمس) نضحك ، أستحلف صبا بعزة الأردن أن لا تضع يدها على فمها وهي تضحك ، تسقط دمعة حرى من عينها ، أستذكر بيتاً من الشعر يقول :

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

- ما الذي يبكيك أيتها صبا؟

- لا شيء.

نتابع سيرنا ، نقطف بعض الوردات فيركض إلينا آسيويا ، لا أدري من أين خرج ،هل انشقت الأرض عنه ، من أين أتى ، هذا الورد وجدت للزينة وليستمتع به الجميع ، ولم يزرع لتقطفه أيديكم ، أبهرتني كلماته ، تلعثمت وأنا أحاول الرد عليه ، يا إلهي ما أروع ما قال ، الورد وجد للزينة ، يتمتع به الجميع وليس لأشخاص محددين ، أين نحن من هذه الكلمات ، نحن نزرع الزهر لنقطفه ، وندوسه ، هم يزرعون الزهر ليتألق المكان ، هل هذه كلمات الآسيوي أم هي تعليمات حاكم إمارة الشارقة ، هل تقطف الزهور في الجنة .

ما بك محمد؟

- لا لا شيء .

أذهلني الآسيوي هذا ، نتابع سيرنا بين الورود ، نعود حيث كنا ، حيث البدر يجلس هناك ، سهم الله نزل على صبا ، ولاذت ببهاء الصمت ، نعود إلى أم أحمد ،التي ترد مساءنا بكلمات سكنت القلب والروح ، (ربنا يهنيكم يا ولاد، ربنا يسعدكم ويا خد بيدكم ويبارك فيكم) الله أي روح تستطيع احتمال هذا الفرح ،لا أبالغ إن قلت بأني نسيت عمان في تلك اللحظات ، ربما ليس بمعنى النسيان فكلمات الرائعة "أم أحمد " شنجت القلب ودعاؤها أطلق الروح من أسر المكان وقيود الحوريات إلى عالم جميل، عالم مختلف بكل ما فيه، عالم يملؤه الحب ، وزاد على هذا العالم وجود الرائعة حنان بروحها الطاهرة الشفافة ، وصبا بابتسامتها المختفية خلف كفها ، وفجأة يسكنني السؤال ما الذي أبكى صبا عندما طلبت منها أن لا تخفي ابتسامتها ؟ أحاول سؤالها وأتردد . أخيراً تنطق حنان وتتوقف عن تناول (الترمس)، وتقترح أن نذهب إلى الكورنيش.. فأوافق ويوافق الجميع ، نستقل الكامري ، وتبسمل أم أحمد وتدعو الإله أن يحفظنا ، وتبدأ التويوتا تمايلها فوق الطريق الناعم والذي تضفي الأنوار عليه جمالاً إضافياً ، سرنا ما يقارب النصف ساعة ، واحترنا أين نوقف سيارتنا، أوقفتها ولم أكن أدري بأن ذلك المكان ممنوع ، نسير على الكورنيش، يدفعني قريني لأن أسير بين حنان والصبا، لا أقاومه في هذه المرة ، أسير بينهن ، تندفع يدي باتجاههن

ولكني أوقفها في اللحظة الأخيرة ، الضحكات تنطلق ، آه لو ضحكت صبا ، آه لو صمتت حنان ، أي جمال هذا ، هل صحيح أنا في الشارقة أم في شوارع باريس الراقية ، قد أكون على ضفاف الراين أو الدانوب وأنا لا أدري ، من أين جاءت الصحراء بكل هذا الجمال ، من أين جاءت كل هذه الوجوه ، لا أدري ، المكان خلاب بأنواره ، بنخيله بشارعه المتسع والذي أتخيله يتحدى البشر .

آه حنان ، نسيت أن أسأل وجدت عبارة في الميدان تقول ابتسم أنت في الشارقة ، أعجبتني، بل أسعدتني ولكني لم أفهم المقصود بها .

وتبتسم حنان وتشاركها الابتسام تلك الصبا، التي أبحث عن السر الذي يسكن عينيها .

ما بك يا فرعونية أقولها مازحاً.

فترد : وهي تتابع ابتسامتها الأخاذة ، أنا في الشارقة لذلك ابتسم ؟أخفي سخطي ، حسناً ما المقصود بهذه الجملة ؟ لأن الشارقة مأخوذة من شروق الشمس وفي لحظات الشوق يكون الابتسام جميلاً ، ثانيا حاكم إمارة الشارقة يحب الابتسام دوماً ، ثالثا ودا الأهم مصدقاً لقوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:" ابتسامتك في وجه أخيك صدقة"، وبالفعل هذه الجملة تجبرك على الابتسام رغم ما تعانيه .

نتابع ضحكنا ، وأتجه بحديثي للسيدة أم أحمد ، لم لا تشاركينا الحديث ؟ أنا أستمع لكم وأستمتع بالمكان ، في حضرة هذا المكان الصمت ينطق شعراً ، آه إنها تقول شعراً رائعاً ، الصمت في حضرة المكان يقول شعراً، الله ما أروعها من جملة ، تنطلق من عقالها فتضيء الوجدان وتذهل اللسان ، تأخر الوقت، تقولها أم أحمد ونتهض من مكاننا ، نعود أدراجنا والفرحة تملأ القلب .

ياه مرت الأيام مسرعة ، بقي لإقامتي عشرة أيام ، يا لهذا القدر الذي يجعل لحظات الفرح ترحل سريعاً ، أياماًأربعة مرت ، لا أدري كيف مرت أو ركضت ، نصل إلى عجمان ، نهبط إلى فندق كورال بيتش ، تحاول الأم الرؤوم أم أحمد وتحاول حنان منعي من النزول في الفندق ولكني أصر على ذلك ، وأحجزغرفتي في الفندق، أوصلهم إلى البيت وأعود أدراجي .

الفرح يغمرني ،السعادة تحتل مساحات الروح ، في أي أرض الله أنا ، هل يعقل أني في الصحراء ، أو في بيئة بدوية ، أي مدنية هذه وأي إمارة هذه ؟ أي صروح قامت هنا ؟ أصل إلى الفندق ، أصعد إلى غرفتي ، أنظر من النافذة ، أشعر بأني أرى كل عجمان ، لحظات من الحزن تسكنني ، يعنفني قريني الذي لا يؤمن إلا بالجمال ، قريني الذي يعشق

اسم المرأة ، فما بالك إن كانت هذه المرأة تملك كل الجمال ،آه محمد لما تركت حنان ؟ ولما تبعد عن صبا ؟ يا لك من غبي، ولأنك قريني قررت أن أبتعد، ولأنك تلازمني قررت أن أكون هنا ، وإن استمرت وسوساتك سألغي رحلتي وأعود إلى ديرتي .

آه عمان ، أي مكان في الدنيا يساويك ، أي جمال مهما بلغ يطاولك ، يرد قريني: وصبا ، أجيبه : مسحت عليها يد عمان فكانت روعتها ورقتها ، وحنان ، فرعونية وارتبط الفراعنة بالأنباط لذا وللعلاقات الوطيدة التي كانت تربط الأنباط بالفراعنة قررت ربة عمون أن تهب النيل بعضا من جمالها، فكانت حوريات مصر الرائعات .

ويعاود ذلك الملعون ظهوره ، ولكن لمَ لم تمض الليلة برفقة الغزالات؟ سرت بينهن ، لمَ لم تمسك بأيديهن وتركض إلى البعيد ؟ إلى البحر لتكونا الثلاثة بحضن المحب الكبير، بحر العرب ، بحر الشعر ، لا تستعذ فهاهي عيون صبا قد حفرت على جدران القلب ، وهاهي ضحكة حنان تملأ مساحات الروح ، أيها الملعون فقط لو أرتاح منك ، كيف وقد سلطني الإله عليك ؟ ومن سلطك علي قادر أن ينصرني عليك ، متى يطل الصباح بنوره لأرى الصور التي التقطت ، لتكون الذاكرة التي لا تثقبها الأيام ، ولا يؤثر فيها الرحيل ، آه محمد لو سقطت في

ذلك اليم مع إناث الجنة ، لكنت في النعيم ، أيها الملعون ، لا أريد نعيمك ،لا أريد جنتك ، أينك أمي ، أين أنت أيتها المنقذة تخلصيني من هذا الرجيم الذي اثقل كاهلي؟

أنظر من هناك ، حيث المجهول ، أسأل بعضهم عن اسم ذلك المكان ، فيجيبني والابتسامة تعلو شفتيه ، يا إلهي الأضواء تتراقص على صفحات البحيرة الأنوار تتراقص في الشوارع وتتسرب من زجاج النوافذ ، أهي الشارقة ؟ أم هي النجوم هبطت من أعاليها ؟غزالات البادية وحورياتها تخطف القلوب ، كيف وحنان و صبا قد خطفتا القلب ، ونظرات المارين من هنا، أي جمال هذا ؟ أهذا هو الليل ؟ إذا كان هذا هو الليل فما تبقى للمسكين المسمى النهار ؟ أم ترى هذه هي لحظات مخاض النهار ؟ هنا وأنا برفقة حنان و صبا أعذر نفسي وأنا أتصرف ببيت الشعر(خير مكان في الدنى سرج عمان ، وخير جليس في الزمان عيون حنان).

شارقة الشمس أرض انتفضت على تقاليد الرمل ، فراحت تناطح السماء ببنائها وقد خطت على جبينها ابتسم أنت في الشارقة ، تجبرك الشارقة على أن تلوذ بصمتك ، تجبرك على أن تغني لهذه الأرض .

جدار بسيط في ذلك الفندق يفصل بين محمد الذي فقد نصف عقله في هذه الإمارة التي تعبق بالأريج والروعة ، الرائعة بكل ما فيها ، متاحفها ، قلاعها ، نخيلها ، ببحرها الذي يداعبك موجه وهو يغسل الرمل من أثر العابرين .

كيف نهضت ، كيف سارت في دروب الإبداع ؟ كيف ثارت مرة واحدة على التقاليد ؟وأغرق في بحر من النوم ،ويتجلى قريني في الحلم ، وتسطع حنان والصبا سيدتان للحلم أراهما في الحلم كما أحب أنا ، أرهما بعين قلبي ، أنظر بعيني صبا مرة، وأطالع تفاصيل حنان، أمازح هذه مرة ، وأهمس بأذن الأخرى بما يحمل القلب ، أستيقظ من نومي في العاشرة صباحاً، أغسل وجهي وأهبط إلى صالة الفندق لأنتظر حنان، أطلب قهوتي ، أشعل سيجارتي ، أخرج إلى الشارع ، أعود من جديد ،لمَ يمر الوقت ثقيلاً هكذا ؟

وفي حوالي العاشرة صباحاً تشرق شمس حنان ، ويهب نسيم صبا ونغادر باتجاه الشارقة ، مباشرة ذهبنا لبحيرة خالد ، جلسنا في الحديقة وفجأة أتجرأ لأقول صبا و حنان بأن هيا نحلم ونحن في شارقة الله.

وتسأل صبا: وبماذا يحلم محمد ؟

- أجيب : نحلم بأننا في شارع السلط بعمان الحبيبة ، والغيم يغطي وجه السماء الخالي من عيون عمان ، نحلم بالرعد والبرق ، نحلم بالثلج ، نترك أيدينا تتشابك ونركض نركض ،حد التعب ، نحضن حبات الثلج وعلى أرصفة الشارع ننام ، وأغني أنا ما قاله الشابي :

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام

كاللحن ، كالصباح الجديد

كالسماء الضحوك ، كالليلة القمراء ، كالورد ، كابتسام الوليد.

أهمس لحنان الساعة الرابعة عصرا يا.. ويتجمد اللسان قبل النطق بها ، آه محمد ، كانت من أسهل الكلمات على لسانك ، ما بك اليوم تتلعثم بها.

نظرت إلي (صبا) وقالت .:ألم تشعروا بالجوع ؟ أنا أحشائي تؤذن أن هيا إلى الطعام.

أبتسم وتبتسم (حنان)، إنا إلى هناك سائرون،ولكن يا(صبا) ماذا ستطعميننا اليوم؟

- أنا لا أعرف الطعام هنا.

- ماذا ترغب كل شيء متوفر ، أرغب بالمنسف.

على كل الأحوال عندما نصل المطعم بالتأكيد سنجد ما نطلب هذا ما

قالته صبا.

وصلنا إلى الصحارى مول وصعدنا إلى الطابق الثالث، دلفنا إلى المطعم، يا إلهي أهذا مطعم أم فندق من ذوي النجوم الخمس؟جلسنا إلى إحدى الطاولات وأظنها كانت تحمل الرقم 25يحضرمشرف الصالة ويسأل عن طلبنا ، وهنا أطلب من (حنان) أن تختار الوجبة فتختار الكباب مع بعض السلطاتوالصبا تختار الكفتة،وتأتي المقبلات ، لا أمد يدي إلى شيء مما أمامي وأكتفي بالنظر إلى تلك العيون التي أصابتني بسهامها فأصابت القلب ، وسبت الروح ، أتأمل ذلك البريق في عيون (حنان) وتشدوا في الذاكرة نجاة الصغيرة برائعتها" عيون القلب سهرانة ما بتنامشي" .

أتأمل حمرة الخجل التي تعلو تلك الوجنات عندما تلتقي العيون ، عندما تقرأ قصائد القلب والتي لم أنجح بكتابة حرف منها.

آه كم تشتهي يدي أن تحضن كفها الرقيق، آه كم أشتهي أن أحضن ذلك القلب الكبير لأرشف من حنانه حتى أثمل،آه كم أشتهي أن تتحول حنان لحرف في قصيدة أنقشها على الصدر وعلى كل مساحات الروح ، ما بك محمد، أين الجوع منك ؟ أم أن النظر للحبيب يقتل الجوع .تسأل صبا.

آه من الحب وسنيين الحب ،أنظر إليها بنظرات لا أعرف كيف خرجت، أشاحت بوجهها عني وهي تردد: في نظراتك كلام لا أحتمله ولا أستطيع قراءته ولكنه مخيف.

أتابع النظر في الطبق الموضوع أمامي ويتمنى أن أمد إليه يدي ، كيف لي أن أفضله على تلك الوجبة الرائعة التي أتناولها من عيون الدنيا ؟ ومن نبض الحياة ، هل أستبدل الذي هو خير بما هو أدنى .

قليل من الوقت ، بعد الغداء ، المكان متألق بطبيعته ، وأنغام الموسيقى تصدح من هناك من حيث لا أرى ، نطلب العصير الطبيعي ،أضع الكوب أمامي ، لا أقترب منه ، كيف لي أن أتناول عصيرا صنعته أيدي البشر وأفضله على رحيق العناب الذي صنعته يد الإله ويفوح بشذاه مع تلك الأنفاس التي تهبني الحياة ؟كيف لي أن أرتشف عصيراً صنعته أيدي آسيوي ؟ وأترك السفرجل هناك ، إنه هدية الرب لمحمد .

تخرجني الملعونة وتقتل قريني ، تذبح تلك القصائد التي أحاول حفظها وهي تقول : هيا بنا

- إلى أين ؟

- إلى تلك المتعة وذلك الجمال ، إلى قناة ال (قصباء).

عفوا نسيت، ونحن نتناول الطعام كانت الدموع تنفر من عيون (صبا)،

ولأول مرة أجرؤ على محادثتها مباشرة.

- ما بك صبا ، لم البكاء ؟ ولم تمطرين الدرر في هذا الوقت الذي تغمرني به السعادة.

- ترد: أسفة؛ ولكنها تجبرني على أن أطلق سراحها، فهي قصائد الحياة في أرض الاغتراب ، إنها قصائد الحنين لتلك الديار، إنه الاشتياق لربى عمان.

مزقتني كلماتها وأشعلت النيران بين أضلعي؛ لتنفر الدموع هذه المرة من قلبي قبل العيون ، أستذكر عمان ، واديها ،جبلها ، شوارعها ، حواريها ، من احتل أرصفتي ومكان جلوسي ؟ من ذا الذي مسح أثري عن تلك الأرصفة الأكثر حنانا من كل القلوب .

ونخرج من صحارى مول أتعثر بخطاي ، أحاول احتضان ذلك اللهيب في تلك العيون ، أحاول لملمة نفسي، وأتساءل إلى أين الآن؟

تبتسم صبا وقبل أن تتكلم ترد حنا: إلى قناة القصباء إلى روعة الطبيعة، إلى جمال المنظر ، إلى الدهشة، وتروح حنان بكلماتها النقية ، والتي تخترقني لتستقر في القلب والذهن : للعلم محمدأو تحب أن أناديك لوتس، قناة القصباء تصل الشارقة بدبي ، وفيها ما يشبه التلفريك ومن خلاله تشاهد كل الإمارات العربية المتحدة ، فيها القوارب الصغيرة

والموتسكلات البحرية ، أقول لها : لم أفهم ، فقط لتنطق اسمي مرة أخرى ، لتغنيه لأزداد عشقا لهذا الاسم.

آآآآآه ما أروع اللوتس حين تقطفه يد حنان ، وآآآآآآآآآآآآآآآه ما أجمل شذاه عندما يختلط بتلك الأنفاس الرائعة.

نصل إلى حيث القصباء ، لم تفها حنان حقها ، إنها آية من آيات الجمال ، إنها معجزة المال ونعمته.

آه من بهاء القناة وما فيها ، نصعد إلى العجلة أو عين الإمارات ، حقا أنت لست على أرض عربية ، حقا أنت في إحدى الدول المتقدمة ، من هو صاحب الفكرة ؟ومن هو المنفذ الذي سيخلده هذا الإعجاز العلمي هذه الآية؟في الشارقة آية الإعجاز ،ففي بحيرة خالد النافورة التي أحسبها الأجمل في العالم حيث تتناثر الأضواء من حولها ليلاً لتختلط بالماء وتنعكس على كل ما حولها ، وهنا في القصباء المناظر الساحرة ، حيث صفاء الماء وتلك اللوحات الجانبية والتي تحسبها لوحات إعلانية لواجهات المحلات، وإذا ما وصلتها وجدتها رسومات على الكرتون ،هنا الفن والإبداع في كل شيء ، ففي هذه القناة تقام المسابقات الثقافية والأنشطة المختلفة ، أي أناس هم هؤلاء ؟ وأي إبداع تخرجه أرض الخليج وتعلمه للعالم ؟ أي إمكانيات سخرت لهذا

الإنجاز؟

نستقل قاربنا ونسير في معجزة الشارقة ، في قصبائها نصل إلى تلك العجلة ، نصعد فيها نرى الإمارات ، وأنا لا أرى إلا ابتسامة حنان وبريق عيون صبا المثير ، هنا في القناة بعض القوارب قد خصصت لإقامة الندوات الثقافية وأمسيات الإبداع بكل مجالاته ، حقا لا مكان هنا إلا للإبداع .

نخرج من القصباء ونسير باتجاه حديقة المجاز ، تبهرني الورود التي كانت تنحني خجلاً إذا ما لمستها أيدي حنان والصبا.

وتنهش يدي بأشواكها إذا ما حاولت مداعبتها تنثر دمي، فامسحه بأرواقها لتبقى ذكراي ويفوح دمي مع شذاها.

أي الورود أقطفها لمعنى وجودي، أي الورود أقدمها لزهرة أينعت في صحراء الروح ؟

لا أدري كيف نطق شيطاني ، أؤكد شيطاني ولست أنا هيا نركض. يتحقق الحلم ، يدي تحتضن يد (حنان) تنادي (صبا) الناس من حولكم ،ليذهبوا للجحيم نردد ، هيا الحقي بنا ، توقفوا قليلاً ، تتشابك أيدينا الثلاثة ، أغار من يد (صبا) حين أمسكت بيد حناني ، ركضنا وركضنا حتى منتصف الحديقة ،حيث جلسنا على الأرض ورحنا

نتبادل النكات.

وهنا حاولت أن أضع يدي على فم (حنان) عندما أطلقت ضحكتها ، أتساءل كيف لهذا العالم أن يسمع أناشيد البلابل ؟ كيف وكيف؟ اشتاط القلب غضباً ، هيا بنا ، وهنا سيطرت علي حمى الشرقي ، حمى الأردني البدوي ، أحاول أن أخفف من وطأة احتراقي ، ألست من المنادين بالمساوة وهنا كل الأشياء تتساوى ، هذا حقها ، وأنت الأمين على حقوق الأخرين ،اصمت أيها الملعون ، كل هذه شعارات وكلمات تقال في المحاضرات وتسطر على الورق ولا تتعدى ذلك ، أحاول معاتبتها ، ولكن بأي حق أسأل الروح .

نعاود مسيرنا والشمس تلملم أشلاء أشعتها وتحاول الارتماء بحضن البحر للاغتسال وأن تستريح من عناء نهارها.

آه ما أجمل تلك الخيوط وهي تغتسل بزرقة الماء ،الشمس تودع شارقة الرب أتأملها وأردد: (وجمبي شموس بتسطع ،الورد يداعبها ، البحر يناديها ،لكنه قلبي الملعون، يسرقها من الدنيا ، وبجواته يخبيها، بشمالي تتعلق عذراء الجنة ويميني تحمل أنفاسك عمان حتى تحني ع الصحرا وتحييها) تشتعل مصابيح الشوارع ، وتلك المصابيح التي توزعت في حديقة المجاز ؛ لتنعكس على المجسمات الموجود فيها ، مجسم يمثل

نصف سفينة ، ومجسم أخر لحصن ، يا لها من روعة تتمتع بها الشارقة ، أيها العابر من هنا دع عنك كل شيء وانتظر ليل الشارقة ، انتظر إطلالة الجمال في الشارقة ليحس بك يومك ، وتتألق روحك ، أيها العابر من الشارقة لا يفتك التمختربشوارعها ، ولا تنس أن تتعمد ببحيرة خالد، وتمتع روحك بنافورتها وتسجل في سفر أيامك دخولك هذا المكان ، أيها العابر من هنا لا تنس أن تغرق روحك بالصهباء ، وتكتب بالمجاز قصائدك ، أيها العابر لا تنس أن تعطر أنفاسك بشذى حورياتها ،لاتنس أن تمر بجامعتها ، وتسرق من الجمال ما يكفي رحلتك .

أيها العابر من هنا بعدي لا تنس أن تلقي بأشواقي على أبواب الجامعة أن تنادي حنان وصبا وتبلغهن بجنوني .

أيها العابر من هنا أبلغ حنان هنا أن لا يمسح أثري، أفعل كما أملى عليّ جنوني أن لا تبقى صخرة هنا إلا وتنقش عليها اسمك لتدخل سفر الأحياء ، لا تنس أن تقطف أحلامك من الكورنيش ، وتلون لوحتك بالنافورة ، لا تنسالمهم أن ترد الشكر للطيبين الطاهرين هنا ، لان من طبع الأوفياء مبادلة الحب بالحب والطيبة بمثلها ، لله درك من أرض أنعم الله عليها فزهت بنعمه ، ودعت الأخرين ليستظلوا بظلالها ، فالناس هنا كما اللؤلؤ مهما اشتدت عليهم الحياة ومهما أنعمت يبقى

أصيل جوهرهم ،يتألق وينعم على من يراه بالمتعة ، ومن يتعامل معه بالجمال .

هنا في الشارقة إعجاز الجمال وإذهال الماء ، أنظر إلى الغزالتين اللتين ترافقاني وأسألهما :

- ألا توجد مكتبات هنا ؟
- كيف ؟ هذه الإمارة حبلى بالمكتبات ، ولكن لماذا ؟
- لأني أريد شراء بعض الكتب .
- لنشتريها من معرض الكتاب المقام بإكسبو الشارقة.
- لم لا نشتري الكتب من هنا ؟
- لأنه بالتأكيد أسعارها خيالية.

يحترق نبضي حباً لهذا التراب والسائرين فوقه ، تشتعل الروح شوقاً لعيون الغزالات ، ولتمايل الحور العين في الطرقات ، النخيل يبعث في النفس النشوة وهو يتراقص على وقع خطاهن ، والقمر يشع من نظراتي التي تحتضن تلك الأجساد ، والذاكرة تكتظ بصورهن وتزهو بتلك الصور ، هل لمساحتها أن تكفي لكل ما أرى أو أشاهد .

هل يطاوعني الورق على تخزين جزء مما في الذاكرة الآن ، وبأي الألوان

أرسمه ؟ تراني لو كنت فنانا كيف سأرسم لوحة الشارقة ؟ وكيف لي أن أترجم (ابتسم أنت في الشارقة) لألوان وعبارات .

أتماهى مع الطرقات والمباني ، تسرقني السماء الصافية والنسمات العليلة ممن معي ، يخطفني لون البحر وموجاته التي تتراكض لتصل للشاطئ وتعبر له عما يكتنفها من الحب ، ليتنا نحن البشر نأخذ ونتعلم من البحر كيف يكون الحب .

أنحني مجبراً أمام الورود التي تعكس لون شفاه حنان ،ووجنات (صبا) .

آآآآه ربي كيف لا أذوب عشقا بهذا التراب ، وهذه الأرض ، وهؤلاء البشر ، يهمس شيطاني بداخلي : هل أنستك الشارقة معشوقتك هناك ؟ هل خطفتك (حنان) من هواك ؟ وكيف ذلك أيها الملعون ، فالتراب بعيني يتشابه، والبشر يتشابهون لانهم من مكونات التراب ، ولأن كل الأشياء تتشابه وتعبر عن ملهمتي ، تجدني أعشق كل ما يريني صورتها حتى أنت أيها الخبيث .

هنا اشتم رائحة معشوقتي الأزلية ، هنا أرى يديها مخضبتين بدمي ، على شفاهها أرى قلبي قد صلب، ومع ذلك عندما أرى الابتسامة تشرق من عيونها ، أفرح وأستقل الروح إن قدمت في سبيل رضاها .

كيف لا تأخذني الروح إلى جنان الله وأنا أصافح جنان المقدسية ، وأمازح ابنة جبل النار ، وأنا أهاتف ابن حلحول ؟ كيف لا أسمع لنبض معشوقتي ، وأنا أستمع لذلك المربي أو تلك الفاشلة في تلك الأرض .

آآآه من شارقة الله التي أعادتني إلى حضن أمي ، أعادتني إلى التراب الذي منه كانت قبضة الرحمن الأولى والتي كون منها البشر ، ولأن كل التراب يتشابه وكل التراب يزهر تراني أذوب عشقا بكل أرض أطؤها .

يسرقني رنين الهاتف من نشوتي ،أحاول عدم الرد ، ولكن الحاجة يجبرني على ذلك ، أجيب : وإذا بها الرائعة أم أحمد ، تلك النخلة الباسقة بكل أشيائها ، وبدون مقدمات : - أين أنتم .

- أرد عليها : في الشارقة يا أمي .

- بسرعة تعالوا ، فالعشاء جاهز (ومش عايزين نسخن من جديد) .

حاولت الاعتذار ، ولكن السيدة الأنيقة أبلغتني بضرورة الحضور .

كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء عندما طلبت منا العودة إلى عجمان، راح القلب ينتفض خوفاً، من ماذا ؟ لا أدري ، نبضاتي تخرج بسرعة تفوق سرعة السيارة التي نستقلها، الارتعاش يسيطر على جسدي ، أسئلة تراود الروح ولكن لا إجابة، كل ألوان الكون ظهرت

على وجهي ، اسم محمد (اللوتس) اختفى وأصبح القلق والانقباض هما سيدا الموقف .

وصلنا إلى بيت السيد أبو أحمد ، ولجنا إلى غرفة الاستقبال ، النكات من صبا لا تنقطع ، لتسأل ما بك يا عم محمد ولا تحب أناديك لوتس ، أين رنين ضحكتك ، أين اختفت ابتسامتك ؟ أرمقها بطرف عيني وأجيب : لا أدري .

أتأمل هذا المنزل ، منزل الألفة والحب ، هذا المنزل الذي أضفت عليه السيدة (أم أحمد) لمستها ، حولت بساطته إلى لوحة فنية تسر الناظرين ، ورق الجدران يزهو بألوانه ، خضرة الشجر هنا ، زرقة البحر هناك ، ومنظر للغروب في مكان أخر ، الشموع موزعة بأناقة ، وثابتة في أماكنها كجنود الحراسة مستعدة لأداء الواجب عندما تستدعي الحاجة لذلك .أم أحمد لم تعاملني كضيف أبداً ، كانت تشعرني بود وحنان أمي ، لم تنادني باسمي أبداً إلا مسبوقاً بأروع جملة وأنبل كلمة (يا بني) آآه منها كلمة ، تخدر شيطاني كلمة أقوى من كل ابتهالاتي ، أعظم من كل أدعيتي ، يا بني تقتل نظراتي الوقحة أحيانا ، تمنع العيون من الانطلاق نحو الجمال ، نحو التمتع بالنظر إلى تلك اللوحة التي أبدعتها يد الإله ، تمنع شيطاني من قيادة حواسي والتمتع بتمايل الغزالة وهي تخطو أمامي

أو باتجاهي ، تمنع عيوني من احتضان ألق عيونها ، أو تداعب تلك الوجنات الشفافة ، يا بني تمنعني من النظر حتى (الصبا) .

لا أدري كيف عرفت حنان حاجتي لكوب من القهوة السادة ، أبدا سيجارتي لا تنطفئ ، ما الشعور الذي يسكنني ؟ ما الذي يراودني من أحاسيس ، نجلس جميعاً حول المائدة والتي اكتظت بالعديد من أصناف الطعام ، أكلات إماراتية لم أعد أذكر اسمها والأكلات المصرية المحببة ، مثل ورق العنب والدجاج المشوي بالفرن .

أقسم أني أشتهي الطعام ، وأني أشعر بجوع شديد، ولكن هناك الكثير مما أجهله ويمنعني من الاستمتاع بالطعام والأكل بشهية ، لقيمات متفرقة تناولتها ولم أشعر بطعمها .

آآآآآآه كم أنا بحاجة للبكاء في هذا الوقت ، آآآه كم اشتهي أن ألقي برأسي على صدر (حنان) أغسله بدمعي ، وأناملها تجفف تلك الدموع ، آآآه كم أنا بحاجة إلى ذلك القلب الذي يتسع للكون .

تربكني (حنان) بسؤالها ، إلى أين العزم غداً بإذن الله ؟

- لا أدري ولكن أتوقع بأننا لن نغادر عجمان ،سنتجول فيها ، لأني بعد غد سأعود إلى أمي .

وهنا تزرع أم أحمد الفرحة في صدري، تنعش القلب وتعيد للروح

الحياة والنشاط للجسد والمشاعر .

- ألن تشاركنا فرحتنا باحتفالنا بذكرى مولد (حنان) ؟

- ومتى يصادف ؟

- خمسة أيام فقط ، قالت .

- حسنا سأبقى إلى ذلك الحين ، يهمس شيطاني مجدداً إن لم أحتف بمولد (حنان) بمن سيكون الاحتفاء إذا .

تستمر السهرة حتى قبيل منتصف الليل، تعانق عيناي طيف الشارقة، وتداعب عيون بحيرة خالد ، وأتخيل غزالاتي تسبح في تلك المياه . أهم بالخروج ينهض أحمد وحنان لإيصالنا، أوصلنا صبا أولاً ، ومن ثم أوصلاني إلى الفندق وعادا أدراجهما .

هبطت من السيارة ، ودعاني على أمل اللقاء في الصباح ، رحت أتابع السيارة حتى اختفت، وبادت أتمختر في ذلك الشارع الطويل ، أتأمل نخيله ، والإسفلت الذي سارت فوقه السيارة ،تعرج عيناي نحو رأس النخيل الذي أحسست به يعانق السماء ، يتوحد مع الأنوار وضوء القمر ، آه ماأجمل وأبهى ذلك المنظر .

غداً ستكون جولتنا في عجمان من أقصى جنوبها وحتى حدها الفاصل

مع الشارقة ، ليكون اليوم الذي يليه استراحة ما قبل الرحيل، والاستعداد للقاء معشوقتي ووداع خليلتي.

آه أيها الحنان كم يحتاجك القلب ،آه أيها الحنان كم تحتاج إليك الروح، وأنا كم أشتهي أن ألقي برأسي على كتفك تداعبين شعري وتمسحين دمعتي.

أنتظر الصباح على أحر من الجمر، لننطلق إلى هناك ، الى أقصى عجمان الى حدودها مع سلطنة عمان ، ويموت الزمن ويطول ليل الانتظار ويمل من خطوي الطريق ، يدعوني للإبتعاد عنه ، ولكن هل من مكان أجمل من هذا المكان أقضي فيه لحظات الانتظار، وتنطلق الكلمات على اللسان ، والقلب يردد: أين أنت مني ؟ أين الوجود؟ إنه ضائع ببعد الحبيب، أينك يا حلمي ؟وكيف لي أن أحلم في لحظات بعدك يا سيد القلب وأمير العمر ومعناه ؟

أحاول الجلوس على أحد الأرصفة ، أتأمل تلك النخلة الشامخة ، أحاول الحفر على جذعها حروف اسمينا ، أحاول أن أنقش عليها : عيناك غابتا نخيل وقت السحر ، أو شرفتان راح ينأ عنهما ضوء القمر ، ويطلق الفجر خيوطه فوق تلك الديار ، ويصدح المؤذن بنشيد الدهر الخالد ، يصدح بالله أكبر ، ويصدح القلب : اقترب اللقاء ، واقتربت

الرحلة، اقترب اللقاء بالحلم ، سويعات قليلة وألتقي بهويتي ، ألتقي بالتي سأغسل صدرها بدموعي ، وأجد اليد الندية التي تكفكف دموعي .

أسير باتجاه الفندق وشيطاني يراودني بالذهاب إلى هناك حيث تقطن، أنتظر خليلي أمام بيته، ولكن أمي تهتف بداخلي : لا انتظر قلبك فنعم ، ولكن هنا وليس في أي مكان آخر ، من يجعل الزمن يسير ؟ لمَ عندما أكون مع وجودي يركض بسرعة البرق ، وفي لحظات الانتظار يموت الزمن ، من يأتي بالساعة العاشرة ، ويأخذ نصف العمر ؟من يشبك كفي بكفها ويأخذ ما تبقى لي من لحظات.

متى تأتي العاشرة؟متى يكون اللقاء يا قدري يا من أفرحتني بعد أن مللت أيامي ؟ هل سيكون هناك متسع في العمر لألتقي سيدة المكان ، سيدة الحور ؟ أدلف إلى الفندق ، أصعد إلى غرفتي ، أشعل سيجارتي وأرتمي على سريري ، لأتيح المجال للعين أن تحلم ، وللتفكير بكيف سأكلم العمر القادم ، وأغوص في بحر من النوم ،حلمت ، لم أحلم ، لا أدري ، لأصحو على رنين الهاتف القادم من موظف الاستقبال ليخبرني أن الشمس سطعت في الفندق وهي بانتظاري ،لا أدري كيف سكنني الارتعاش ، لمَ ازدادت نبضات القلب (الروح تردد: كأنك تقطع قلب

مغليك تقطيع، و تزيدني شوق و محبة و تلويع) . لمَ لم أعد أشعر بشيء إلا خفقات القلب المضطربة ، وألم الفرح وجمر السعادة الذي راح يكوي كل خلايا الجسد : لست قادراً على هبوط السلم ، لم أعد أعرف أين المصعد، أرفع سماعة الهاتف لأتصل بالاستقبال ، وقبل أن يجيبني أغلق السماعة ، من أين كل هذا الارتباك؟ هل هي المرة الأولى التي أقابلها بها؟ منذ ساعات كنت مع خليل الروح وفي بيته ، أهبط درجات السلم ، تضحك عيوني عندما التقت بتلك العيون ، نحتسي فنجاناً من القهوة، ونغادر الفندق متجهين لبيت صبا، نطرق باب بيتها، ونطلب منها مرافقتنا برحلتنا ، ولكنها وبأدب جم تعتذر، وتسألها عيني الدامعة فرحا وطربا لمَ يا صبا ؟ وترد والابتسامة العمانية الشفافة تعلو شفتيها وتتألق على وجنتيها: لا أرغب أن أكون وحيدة وأنا معكم ، كما أني لا أرغب أن أكون عاذلة لقلوب محبة ، سيروا وبركة الرب تحيطكم ، سيروا ونور الحب يملأ دروبكم ، ارسموا على الرمال خطوكم ، وانقشوا بالشعر أسماءكم على سيقان الشجر ، دعوا قلوبكم تداعب الورد ، اعذروني فأنا انتظر حبيبي ، آه ما أسعد قلبي الآن ، أسمع الرصيف الذي نسير فوقه يغني حبا ، والرصيف الآخر يعاتبنا لما نحرمه من حضن الخطاوي؟

الشجيرات التي تتوسط الشارع تداعبنا ، وزهور تناغينا هذا ما كنت أسمعه وأراه ،أين قيس مني الآن ؟ وأين ليلى العامرية من حناني ؟ كل الأشياء تختلف أمامي الآن ، أجمل أرض في الدنيا هي عجمان ، أجمل سماء هي التي تظل عجمان ، كيف لا وهي تظلل معنى الحياة ورمز الحب .

نستقل مركبتنا لنبدأ الرحلة إلى تلك القرى التي تقع على الحدود مع سلطنة عُمان ، أسمع الشارع يغني لنا ، الأرصفة تدعونا إلى حضنها، الأشجار تلوح لنا ، تنادينا أن نستظل بها، والمركبة تمشي الهوينا ،نتبادل النظرات والابتسام ، وكلما نظرت يمنة أو يسرة قالت لي نبع الحنان أن انظر أمامك وتابع الطريق ، وأطيع لا ألوي إلا على الابتسام ، وما أن أمسكنا بالشارع الرئيسي المؤدي إلى تلك القرى إلا وكانت المركبة تتحول من غزالة إلى وحش ضاري ، وحش جائع فراحت تلتهم الطريق ، لا بل تبتلعه ، ساعة من الزمن أو أكثر بقليل لم أعد أذكر ، وقد وصلنا .

أدخلنا المركبة في أحد المواقف العمومية وخرجنا أيدينا تتشابك ، لا أدري لحظتها إن كنت أسير على الأرض أم أني أمتطي صهوة النهار ، أعتلى جناح الشمس وأطير ، لا أدري إن كنت أقبض على يد حنان ، أم

أني أمسك بوردة قطفت من الفردوس الأعلى ، نسير ببطء مرة ،ونغذ الخطى مرة أخرى ، نركض في الثالثة ، و نجلس بجانب شجرة اعتلت وشمخت إلى حيث يتعب النظر قبل أن يصل إلى رأسها .

أترك البقية لقلمك أيها الرائع لينبض بخاتمة النص، ولتكن أكثر عقلانية من بعثرات جنون محمد (اللوتس !).

***

.

في حضرة النخيل

كانت فرحتي بدخول حماها، بلقاء نهرها الخالد، بمعانقة نخيلها الشامخ، والاستماع لبوح ليلها الصافي، واستنشاق عطر الرسالة الأولى، والعلاقة الأولى بين السماء والأرض، كفرحة من عثر على ضالته حينما أوشك على الهلاك ، أو كفرحة من التقى بمحبوبته بعد طول بحث وعذاب ، عندما تيقن من اقتراب الليل لالتهام خافقه ، وبعد أن خطفتها منه يد الزمان لعمر طويل .

كانت السماء لحظة وصولي إلى أول أرض حددت للعالم شكل الحرف ، تستجيب لدعاء أمي " اللهم اغسله بالماء والثلج والبرد " كذلك كانت تعبيرا صادقا لدموع قلب تقطع ألما وذاب حسرة على بغداد قبل أن يصلها ، وجع القلب الحاقد على إخوة حاصروها بعد أن نصرتهم ، إخوة يحاولون إذلالها بعد أن منحتهم العزة والكرامة ، نعم كانت السماء تستجيب لأنين القلب وآهات الروح وتذرف رذاذها لتغسل شوارع العراق الأبي من أثر الغربان ، رذاذ السماء كان يغسل جرح النخيل ويطهره من غدر الأشقاء ، وتمنح دجلة القوة والقدرة على التحدي

والصمود بدرب العطاء والحب ، تحاول أن تعيد القداسة إلى أول أرض هبط إليها الوحي بعد الطوفان ، إلى الأرض التي خرج منها أبو الأنبياء مع ابنه (إسماعيل) ليرفع قواعد البيت الحرام ، إنها الأرض التي حولت نار النمرود إلى برد وسلام على إبراهيم، الذي دعا ربه أن يهب مكة الأمن والطمأنينة، وأن يهب أهلها من الثمرات ، ونسي أرضه أرض العراق من دعائه .

تختلط مشاعر الدهشة والنشوة بمشاعر الاضطراب والقلق ، كيف سأسير في شوارع بغداد وهي المحاصرة من الدنيا، كيف سترتسم البسمة على شفتيّ وأنا أرى الأطفال يبحثون عن كسرة خبز يسكتون بها صراخ أحشائهم، والماجدات الحرائر ، وفرسان الأمة وحماتها يصرخون "وظلم ذوي القربى أشد مضاضة"، كل هذه الخواطر والهواجس راحت تقتحمني عند هبوطي من السيارة التي أقلتني ورفاقي من عمان إلى بغداد ، ويأتيني الرد من داخلي أن انظر حولك ، وسترى أن لا شيء مما سمعت من أعداء العراق الجاثمين على صدر الأمة حقيقيٌ ، بغداد ليست محاصرة بل هي التي تحاصر الدنيا ، هي التي إن بسطت يدها كفت الكون وعلمته أن عطاءها بغير حدود ، وإن قبضتها أبكته وعلمته معنى العقاب ، وكيف يكون الجزاء لمن أخطأ .

تبعثرني فرحتي فوق أرض الرافدين والشيخ دجلة يلملمني ، يعيد تشكيل الروح، يربت على قلبي الموجوع، ويطمئنني وهو يهمس بداخلي " أن مع كل إشراقة شمس أمل جديد " .

أسمع أنين الرشيد ، وأرى المعتصم مكبلاً بقيود أبي جهل ، أرى النمرود يعاود النهوض من جديد ويشعل ناره الكبرى ليحرق الفرات وشيخ الأنهار دجلة ، يا للعجب من أين لبغداد القوة؟! كيف تقف بوجه الدنيا متحدية الظالمين ورافعة راية الله أكبر؟! كيف لهذا الشعب أن يمارس طقوس الحياة والغربان تحلق فوق رأسه؟ والنيران تحيط به من كل جانب وأيدي الأشقاء تحاول أن تلقي به إلى جهنم وهو الصامد الصابر يردد " اللهم ارحم قومي فإنهم لا يعلمون "

إذاً أنا في الصالحية ، نقطة الانطلاق إلى بغداد وشوارعها ، ساحاتها وميادينها، لا بل نقطة الانطلاق إلى كل أرض العراق الأشم ، حيث اكتظاظ الحافلات التي تقل المسافرين قادمين ومغادرين ، وازدحام الناس في المكان مودعين ومستقبلين .

تلفت انتباهي لافتة جذابة تنادي الحضور أن أهلا بأبنائي وإخواني ، أهلا بأهل الدار وألف مرحباً بالضيوف من أشقاء وأصدقاء ، أهلا بكم في ذاكرة هذه الأرض، أرض إبراهيم ويونس ، أرض نبوخذ نصر

وصاحب أول شريعة وضعها الإنسان، أهلا بكم نداء بغداد الأزلي لمعرفة هذا الإرث العظيم .

ذاكرة مذ كانت وهي تعطي الإنسانية دروساً في البذل والعطاء، وتعلم الإنسان أينما كان معنى وجوده والهدف من حياته دون أن تنتظر كلمة شكر من شقيق أو رد جميل من صديق .

من الصالحية إلى باب المعظم حيث تجد الوجوه التي تتخطى المصاعب اليومية وويلات الحصار ، تتحدى الألم والرعب الساكن فيها بابتسامة عريضة ترتسم على كل الشفاه!!.

في باب المعظم حيث حططت رحالي عند الصديق سمير الكاظمي، الذي ترك عمان وهو العاشق لها عائد إلى بغداد الأم؛ ليقف إلى جانبها في وجه أسراب الجرذان القادمة من خلف البحار، لتجتث النخيل وتصادر المتنبي وأبا نواس والسياب، لتحول مجرى دجلة أو على أقل تقدير تغير لونه،لتعيد ما صنعه تيمورلنك ذات خذلان عربي وضعف إسلامي .

صعدت السلم متجها إلى الدور الثاني متحزما بالشوق لصديقي ،متزنراً بالحنين لمعرفة السر في الصمود الأسطوري لهذه الأرض بوجه

الخطوب، في وقوفها أمام التحديات، وكيف استطاعت أن تروض أعاصير الزمن وأن تعصر أثداء الغيوم؛ لتمطر الخير والمحبة على أبنائها، وأن تستمد القوة من قدسية ترابها وشموخها من صفاء السماء التي تعلوها، طرقت الباب ، يأتيني الصوت من الداخل، تفضل يا أبا جاسم يثير استغرابي ودهشتي رده كيف عرف أني أنا من يطرق الباب؟!

دخلت الشقة ، صافحته وتعانقنا عناق أصدقاء طال فراقهم ، تناسى سؤالي عن نفسي وأحوالي ، وراح يسألني عن حبيبته ومعشوقته يسألني عن مقاهيها عن شوارعها وحواريها ، يسأل عن شعلة النشاط فيها هل ما زالت كما هي أم أنه خفت نورها ، راح يحدثني عن كتابه الجديد وأهمية عمان فيه وما خصص لها من مساحة في صفحاته، راح يحدثني عما سبق وقلته له عندما التقيته فيها لأول مرة ، عن سر تميز عمان عن شقيقاتها الأُخَر ، عن سر تناقض عمان بإنسانها وموقعها .

احتسينا الشاي العراقي الثقيل ، أشعلنا سجائرنا وخضنا بأحاديث النميمة الجميلة على الأصدقاء والمثقفين ، غابت شمس ذلك النهار وخرجنا من المنزل ، إلى أين تود الذهاب ؟ سألني ، أجبته أنا لا أعرف شيئاً في بغداد ولكني أود الذهاب إلى المتحف الوطني ، إلى بيت

الحكمة، فأجابني غداً به نبدأ نهارنا ، ولكن الليلة هذه مخصصة للتجول والتسكع في الشوارع والساحات البغدادية، للتعرف على معالمها، أسماء شوارعها ومقاهيها ، فبغداد يا بني تفوق عمان بحراكها الثقافي ليس من اليوم بل مذ كانت، فهي التي أرضعت العالم ثقافته وعلمه وما زالت على نفس الزخم رغم شدة سواد الليل الذي لا ينبئ بانبلاج قريب، إلا أن بغداد ما زالت رمزاً للعطاء ومعنى للشموخ مادام فيها العراقي الأصيل.

- أين نحن الآن يا سمير؟

-في شارع المتنبي.

عادت الذاكرة إلى عصر الفروسية، فروسية السيف وفروسية الكلمة، المتنبي العراقي المولد الحلبي الهوى، هذا الشارع باسمه ولكل مسمى من اسمه نصيب، فما هو نصيب هذا الشارع من اسمه ، هل هنا من يشبه المتنبي بشاعريته وفروسيته النبيلة ، أين نحن من صاحب (أمعفر الليث الهزبر بسوطه) أين نحن من:

الليل والخيل والبيداء تعرفه والسيف والرمح والقرطاس والقلم

أين الشاعر المحب ، أين المتنبي ؟

وما هو نصيب الشارع من الاسم الذي تباهى بحمله؟ وراح يراودني هاجس بأن الشارع الذي يليه أو يجاوره سيحمل اسم أبي فراس الحمداني؛ الأمير الفارس، والفارس السجين، والسجين العاشق، والذي حافظ على كبريائه بنسبه صاحب :

أعز بني الدنى وأعلى ذوي العلى وأكرم من فوق التراب ولا فخر

وهو الذي يتغنى بعدالة أمته وتصدرها للعالم الذي لا تقبل التنازل عنه: نحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدارة دون العالمين أو القبر، ولم هذا الربط بين الشاعرين؟

ألأنهما خلدا الدولة الحمدانية وجعلا من سيف الدولة رمزا للتاريخ ، ويسرقني سمير من دهشتي ويوقظني من غيبوبتي ، هيه محمد أنا أكلم روحي ، لا أنا معك ولكني تخيلت المتنبي معنا هنا يحتضن دجلة ويمنح النخيل الابتسام ،ويطبطب على أكتاف بغداد ويناغيها، حسناً يا محمد فهذا الشارع من أهم شوارع بغداد، وخاصة بالنسبة للمثقفين ففيه أكبر المكتبات وأهمها ، هنا كل ما تحتاج من الكتب، في هذه المكتبات تستطيع الحصول على أمهات الكتب وبسهولة ، إذاً هذا هو نصيب الشارع من اسمه وياله من نصيب إنه النصيب الأهم ، يأسرني جمال

الشارع والذي بالتأكيد يدلل على جمال المدينة وسهولة السير فيه تمنحك المتعة والدهشة، وأنت تتمعن في ملامحه .

هنا لا يوجد من يسألك عن بطاقتك الشخصية أو من أين أنت قادم ، لا أحد يعترض طريقك فأنت محط ثقة واهتمام الجميع، أرى بغداد تداعب عيون الليل ، تحاكي قمره وتغني لنجومه ، تهديه قصائدها وأناشيد أبنائها، يا إلهي ما أبدع نور القمر وهو يتحد مع ضوء المصابيح في الشوارع لينعكس على وجه دجلة ونخيله ، للصمت في بغداد سحره وأجواؤه ، لليلها حكايته وتراتيله ، أفكر في طريقي ، أين سأقابل كاظم الحجاج ، إذا ما رأيته بالتأكيد سأطلب منه قصيدة سليمان الحلبي ، سأطلب منه أن يسمعني شيئاً من جديده ، بمن سألتقي الآن فمن الممكن أن التقي فالح حسون الدراجي، أو غيره من المبدعين العراقيين الذين جمعتني بهم عمان ومهرجان الفرسان .

ويعود سمير ليوقظني من غيبوبة النشوة ماذا ترى يا محمد ، أرى هذا الصمت البهي وهذا الكبرياء الشهي ، أهذه بغداد التي قطعوا قلوبنا عليها ؟ لماذا ؟ فهي تتحدى الحصار والموت، ها هي تنقش أسماء الراحلين من أبنائها في ذاكرتها ،قبل هذا التحدي كانت تتحدى ثمان عجاف، وكانت النتيجة أن ارتفعت الراية العظمى ، راية الله أكبر ، نعم

إنها تتحدى الموت الذي يتقدم بخطواته الخجلى نحو صغارها وشيوخها، وهي تمتثل الآية الكريمة " وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون " وتأخذ بالآية العظيمة (لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)، أي قدرة تستمدها من هذه الآيات ، وأي قوة تكمن في بغداد ، أراها تتدثر بجلال اللحظة، وتسكنها مهابة الملائكة، وتحتضن أبناءها بقدسية التراب والماء ، آه أي هالة هي التي تلف بغداد وتمنح الناظر إليها نعمة رؤيا الغد القادم إليه بعد أن يمدها الله جل في سمائه بنصره وعزته، هالة تحيط ببغداد فتخرجك من حالة الوعي ، وعي اللحظة قبل دخولها الحصار حين أصرت أن تكتب بيد شريفة رائعة مدادها ماء دجلة وريشتها قصفة من سعف النخيل على صفحة السماء: إن الغد لي والغد لناظره قريب .

هيه أين وصلت ؟ معك والذي بعث ببغداد الحياة ، فقط إن هذا الصمت وهذا السكون بالرغم من الحركة والزحام يأسرني ، دعك من هذا وتعال لنتناول طعام العشاء ، الساعة الآن تقارب العاشرة ، وبعد العشاء ننطلق لأحد المقاهي .

لم يمض وقت طويل حتى وصلنا بائع الكباب وكان يستعد لمغادرة المكان ، توقفنا عنده وكان سمير يعرفه جيداً، سألناه عن اللحم ، وأقسم بأنه لحم خروف صغير وليس كبشا وأنه طازج ، إذا جهز لنا كيلو" كباب وشقف " كم من الوقت تريد لتجهيزها ، عشر دقائق ، هل بإمكاننا الجلوس، بالطبع ، ناولنا كرسيين صغيرين وجلسنا نتأمل المارة

قليل من الوقت حين انفجرت بالضحك، أصابتني نوبة هستيرية من الضحك عندما سمعت أحدهم يشتم بائع الكباب شتائم لو قيلت لي فقط الله يعلم نتيجتها ، وراح سمير يضحك على ضحكي ، وما أن سكت حتى قال لي سمير هذه ليست شتيمة إنها إطراء ممزوج بالمودة، كما تدلل صديقك بصباح الخير عاودت الضحك ولكن بصورة أقل ، وجاء العشاء، آه كم هي شهية الكباب العراقية، وآه ما ألذ الشقف !؟ تناولنا الوجبة وطلبت المزيد ولكن دون خبز في المرة الثانية ورحت أتسلى بها ، وعندما أنهينا رحلة العشاء أقسمت بأغلظ الإيمان أن أدفع الحساب؛ لأنني توقعته كبيراً ومن يعش بظروف سمير سيثقل ميزانيته ، وكان بالنسبة لسعر صرف عملتنا ثمناً زهيداً جداً وريقات معدودات، يعادلن ديناراً أو أقل بقليل .

وصلنا إلى مقهى الشهبندر ، طلبنا الشاي فقال سمير إن أردت مشروباً فلا تخجل ، وقت قليل ويكون أمامك، لا يا سمير ، أريد أن أبقى بصحوي ، أن أحتفظ بوعيي ، أريد أن أُبقي على مزاجي العالي ، وأريد أن أحيا اللحظة الشاعرية هذه ، ولكن لماذا تخلو بغداد من ورودها ، لا يا أخي فورود بغداد الآن تفوح بعطرها داخل البيوت ، غداً تمتع ناظريك بكل أصناف الورد .

أرجو أن لا تفهمني خطأ ، في البداية ظننت المقهى كما أعرفه في عمان هو فقط للعب الورق أو الزهر أو حتى لشخير النرجيلة .. ولكني فوجئت بأن رواده من الأدباء والصحفيين أي بمعنى آخر هو مقهى للنخبة ، راح سمير يعرفني على أصدقائه يمازح هذا ويشتم ذاك ويقول لشاعر آخر اذهب وتعلم صنعة تعتاش منها بدلاً من أن تبقى هكذا تدعي الثقافة وأنت بعيد عنها، يرد عليه بابتسامة ويتابع جلسته.

أنا أستمع إليهم، هذا يقرأ ما جادت به قريحته، ذلك ينقد النص وآخر يرد ناقداً النقد، يحتد النقاش، وتعلو الأصوات، ومن ثم يعود الهدوء من جديد، ليتابع آخر بقراءة جديدة ويعود الجدال من جديد، وأنا أسمع وأستمتع ، لا أرغب بمغادرة المكان الغني بالفائدة والمتعة، وقت ليس بقصير جلسناه هناك، غادرنا المقهيإلى أين الآن يا سمير ، إلى شارع

آخر وبدأ الحضور ينسلون مغادرين المقهى، هل انتهى اللقاء بهذه السرعة ؟ هيا يا محمد إلى أين ؟ إلى شارع آخر ، هل ظننت أن الذين غادروا الآن عائدين لبيوتهم ؟ قالها وهو يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، سمير ما بك ؟ لاشيء ولكن إن سمعني أحدهم فستكون نهايتي .

تابعنا سيرنا حتى وصلنا شارع الرشيد، فعادت الذاكرة لاشتعالاتها من جديد ، يتراءى لي الخليفة العباسي الثامن يتجول في المدينة وبصحبته حاشيته ووزيره الأول ، يتراءى لي هارون الرشيد يبحث عن فقير فيغنيه أو يتيم يمسح على رأسه ويكفله يبحث عن عالم يصطفيه أو شاعر مجيد يؤرخ لدولته السنية، أو مظلوم فينصره ، يبحث عن مواطن الجمال ليريح فكره من عناء الدولة وتعب الرعية ، تتراءى لي زبيدة زوج الخليفة تسير في شوارع بغداد تبحث عمن يرافقنها إلى رحلة الحج القادمة ، تبحث عمن تؤنس وحشتها في ظل غياب الزوج المجاهد، تسأل جاريتها المقربة أين أجمل المواقع في بغداد وأسمعها وهي تقول لا يمكن في بغداد أن تفضل مكان على آخر؛ لأنها كلها مسحت بيد الرحمن ونالت من بركات الروح القدس .

عدنا إلى الشقة وكانت الساعة تقارب الثانية فجراً، كان بودي أن يوقفني أحد العسس ليسألني من أين أنا قادم وإلى أين أتجه؟يسألني عن إثبات شخصيتي ويدقق قيدي ولكن خاب ظني ، وما أن دخلت الشقة حتى تناولت ورقة وقلما لأدون ملاحظاتي عن أول ليلة أقضيها في بغداد السلام والمحبة والحصار فقد أحتاجها في لحظة ما .

عندما تكتب عن بغداد وحواريها ، عن شوارعها وساحاتها ، عن نخيلها وحسانها تشعر بزيف الكلمات وأنت تسمي الأشياء ، وأنت تعبر عالم الوعي حيث تقتحم بوابات الذاكرة وتبدأ بشم أريجها ، عندما تخترق كل النوافذ لتسقط في غيبوبة اللحظة ، يا لبهاء النظرة .. ويا للحضور الشهي وأنت تنظر بغداد تنثر ورود محبتها على القادمين، وأنت تنثر بذور الراحلين في أرض الحقيقة، فيكونون في البرزخ الذي يطل على عالمين متناقضين ، عالم الزيف والخديعة والدم ، وعالم البقاء والنقاء ، عالم من قادتهم رحلتهم للنزول في جنان الذاكرة ، وأي ذاكرة ، إنها ذاكرة بغداد الأرض الأولى، متكئين على أرائكها متقابلين يغنون لبغداد ومستبشرين بمن بعدهم خيراً، يهتفون بأهلا لراحل جديد إليهم .

أي أجساد هذه التي تستطيع النهوض بأحلام بغداد الأنثى الفاتنة؛ حبيبة النخيل وعشيقة دجلة الذي منذ أن كان جاريا لتحقيق حلمها المعجزة ، هي لحظة قد تستطيع فيها أن تجمع الحواس لترى بغداد الأمس المنعمة المتفضلة على العالم ، وبغداد اليوم التي لم تستنجد بأحد ولم تضح بأخ رغم تضحيتهم بها ، وتنظر من نافذة البصيرة إلى بغداد الغد فتختلط الألوان أمامك، تراها تشيع راحل جديد للذاكرة البغدادية ، وأنت تشيع شهيد الرغيف ليزرع في أرضها نخلة خالدة تظلل عيون المحبين، أو يسكب روحه في النهر العظيم ليأخذ منه رشفة لا يظمأ بعدها أبداً ، آه لو أستطيع اللحاق بركب الراحلين قبل أن يصل الغد الذي أرى فيه بغداد مستباحة ، قبل أن تسكن الخفافيش زقاقها .

آه يا ابن واسط والسيسبان، يا ابن النارنج والأقحوان ، يا ابن البعث وزبيبة ، أرجوك ابعث في قلبي الطمأنينة .

يا أخي، البعث هو سر قوة العراق ووحدة العراق ، هو القادر على إبقاء شموع العراق مشتعلة ، وحده من قاد العراق للنصر على عابدي النار ، شد لجام الخوارج ، مادام البعث موجوداً في العراق سيبقى كل شيء في يده ، وإن انتهى البعث لا قدر الله ستذبح بغداد والعالم ينظر إليها ، وسترى الرافضة يستبيحون كل شيء ، أشد ما نخشاه هو إدخال الخونة

والعملاء على ظهور الدبابات وتحت المظلات ، والشيء الآخر الذي نخافه هو تعاون الأنظمة العربية على إسقاطنا .

-أقاطعه.. لو كنت بعثياً لأشعلت الماء تحت بوارجهم ولتركت الجحافل تسير إليهم ، وعندها فقط سيكون الله مع العراق ، أما أن تنتظر رحمة من خلع أباه أو من ورث ما فوق الأرض وما تحتها فلا أمل في ذلك.

يعاود حديثه إن كان ما أراه يلوح في الأفق فاقرأ على روح بغداد والعراق الفاتحة، أكل هذا الانتماء للبعث ؟ ليس غريباً ذلك منك وأنت ابن البعث وربيبه وهو مصدر قوتك ، لا والله يا محمد ، ما لهذا قلت ما قلت ، ولكنك لا تلام لأنك لا تعرف أن البعث لا يعرف إلا العراق وطناً، ولا تلام لأنك لا تعرف الخوارج، فهم أشد قسوة من اليهود ، لا بل اليهود أطهر يداً منهم وأنظف قلباً .

الروح تستصرخ الحجاج بن يوسف تقع بين يديه وتخبره بأن كل الرؤوس هنا قد أينعت و لا تجد من يقطفها، وحدك صاحبها يا ابن يوسف، الأمة تبعثرت و لا غيرك من يوحد صفوفها، الخوارج أيها الثقفي الأبي قد انتهكوا حرمة بغداد هتكوا سترها والكل من بعيد يعيد تشكيل بغداد الجديدة ،كلهم مستعد لفتح البوابة الشرقية لأبي لؤلؤة ،

أين أنت أيها الفارس العربي، فالمدينة التي خرج منها الأيوبي صلاح الدين قد راحت تتآمر عليه وتستعين بالغريب الطامع .

يقطع خيالاتي، ويشعل النار بدموعي؛ بقوله لمن أتحدث.. سمير لا تزرع في الروح بذور القلق، لا أريد أن تطلعني على رؤيتك للغد إن سقط البعث ، بالله عليك لا تريني الصورة التي رسمتها لعاصمة الرشيد ، لأم العواصم وأم الموت .

***

أنا وبيروت والجنون

(قبيل السفر)

هجرني النوم منذ أن وصلتني الدعوة لزيارة أرض الفينيق ، أرض الأرز، الأرض التي أتت إليها ربة الجمال إيزيس باحثة عن حبيبها أوزاريس الذي قتله (ست) واغتصب عرشه ، إلى جبيل حيث عثرت آلهة الخصب على زوجها المفقود، هنا إلى أرض جبيل التي أوجدتها الآلهة لتكون رمزا للبعث والخلود بعد الموت.

أدونيس (النعمان) هنا وعلى هذه الأرض قتل في سبيل حبه، وهنا أعلنت الإلهة عن عجزها في إعادة الحياة للنعمان (أدونيس)، ولكنها وعدت أن تعيده للحياة مرة في كل عام على هيئة زهرة ، أطلقت عليها شقائق النعمان (جروح الحبيب). النعمان الذي ما زال دمه نديا يجري في النهر الأحمر،من هنا ، من هذه الأرض فرت عليسة (أليسا أو اليسار) من قهر أخيها لتؤسس تلك المملكة في تونس ، لتربط تونس بلبنان فيكتمل الجمال .

وصلت الدعوة ، وثبتْ الروح وغادرتني إلى حيث فضاءات الجمال ، حيث فيروز ووديع الصافي، ونصري شمس الدين ، حيث الهوارة والزجل وصوت الجبل ، نطق القلب ونبض بالسعادة ، هتف اللسان وغنى بصوت عال ، صوت أيقظ الجوار ، أيقظ ثريتي من نومها ، هتف الآن سأرحل عن مدينة الكادحين المتعبين ، مدينة الأشباح والغرباء ، سأرحل عن أرض التلال السبعة ، عن مدينة كانت أم الشمس والليل والعشق والسهر ، فتحولت لمدينة يتسع قلبها لكل العابرين ويضيق بأبنائها وعشاقها ، مدينة منحت ثديها لكل غريب ، وتركت ابنها يتلوى جوعاً وحرماناً.

لم أنم منذ وصول الدعوة ، ولم يدخل جوفي إلا الماء والقهوة ، ولم يمر بشفتي إلا ثغر سيجارتي ، ثلاثة أيام أطول وأقسى من سنين العمر الذي مضى ، دعاء وابتهال أن تمر هذه الساعات والدقائق التي أثقلتني أكثر مما يجب حتى انتهت ، في هذه الأيام أثقلت على زوجتي بالسهر ، حيث أني حاولت اغتيال النوم في عينيها لكي لا أبقى ساهراً وحدي ، أي أحلام تسكنني ، وأين قلبي الآن ؟

أين روحي؟ أحس أن المشاعر تتقد ناراً بانتظار اللحظة التي أمتطي فيها صهوة الغيم لأطير لهناك ، لأرى وجوها غير الوجوه الشاحبة التي أدمنتها ، لأرى ابتسامة صدق .

صور تداعب مخيلتي ، زرعها الكثيرون من الأصدقاء عن لبنان ، جمال وحب وحسناوات في الشوارع متاحات للجميع ، كثيرون حاولوا أن أؤجل رحلتي لحين انتهاء رمضان ، ولكن شوقي كان أكبر ، شوقي لهناك ، حيث أعانق إيزيس ، حيث أصافح الليل والنجوم ، وعيون البحر، أفكار كثيرة ، خيال تتلاحق فيه الصور ، والأحداث ، يا الله ، ما هذا الذي يسكنني الآن .

ودعت بيتي وعصافيري التي انتحر واحد منها احتجاجاً على هذا الرحيل وهذه القسوة ، ودعت البيت والزوجة الرائعة التي أخفت دموعها وراء ابتسامة انبثقت عن خوف وحزن ، حضنتني وودعتني بقبلة ما زال وهجها على وجنتي يشتعل ، ذهبت لبيت الأهل لأكون قريباً أكثر من المطار ، سهرت مع أمي وابني البكر حتى الصباح ، أبلغتهم أن الموعد قد حان ولا بد من الرحيل إلى حيث هناك ، حيث بيروت الصمود والتحدي ، بيروت التي ما انحنت للريح بل وقفت بوجهها سداً منيعاً، ووقفت حارساً وحامياً للكرامة العربية .

من البيت إلى المطار

الطريق طويل طويل ، أشعر بأن الوقت يمر سريعاً ، والسيارة تعلن موتها، هاجس الخوف بدأ يراودني بأن الطائرة ستقلع قبل أن أصل ، أمي تنظر إلي وتبتسم ، أنكز ابني الذي يقود السيارة أن أسرع بني ، يرد علي دقائق ونصل ، على ماذا الاستعجال ؟ هل عفتنا لهذا الحد ؟ هل بعتنا أبي؟ هل ستعود ؟ وكانت إجابتي والدمع يترقرق في عيني ، سأعود بني ، متشوق لرؤية عالم جديد أسطره في صفحتي ، في سجلي ، فقط يا بني سأبني لي محرابا في أرض طالما رغبت بزيارتها ، بالوصول إليها ، إنها أخت عمان ودمشق ، إنها الثالثة الحلوة يا بني ،إنها بيروت.

إنها بيروت لونا، إنها لبنان وفاء الزعتري ، ونور حداد ، بيروت أنجيليا ، وكثيرون هم الأصدقاء والصديقات في لبنان ، لبنان مزيج من زرقة البحر وخضرة .

فجأة توقفت السيارة ، الحمد لله على السلامة ، وصلنا المطار أبي ، حملت حقيبتي وسرت باتجاه صالة المغادرين ، سمعت صوتا يناديني ألن تودعنا أبي؟عدت إليهم عانقت أمي التي شيعتني بدمعة ودعاء

ظل يرن في أذني . في السابعة صباحاًوصلت مطار الملكة علياء الدولي ، انتظرت حتى بداية الدوام الرسمي ، توجهت لموظف طيران الشرق الأوسط استلمت تذكرتي ، وغادرت، بدأت أضيق ذرعا بالوقت الذي توقف ، مرت ساعتان ، وكأنهما عمران قاسيان دخلت في غيبوبة الأحلام ، أرسم صورة لبنان ، (سويسرا الشرق) تتراءى لي صورة أهله وأبناءه ، أبتسم ، وأعاود الحلم من جديد ، ساعتان أو أكثر ، أتخيل لبنان، كيف سأدخل محرابها ؟ كيف ستكون صلاتي على أرضها، وهل تستوجب صلاتي وضوءاً جديداً ، أم أنها تحتاج للاغتسال ، اغتسال قلب وروح أم تراه اغتسال جسد .

كيف سيقابلني صوت فيروز ؟ كيف سيكون استقبالي؟

الخيال يرسم صوراًمختلفة ، كيف سيكون لقائي بالأحبة ؟ ما طعم العناق ؟

وبأي عطر يتعطرون ؟ هل سألتفت لكل هذا ؟ أم أني سأذوب بالسحر والبحر والحسناوات؟

صداع سببه الفرح لي ، لم أستمتع يوما بالوجع كما كنت مستمتعا بالصداع في تلك اللحظات،القلب يغني أنا لحبيبي وحبيبي إلي ، جوليا

بطرس تتألق بصوتها الرائع وهي تغني للبنان ، وديع الصافي يقطع كل الأصوات ، ويطل مع فيروز ليصدحا بسهرية حب يا الله ، هل يمكن أن أجن قبل أن أغادر ، قبل أن أصل ؟

بجانبي في قاعة الانتظار كانت تجلس امرأة جميلة الشكل ، أنيق لباسها، عطرها يغري ، اقتربت منها سألتها عن وجهتها ؟

-فقالت : بيروت .

ابتسمت ، هل أنت لبنانية سيدتي ؟

قالت : نعم .

وتقيمين في بيروت.

أجابت :أيضا بنعم!!

وددت أن أستفسر منك عن بعض الأشياء سيدتي.

ابتسمت وقالت : وكأنها عرفت عن ماذا سأسال، ستصل ، وستجد أن خيالك والصور المرسومة في ذهنك كلها خاطئة.

عن ماذا تتكلمين سيدتي !!فقط وددت السؤال عن المناطق السياحية في بيروت.

-قالت : كل بيروت جميلة وتستحق أن تشاهدها.

تبادلنا أطراف الحديث ، فبدأت صورة لبنان تتغير ، وصورة اللبناني تتغير كذلك، وبدأت لعناتي تتشكل على أولئك الذين يشهدون بما لم يروا، ويقولون ما لا يعلمون؛ حدثتني كثيراً وحدثتها كثيراً ، حدثتني عن الأردن بلسان عاشق ، حدثتني عن الأماكن التي زارتها ، قالت جرش مدينة تاريخ ، عجلون أرض الخضرة ، وإربد وأم قيس جذور تمتد لتعلمنا عن أناس ، ورثناهم ، وما كنا نستحق إرثهم.

-ابتسمت وقلت : وأين البتراء ؟ ووادي القمر (رم)؟ أين الكرك والطفيلة والبحر الميت من زيارتك ؟

قالت في الرحلة القادمة

- هل أتيت للسياحة سيدتي.

-ردت بل للعلاج.

***

من المطار إلى المطار

وأستيقظ من الحلم على النداء (على السادة المغادرين لبيروت على الرحلة رقم 311) التوجه للبوابة رقم (8)، نهضت كمن لسعته النار أو لدغته عقرب ، حملت حقيبتي الصغيرة وركضت ، جواز السفر بيدي وبداخله التذكرة ، وصلت إلى الموظفة ، قلبت جواز السفر، تأكدت من التذكرة ، ابتسمت وهي تسلمني جواز سفري وتذكرتي و هي تقول: أهلا وسهلا تفضل من هنا .

أغادر عبر ممر طويل ، المسافة طويلة بين البوابة والطائرة ، الممر طويل طويل وللحظة تخيلتهاأطول من عمري الماضي كله ، كنت على الهاتف مع إحدى الأخوات ، وأنا أعبر هذا الممر لكي لا أشعر بطوله ، وأخيراً وصلت؛من بعيد أقرأ على الطائرة من الخارج (طيران الشرق الأوسط)، وما أن وقفت على باب الطائرة إذ فوجئت بوحشين يقفان على بابها ، انتفض قلبي خوفاً ، استلما التذكرة ، سلماها لمن تقف ورائهما، يا الله الآن بررت سر وجود هذان الوحشان ، بالتأكيد ليحميا هذه الحورية الهابطة من الجنة.

هل هي أنثى أم كتلة من نور ؟ ابتسامتها تنم عن رقة وأنوثة طاغية ، من أين يأتون بالحسان ؟ أتراهم يعرفون سر ضعفي ؟وأن الأنثى سر جنوني .

قالت: أهلا وسهلا وسارت أمامي إلى حيث مقعدي ، أتأمل خصرها الذي تقاسمته التنورة القصيرة والقميص الأبيض ، لم تنتبه لعيني التي اجتازت كل الحواجز وسكنت حيث تريد السكن ، فجأة قالت: تفضل.

مكان جلوسي بجانب النافذة ، قليل من الوقت ، وعادت حسناء أخرى ترافق حسناء ، جلست لجانبي ، أشعلت سيجارتي ، ملتح يجلس خلفي ، مع امرأة وأظنهما كانا أردنيان يردد : أعوذ بالله ، ما زلنا في بداية رمضان والإفطار بات علنا ، بلا حياء ولا ورع ، سكنني الصمت وابتسامة تعلو وجهي ، وأنا أردد بداخلي : كيف لي أن أصوم وهذا الجمال يستقبلني على باب الطائرة والعطر يملأ أنفاسي من هذه التي تسكن بجواري .

المرأة التي تجلس بجانب هذا الملتحي شككت بأردنيتها لما سمعت منها عن الأردن.

بدأت الروح ترفرف وتردد :قليل من الوقت أو كثير لا أدري ، حتى جاء الصوت على جميع السادة المسافرين الامتناع عن التدخين وربط أحزمة الأمان وعدم استخدام الهواتف،وبدأ هدير الطائرة وبدأت أتابع الأرض من النافذة ،

الطائرة تسير ببطء على المدرج، وأنا أقول: هيا أسرعي، حلقي بسرعة ، أرغب بأن أدوس عنق الغيم ، أن أشق صدر الهواء ، وبدأت الطائرة بالتحليق ، وأنا أحلق بخيالي بعيداً ، كيف سيكون استقبالي ؟ كيف سأرى بيروت ؟ كيف سأركض بشوارعها ؟ وكأنني أعرفها كما أعرف عمان ، ونسيت بأني لا أعرف فيها شيئاً ، وأجيب نفسي : معي من يعرفني على بيروت .

الطائرة تبدأ بالارتفاع وكأنها ترتقي سلما نحو السماء ،الأرض تبتعد والزرقة تدنو ، وصلنا الغيم ، ضحكت من أعماقي ، سألتني: التي تسكن بجانبي وأتعبت عيني .

- ما بك؟ ولم هذه الضحكة المجنونة ؟

أجبت : شققنا صدر الغيم العاقر.

قالت وسنكون فوقه.

قلت : سندوس رأس الغيم ونسير.

قالت :أقل من ساعة ، ونهبط من جديد ويعلو الغيم من جديد ليسخر ويردد من يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، لك يوم ولي باقي الأيام .

الله على كلماتها الرائعة ، كلماتها الشاعرية ، ليس مهما ما سيكون ؟ المهم ما هو كائن الآن ، أتدرين ماذا أتمنى؟

-قالت : ماذا؟

ابتسمت وقلت أن أمد يدي من النافذة لأعبث بالغيم.

وما إن استقرت الطائرة في عليائها حتى أحضرت الفاتنة وجبة الإفطار، وضعته أمامي وهي تقول : تفضل ، يا الله ، أهذا صوت بشري ، أم معزوفة ناي، أو ترنيمة كمان ، بعد تقديم وجبة الإفطار بدأت بتوزيع القهوة والشاي على الركاب ، ولأنني أعشق السيجارة أمتنعت عن تناول أي مشروب.

أقلب صفحات الجريدة وأخبار لبنان ، والطائرة تقطع المسافات ، تجوس الفضاء ، أجنحتها تتراقص كفاتنة ، وبين فترة وأخرى أنادي المضيفة لأمتع عيني برؤيتها وبحجة سؤالها أين نحن ؟ أو كم بقي من الوقت حتى نصل ؟

كل الأرض تحتنا تتشابه ، أنا لم أعد أرغب بالهبوط ، تمتلكني رغبة عارمة و أمنية أن ألقي بجميع المسافرين وأبقى مع تلك المضيفة المتألقة بلباسها الرائع بحديثها الساحرة بابتسامتها ، يا رب من أين أتت بالجمال هذا كله ؟وما أن تغيب عن عيني حتى أناديها لتشرح لي عن المنطقة التي نحلق فوقها .

وجاء نداء الإبلاغ على ضرورة ربط الأحزمة؛ لأن الطائرة ستهبط خلال دقائق ، كان البحريتجلى بمنظره الخلاب ، بموجه الساحر والذي كان يبدو للعين كبنايات من فضة قد شيدت،رغبة عارمة تجتاحني الآن لأن أقفز للبحر ، أداعب موجه ، أسمع قصيدته العاشقة .

توقفت الطائرة ، بدأنا الهبوط ، سرنا في الصالة ، وصلت لموظفة المطار، قلبت جواز سفري ووضعته جانباً ، سألتني كثيراً ، عن مدة إقامتي ، العنوان الذي سأقيم فيه ولم أستطع الإجابة على أي من هذه الأسئلة ، كل ما أعرفه أن مضيفي في الخارج ينتظرني ، نظرت إليّ الموظفة وقالت لي انتظر هنا .

بعد استلام موظفة المطار لجوازات السفر بدأت المعاناة ، حيث تم اقتيادنا إلى مركز أمن المطار ، وهنا نجلس لانتظار الإجراءات ، لا أحد يجيب على أسئلتك ، إن كررت السؤال نهرك شرطي وقال اصمت .

عشر ساعات مرت ، والحيرة تسكنني ومن معي من أردنيين ونحن لا نعلم إن كنا سنعود أدراجنا ، أو سنعبر إلى بيروت ، وصلت الساعة التاسعة ليلاً ، وتم الإفراج عني والسماح لي وشخص آخر بدخول بيروت،فقط حين غادرت المطار عرفت سر احتجازي كل هذا الوقت.

***

من مطار رفيق الحريري إلى الدكوانة

غادرت المطار وكان بانتظاري ملائكة الله على الأرض ، أبو نجيب على رأس المستقبلين، أبو نجيب هذا الإنسان الذي يشبه الملائكة، بهدوئه بحديثه، بطريقة تعامله صافحني بحرارة، وكأنه يعرفني من سنين.

يا الله كم تمنيت أن أحمل بعضاً من هدوئه.

إنجيليا : لا أبداً ، ليست من طينتنا ، إن كانت بشراً فهي من طينة أخرى، من طينة ما حملت إلا الطهر ، والعفوية والطيبة ، ما عرفت إلا الصدق ، ملامحها تعكس داخلها النقي بشكل جلي ، تشعر بالطمأنينة لها من أول نظرة.

الشاعر إلياس الغزي : إنسان بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، صابر على تقلبات الحياة ، إنسان يعاني الكثير ، ومع ذلك لا تفارقه الابتسامة ، ولا تبتعد عنه خفة الروح ولا يعترف باليأس ويردد أن دوماً الغد أجمل وأفضل .

إنجي : هذه الطفلة ، هذه الصبية ، هي البراءة ، أولى كلماتها لي خالي ، إن نظرت إليك تشعر إنها تتفحصك ، ابتسامتها لا تفارقها ، إنجي كان لها من اسمها النصيب الأكبر .

مولي: هذه الإثيوبية السمراء النحيلة صاحبة الضحكة الرقيقة ، والتي ما نطقت اسمي في مرة بشكل صحيح .

لا أدري أية مشاعر سكنتني وأنا أصافحهم ، وأرافقهم إلى حيث هناك ، إلى حيث بيتهم، أعمدة الكهرباء تقف كطابور من حرس متيقظ ، ينثرالنور بكل الاتجاهات وكأني به يتفقد الشوارع ويتأمل العابرين ، من خلف النوافذ تلاحظ الأنوار ككواكب تستقبلك .

كنت أنظر للنوافذ وهي ترسل بأشعتها ، وكأنها تناديني ، تفر الروح إليها ، السيارة لا تتوقف ، فتتجاوز النافذة لتسقط عينك على أخرى .

وأتساءل : أترى ذاك الشعاع الذي ترسله النوافذ هو نور مصابيح ؟ أم هو ما ترسله عيون الصبايا والنساء الجميلات ؟ .

كان بي رغبة عارمة أن أهمس لإنجيليا بأن نأخذ المسافة من مطار رفيق الحريري للدكوانة سيراً على الأقدام ، النسمات تداعب الجسد كقبلة تبعث فيه الانتعاش ، أو أنها أصابع جميلة تدغدغ جسدك فترتسم فوق

الشفاه الابتسامة ، وفي القلب جلجلة ضحكة لا تصمت ، وأتمنى أن لا تصمت .

كانت بي رغبة قوية بأن نسير من المطار إلى البيت مشيا ، لعل خطوتي تلتصق على الرصيف ، أو أغمض عيني أثناء مسيري لأشتم عطراً مختلفاً ، أو أكتب اسمى على أعمدة الكهرباء ، ولكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه .

كانت رغبتي تبدو واضحة على ملامحي ، وعندما سألتني إنجيليا (أم نجيب) ما بك؟ سكنني صمت غريب ، صمت يشبه صمت الموت، اشتاق للحظة أهبط فيها من الجيب شيروكي لأشعل سيجارتي التي انقطعت عنها ما يقارب عشر ساعات .

الطريق قصير أكثر مما ينبغي من المطار إلى الدكوانة، آه الدكوانة وما أدراك ما الدكوانة.

أبو نجيب : هذا الملاك الإنسان ، وتلك الحورية إنجيليا ، والصغيرة الجميلة إنجي ، أنسوني معاناة المطار وما مر بي خلال عشر ساعات طوال ، أنسوني الجوع و هجرة السيجارة ، فهي المرة الأولى التي أهجر معشوقتي، سيجارتي وقهوتي لفترة كهذه الفترة .

قبل وصولنا للدكوانة طلبت من أبي نجيب أن يقف على ذلك الجسر المعلق ، وطارت بي الذاكرة والخيال إلى جسر عبدون ، توقف بالرغم من ممنوعية الوقوف ، ربما توقف دقيقتين أو ثلاثة ، هبطت من السيارة الجيب شروكي ، ورحت أتلفت يميناً ويساراًوأمامي وخلفي ، هل اختلفت الأنوار ؟أم أن نظرتي هي التي اختلفت ؟ أم تراها رائحة العطور التي تطوقني غيرت الألوان؟

عاودنا مسيرنا ، حتى وصلنا إلى البيت ، وكنت قد شعرت بصداع غريب ، صداع لم احتمله ، صداع سببته المعاناة التي أوجعتني والفرح الذي أغرقني .

وأردد بداخلي: كم أنت عظيم يا مارك ، يا صاحب موقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك)) لولاك ما تحققت أمنيتي ، ما وطئت قدمي أرض بيروت ، وما تعرفت لي تلك الحورية المربية ، الصديقة والأخت إنجيلياوما صافحت إنجي ووالدها .

يا الله كم هو رائع الليل هنا ، كم جميلة تلك النجوم التي تزين سماء بيروت ، أي نسيم هذا الذي يداعب وجنتي؟

هبطت من المركبة في موقف العمارة ، ركضت إلى الصيدلية ، أحضرت مسكنا للصداع ، ومررت بسوبر ماركت ابتعت منه سجائري المفضلة ، الغضب باديا على محيا مضيفي ، وأختي الرائعة ، عاتباني بقولهما: لماذا يا محمد،أنت ضيفنا؟

لم أجب وسكنني الصمت .

صعدنا في المصعد الكهربائي إلى الطابق السادس ، وما أن دلفنا البيت ، حتى قادني أبو نجيب إلى غرفتي وقال : هذه غرفة ابني وهو مسافر، وأنت ابني الآن فلتكن مكانه.

يااااااااا الله ، أي ثقة أتمتع بها الآن؟ وكيف أرد عليها ؟ إلى أين تأخذني ؟وكيف له أن يمنحني كل هذه المشاعر وهي المرة الأولى التي يراني بها ؟

إنجيليا أبت إلا أن أناديها باسمها دون لقب أو كنية ، أول أمر يصدر من أبي نجيب ، الآن عليك أن تدخل الحمام ، وتخرج بلا هذه اللحية وتنسى اللون الأسود ، استغربت هذا الطلب ولكنه فسره لي ، فلبيت .

دخلت إلى الحمام ، اغتسلت حلقت ذقني ، تعطرت ، وخرجت وإذ بالعشاء جاهز ، كنت في الليلة الأولى خجلاً جداً ، تناولت لقيمات معدودا ت ودخلت للغرفة المخصصة تفقدتها .

وجدتها مزينة بالصور وحبال الزينة الكهربائية ، عثرت على ثلاثة مصاحف وكثير من التفاسير لابن كثير، تفسير ابن وهب ، و الطبري، والقرطبي ومعاني القرآن للزجاج . وغيرهم من المفسرين ، وكتب لابن تيمية وغيره من العلماء.

جلست وبدأت أقارن بيننا كأردنيين وتفاخرنا بالكرم والعطاء ، الآن عرفت إننا تلاميذ في مدرسة هؤلاء الناس ، هنا تتعلم كيف تمنح الثقة ، وكيف يكون الكرم على أصوله ، أقسم لو منحت القدرة لحذفت ذاك الطائي من قاموس الكرم والجود وأضفت اسم أبي نجيب وأهل بيته ،عدت للفيسبوك ، وكتبت : الآن أنتشي فرحا ، الأن أنا في بيروت ، بيروت المزنرة بالزرقة ، المزنرة بالبحر .

بقيت مستيقظاً ، كانت الساعة تقارب الثانية صباحاً حين أتتني القهوة ، وعلبة من البيرة وبعض الشوكلاتة ، احترت أأختار البيرة ، أم القهوة ؟ وأخيراً قلت لن أبقي على شيء ، اخترت البيرة ، شربتها ، الخيال سابح في عالم الجمال اللبناني ، وصور الحسان تتداعى أمامي منهن من أعرفها ،

ومنهن من لا أعرف ، نكهة البيرة تطير بي بعيداً ، حيث أمازح هذه ، وأشعل في هذه ناراً لذيذة ، تلك أشاكسها بجنون فتشتمني بطريقة أكثر من رائعة ، شتيمتها كانت كمعزوفة كمان ، حتى تمنيت أن تكون تحية الصباح شتيمة منها .

وما أن أنهيت ارتشافها وأنا محلق معها في فضاءات لبنان ، وأتساءل إلى أين سنتجه غداً؟

حاولت أن أسأل إنجيليا ، ولكنها لم تجب ، وما أن أنهيت كأس البيرة حتى شعرت بالنعاس فاستنجدت بالقهوة التي أنقذتني وتعاونت مع السيجارة ، خرجت للشرفة أتأمل الأضواء ، أتأمل القمر يداعب صدر السماء ، يدغدها .. فتضحك ، يغازل النجوم ، وأتخيل ما وراء تلك النوافذ أو الستائر ، كان يخيل إليّ أني أخترقها وأعبر تلك البيوت أتحدث مع أصحابها وحسانها ، تليفوني مرتبط بالفيس بوك ، أتواصل مع الأصدقاء والصديقات في لبنان ، ومفاجأة كانت حين تواصلت معي حورية أخرى ، كانت أكثر من صديقة بكثير ، فرحت ، غضبت ، خفت ، لم لا أدري .

جاءت الثامنة صباحاً ، وجاء الصوت الملائكي : محمد فوء ، حين جاءني صوتها الملائكي كنت أتأمل الشمس وهي تهتك ستر الغيم ،

تفض بكارة العتمة ، وتبعث في الجسد حرارة أخرى تضاف لحرارة الشوق للهبوط للشوارع ، أرغب بمداعبة الطرق والأشجار ، وممازحة الجمال ، رددت : وأنا أضحك فايق .

دخلت إلى الحمام أخذت حماماً سريعاً ، توجهنا إلى المطبخ ، جاءت الملاك إنجي ، ألقت بتحية الصباح فرددتها لها ، طبعت قبلتها على خدي، تناولت قهوتي، أشعلت سيجارتي ، نهض أبو نجيب، أصدر أمره الثاني وقال : يمنع التدخين قبل الإفطار ، هززت رأسي مبتسماً، وقلت: حسناً ، وبداخلي أقول أدخن عشر سجائر قبل أن أخرج لتناول الوجبة الأولى ، نهضت إنجيليا وإنجي وقفتا بالباب وقالت أم نجيب هيا

-إلى أين؟

-لا تسأل .

-حسنا هيا ، وهبطنا وأنا أتسأل إلى أين؟

***

إلى الجنوب

لم أنم ليل الجمعة كما الأيام الثلاثة السابقة ، أسأل نفسي هل حقا أنا في أرض الفينيق؟

هل حقا أنا بالقرب من جبل لبنان ؟ هل حقا أنا بالقرب من لونا ؟ هل أنا حقا في الأرض التي بدأت التحرك و الثورة ضد الدولة السلجوقية؟

وهنا تتراءى لي عمان بكل تفاصيلها بكل حواريها وشوارعها ، أنفاقها جسورها ، بخليطها المكون من كل الجنسيات ، لا فرق بين ربة عمون وبيروت ، فالتشابه موجود ، آه لو منحت عمان بحراً ، ألعن ذاكرتي وأتمنى لو تثقب لأنسى كل شيء إلا بيروت ولبنان، وهؤلاء الناس الرائعين .

أسألني : لم عمان تتراءى لي في كل مكان أزوره ؟ أهرب منها ، فتتجلى أكثر،

تسللت الشمس من النافذة كفراشة ، لتداعب عيوني ، وأطالع وجه الدكوانة البهي البديع.

نهضت من سريري ، وقفت على النافذة ، أخذت شهيقا مختلفا ، أزفره ببطء شديد وكأني لا أود أن أخرج هواء بيروت من صدري ، شهيق وزفير ، وكأني أخبئ بصدري عطر بيروت وحسانها .

يدي تمتد نحو الشمس ، آه أيتها الشمس لو أنك تهبطين للبحر الآن ، لسرحت بيدي شعرك ، وانصهرت فيك ، آه أيتها الشمس ، لو أن الأمر بيدي فوالذي خلقك ما أتعبتك بالدوران حول العالم ولأبقيتك مشرقة على بلاد الشام ، الله .. بلاد الشام؛ عمان، دمشق ، بيروت، وقدسنا الأميرة الحلوة ، آه بلاد الشام .

هنا حلق طائر الفينيق وعاد من الرماد للحياة ، هنا توسلت العنقاء للألهة كي تداوي النعمان التي نالت منه السهام وهنا صار دمه نهراً، في هذه البلاد تشكلت الحروف ، وكانت أولى القصائد ، وكان أول الحب ، في بلاد الشام جلجامش والنعمان، في بلاد الشام أرض الأولياء والأنبياء .

أستيقظ من دوامة أفكاري على صوت يحمل من الرقة ما تحمله خيوط الفجر ، ومن الطهر ما يحمله ماء البحر، هيا محمد ، يومنا طويل والرحلة ستبدأ .

خرجت من المنزل ترافقني إنجيليا وإنجي ، وكان قد سبقنا أبو نجيب ، وعندما وصلنا إليه كانت تقف عنده شقيقة زوج ابنته ، صبية ربما لم تصل العشرين من عمرها بعد ، صافحتها وقالت إنجيليا : ساندي شقيقة زوج ابنتي .

يا الله كيف يختارون الأسماء التي تتطابق معهم ، ساندي يا إلهي ما أجمل

هذا الاسم وما أبهى معناه ، ساندي ((اسم الدلع لساندرا)) ساندرا هذا الاسم اليوناني الذي يعني المتألقة والمتوهجة .

أخذتني دائرة الأسئلة بعيدا وأنا أصعد السيارة على مهل، وأقول لله دركم أيها اللبنانيون ، كم أنتم ذواقون بكل شيء ، تختارون الأشياء بدقة، لا غرابة إن منحتم من الجمال أكمله، ومن الخير والطيبة أجزلها ، فهكذا تكون النعم .

ألقيت عليه تحية الصباح ، ووقفت أمام السيارة ، أتفقد المكان أبحث عن علامة مميزة للشارع والبيت ، لأميز المكان إن حصل وخرجت وحيداً ، و أبحث عن حسناء أملأ بها عيوني قبل أن نغادر الدكوانة، نادى أبو نجيب محمد هيا المشوار طويل، لا تبحث عن شيء كل شيء سنجده أمامنا.

رددت وأنا أبادله الابتسامة بمثلها ، لا أبحث عن شيء أبا نجيب.

رد : وهو متأكد إني أبحث عن شيء ما ، إذا هيا .

صعدت في المقعد الأمامي وجلست إنجلياوإنجي وساندرا في المقعد الخلفي ، أدار أبو نجيب محرك السيارة ، وبدأت تتهادى فوق جبين الشارع ، لا أدري إن كانت العجلات تدوس الشارع أم تلاعبه أو ربما كان الشارع يماحك الإطارات ويدغدغها فتضحك وتسرح شعره .

ولا أدري كيف نطقت : أبا نجيب لا تسرع أريد أن أرى لبنان وأريد

منك أن تعرفني بالمناطق التي ندخلها.

ضحك وقال : حسنا ، نحن الآن نغادر الدكوانه باتجاه الجنوب ، وكأبله سألته : جنوب لبنان ، ضحكت إنجلياوإنجي وساندرا، وقالت إنجيليا: لا جنوب الأردن، وفي خضم الحديث والنكات والضحكات ناولتني إنجيليا فنجان قهوتي ، نظرت إليها وقلت : أنت تعلمين بأني لا أشرب القهوة إلا بمعية السيجارة والتدخين ممنوع. قالت: فقط خذها من يدي ، تناولت الفنجان ، القهوة تنادي فمي ، وقلبي ينادي السيجارة لتكتمل المتعة ، ولكن لا يمكنني أن ألبي نداء القلب إلا إن توقفنا ، لذا سأرفض هذا نداء ، وأرفض نداء القهوة ، سأتأمل الشارع وما يمر به لأنسى السيجارة وهذه التي في يدي .

فجأة توقفت السيارة ، أطفأ محركها ، وهبطنا .

- قال أبو نجيب:محمد هل تعرف ما هذه المنطقة ؟
- قلت بيروت أكيد .

- قال نعم، ولكن هل تعرف أي قسم في بيروت؟
- قلت لا.

-قال : هذه الضاحية الجنوبية؟

هنا أخذتني الذاكرة إلى حيث البعيد ، إلى حيث الاجتياح الإسرائيليعام

82 وما بعد هذا العام ، أثار العدوان ما زالت ماثلة ، صحيح أن بعض المباني قامت من جديد لتعلن التحدي ، وبقيت بعض الأماكن شاهدة وأظنها ستبقى لتذكر القادم من الأجيال بمعني الوطن والمقاومة ، والتضحية.

من هنا كانت المقاومة لحماية بيروت ، هنا وهنا وهنا .

وما أن أكملت سيجارتي وبعضا من فنجان قهوتي حتى صعدنا إلى السيارة لتعود وتغازل الشارع من جديد، سرنا قليلاً من الوقت ، وإذا بأبي نجيب يقول تلك المنطقة التي تقابلنا اسمها خلدا ، تابعنا مسيرنا فقالت إنجيليا وتلك المنطقة اسمها الناعمة ، وبعد كانت دوحة الحص ثم كانت الدامور .

قلت : أبا نجيب لنهبط لأرى الدامور لأني سمعت عنها .

فقال : سنمر بها في الرحلة القادمة ، لأننا الآن في طريقنا للجنوب وسنتوقف كثيراً لنحصل على تصريح لك للدخول .

حسنا .

تجاوزنا الدامور إلى الجبة والرميلةوكان الوقوف هناك ، حيث عروس البحر ، ثم كانت عاصمة الجنوب ، إنها صيدا ، توقفنا ، و راحت

الذاكرة إلى العام 2013 حيث كانت ضيفتنا في عمان الشاعرة وفاء الزعتري .

وفاء الزعتري التي ألحت كثيراً لزيارتها لتقدم واجب الضيافة، وتجود كما هم اللبنانيون جميعا ، ولكن سحر لبنان جعلني أعتذر عن تلبية الدعوة، توقفت السيارة وهبطنا على الحاجز الأمني.

رافقت أبا نجيب باتجاه المركز الأمني للحصول على التصريح اللازم للدخول للجنوب ، لم نجد المسؤول المفوض بالتوقيع على التصريح والموافقة ، وكم تضايقت وجدا من هذا الوضع ، والذي ضايقني أكثر مصطلح أجنبي الذي أطلق عليّ ، ولكني لم أظهر ضيقي ، ولم أكن أعلم بأنه يطلق على من لا يحمل الجنسية اللبنانية .

حولنا الموظف الموجود لمكتب آخر ذهبنا إليه ، فلم نجد من يملك صلاحية التوقيع على التصريح.

إنجيليا .. وإنجي وساندرا ينتظرن بالقرب من السيارة ، خرجت مع أبي نجيب والأسئلة تمطرني ، أنا ابن هذه البلاد ، بلاد الشام كيف أكنى بالأجنبي ؟ غادرنا المكان ، وبدأت أتفقد الشارع الرئيسي لصيدا ، وما بها من معالم ظاهرة ، وإحساسي يكبر بأني لن أرى من الجنوب أبعد من

صيدا ، وسؤالي يكبر،أذن لي أن أدخل لبنان الدولة ، فكيف أحتاج بعد إذن الدولة لإذن آخر لكي أعبر أرضا تحت سيادة الدولة نفسها ؟ وكأن أبا نجيب عرف ما يدور في ذهني ، فابتسم وقال : أين تحب أن نتناول غدائنا ، في النبطية أم إبل السقي ، أم حاصبيا ؟

قلت : في البيت.

فرد والابتسامة تعلو شفتيه: لا .. سنتناول غدائنا وقهوتنا في الجنوب.

ركبنا السيارة واتجهنا للجنوب ، نتوقف على الإشارة الضوئية ، التفت إلى اليمين يلفت انتباهي ذلك المسجد الضخم ، وقد كتب عليه مسجد بهاء الحريري، هل هذا مسجد أم قصر ؟ هل هو بيت للعبادة أم تحفة للتأمل؟إن كان بهذا الشكل من الخارج فكيف سيكون من الداخل؟ هل يمكن للمصلي فيه أن يخشع أم تأخذه الجمالية بعيداً عن صلاته ؟ نتابع مسيرنا، على الجهة اليسرى مخيم عين الحلوة ، وعندما أعلنت رغبتي بدخوله أتي الرد انه يستوجب تصريحا وأناسا في المخيم يعرفونني وللأسف لم أكن أعرف أحداً .

يا الله ، لم كل هذه المضايقات ؟ هذا مخيم في لبنان ورحت من جديد في رحلة مقارنة بين المخيمات في الأردن والمخيمات في لبنان .

ندخل النبطية ، وفيها نذهب إلى مبنى الأمن العسكري ، وكان الأمر سهلاً جداً حيث قوبلنا بكل احترام وتقدير من مسؤول المكتب الذي منحنا التصريح وأبلغ الحواجز العسكرية ، أننا قادمون وأظنه أبلغهم أسماءنا .

فضاءات من السعادة سكنتني وغيوم الفرح تمطر روحي ، سأدخل الجنوب ، ولم أكن أعرف من الجنوب اللبناني إلا بقاعه . توقفنا بجانب سوبر ماركت ضخم في النبطية ، دخلنا إليه ، ابتعنا منه الماء وبعض المأكولات السريعة والتي كانت على الأغلب الشيبس والبسكويت المغطى بالشوكلاتة، وكانت فرصة لي لأشعل سيجارتي وأتبعها بأخرى .. وأخري ، أداعب السيجارة وكأنها معشوقة غابت عني عمرا ، أو كأنها حبيبة اشتد شوقي إليها ، نتابع مسيرنا نحو الجنوب ، نخرج من النبطية فنصل إلى كفار تنين بمبانيها التي تشبه مباني قرانا البعيدة عن العاصمة؛ القرى الفقيرة ، ومنها نصل عبر طريق ضيق ومتعرج إلى منطقة الخيام ، بعد منطقة الخيام تتوقف السيارة كي أدخن، أهبط من السيارة على يساري أرض ممتدة وقد تزينت بالخضرة وعلى اليمين منطقة مختلفة بكل شيء ، حاولت أن اقترب من المنطقة الجميلة، ذات العمران البهي ، فناداني أبو نجيب وإنجيليا وطلبا مني أن لا

أتجاوز بالسير نحو تلك المنطقة ارتعدت وعدت ، ما بك أبا نجيب ؟ لماذا أعدتني ؟

- قال هذه مستعمرة إسرائيلية.
- نعم قلت مستغربا !!!.

- قال هذه مستعمرة إسرائيلية من شمال فلسطين ، اسمها العربي المطلة (والإسرائيليون) يسمونها كريات شمون .

هيا أبا نجيب لنغادر هذه المنطقة قلتها والقهر بات واضحا على وجهي وفي نبرة صوتي ، قلتها وأنا ألعن أمة العرب قاطبة من محيطها لخليجها ، هذه الأمة التي فرطت فذلت .

نتابع المسير باتجاه الجنوب ونعبر البقاع الجنوبي ، نصل إلى إبل السقي ، ننحني إلى اليمين ، تتسلق السيارة مرتفعاً بسيطاً، ومن ثم نتناول السهل لمسافة قليلة ، الأشجار تحيطك من كل اتجاه وكأنها جنود تناثروا بكل الجهات لحراستك ندخل البيت .

أين نحن أبا نجيب ؟

تجيب إنجيليا : نحن في بيتنا ، أتجول حوله وبين الأشجار المثمرة ، الرمان هنا يجاوره الليمون وكأن الأشجار حسان ، وكأن الثمار نهود

ساحرة تغريك،تناديك أن تداعبها أو تقطفها ، وكأن الثمار نهود تشتاق لفم يمتص رحيقها يقضمها أو يد تداعبها ، أتابع جولتي حول البيت هناك في الخلف أشجار الخروب والدراق ، وما شابه من الفواكه ، أعود لأبي نجيب ، ألومه على إهماله لهذه الأشجار وأرضها وترك الأعشاب تتسلق سيقانها وكأنها رداء تغطي سوءة الشجر الشامخ .

يبتسم ويرد: لا وقت لدي، وبدأ رحلة ري الزهور المزروعة بشكل منتظم جذاب ، الجوري يزهو بألوان زهوره ، والحبق يفوح بعطره .

جلسنا قليلاً من الوقت تناولنا قهوتنا ، وعدت لمغازلة سجائري وما أن تنطفئ واحدة حتى أشعل الأخرى ، لأني أعتقدت المسافة التي سنقطعها طويلة .

ينادي أبو نجيب : هل لنا أن نغادر إني أشعر بالجوع ، امتطينا صهوة السيارة وغادرنا إبل السقي ، وما هي إلا دقائق حتى وصلنا حاصبيا .

تابعنا مسيرنا إلى نهاية الطريق حتى وصلنا إلى استراحة كبيرة سميت (البحصاصة) دخلنا إليها ذهلت وجدا ، من كثرة الحسان من مختلف الأعمار تنتشر كالفراشات على المقاعد وفي ساحة المطعم الكبيرة ، العطر يحاصرني من كل الجهات ، يا رب وهبتني من العيون اثنتين فقط، وحاسة شم واحدة ، وهنا لا تكفيني عينان وحاسة واحدة للشم بهما لا أستطيع حصر هذا الكم من الجمال ، يا الله أعني .

يلزمني الصمتوالتأمل بدلالهن، وصوت ضحكاتهن ، أمسك بورقة صغيرة ، وأبدأ بكتابة بعض ما يراودني من أحاسيس.

تسألني أم نجيب : عما أكتب؟

فأبتسم وأصمت .

فترد : هل بدأت رحلة الهلوسة؟

أجيبها : وهل يمكن أن أكون هنا وسط هذه الدوحة أو الجنة ولا أهلوس أو ترتفع حرارة روحي .

جلسنا على الطاولة المحجوزة لنا مسبقاً ، جلست بجانب النهر ، بجانبي أبو نجيب ، يقابلني إنجيليا وإنجي وساندرا ، أتابع الحسان يغادرن ويأتين ، وعيني تداعب كل آتية ومغادرة ، يسحرني تمايلهن رشاقة أجسادهن ، نداء تلك الأجساد ، فأردد في نفسي : أن اهدأ يا مجنون ، انسى كل شيء، فأنت برفقة الملائكة وفي رمضان، يالك من عيون شقية دعي النساء ودعي الجمال ، وتأملي النهر وما فيه .

جاء أحد العاملين في الاستراحة ، تناول أبو نجيب قائمة المأكولات ، وهمس في إذن الموظف ، وغادر ، قليلاً من الوقت وبدأ بإحضار المقبلات وعيوني تنهش كل ما تقع عليه ، أقطع الخبز وألقيه في النهر فيتجمع عليه السمك، كما تتجمع الفاتنات في قلبي .

- سألني أبو نجيب: هل تعرف ما اسم هذا النهر ؟

- فقلت لا .

هذا نهر الحصباني ، نسيت النساء والجمال ، نسيت حتى أبي نجيب ، وراحت ذاكرتي تطير إلى النهر المقدس نهر الأردن الذي جف ماؤه ، الحصباني يرفد نهر الأردن ، وهنا الماء جارياً ، والماء هنا صافيا كأهل هذه الأرض ، فكيف جف النهر المقدس ؟ رد أبو نجيب: إنها إسرائيل التي أقامت الحواجز وحولت مجرى النهر .

رددت: نتشارك في الماء والهواء ونسمي بعضنا أجانب .

حضر الطعام وحضرت البيرة ، أكلت ما يكفيني لأسبوع قادم ، تناولت من البيرة الشهية المثلجة ما يكفيني عمراً كاملاً ، و شبعت عيني من الحسان وروحي تنادي هل من مزيد.

بقينا في البحصاصة حتى الغروب وغادرنا ، وقد بدأ الليل يتهادى برفق على المكان وكأنه يكحل عيون لبنان .

وغادرناإلى حيث بيروت من جديد.

قبل أن نغادر ، التقينا بشيخ كبير يركب حمارا ، فطلبنا منه أن نلتقط معه صورة ، رفض وبشدة ونهرني بقوله تريد أن تنشرها على البيسبوك ، ضحكت حتى أصابني وجع في بطني ، ضحكت وضحكنا ، سرنا باتجاه بيروت ، وكلما سكت صوت ضحكنا ردد : أحدنا إنشرني على البيسبوك ، وكنت أستعيذ بالله من شر الضحك ، سمعتني إنجي ،

فسألتني لم هذه الاستعاذة من الضحك وقالت : الضحك دليل فرح ، والفرح حياة، سكنني الصمت ، ولما شعرت بعجزي عن الإجابة رحت أخربش هلوستي على الورق.

***

العودة من الجنوب إلى بيروت

إنجيليا تنادي هيا اقترب الليل ويجب أن نعود ، ألتفت إلى الخلف وأسأل أم نجيب هل سنعود إلى (إبل السقي) أم إلى بيروت ؟

قالت: إلى بيروت .

آه كم تمنيت أن نقضي ليلتنا في (إبل السقي).

صعدنا إلى السيارة وبدأت رحلة العودة ، وبدأت المركبة بتسلق ذاك الصعود ، وفي نهايته قال لي أبونجيب : هل تعرف تلك المنطقة محمد؟

قلت : لا .

قال: تلك شبعا.

هنا راحت مخيلتي من جديد إلى حيث البعيد ، هذه الأرض التي تطلق صواريخها باتجاه الغربان ، باتجاه أبناء القردة والخنازير دون أن تخشى قصفهم ونعيق طائراتهم، هذهالأرض التي تجعلهم يدخلون جحورهم كفئران ، شبعا تذكرني بطفولتي في الأغوار، في ديرعلا ، عندما كان الفدائيون يتسللون إلى الضفة الأخرى بتغطية وحماية من نشامى جيشنا

العربي ليقوموا بعملياتهم ، وكانت بعدها ديرعلا تنال من القصف الإسرائيلي الكثير، وتقدم الشهداء من المدنيين الواحد تلو الآخر .

عدت من بحر الطفولة أقارن بين أغوار الكرامة وشبعا الصمود والتحدي على صوت نصري شمس الدين وهو يصدح ((ع العالي الدار عليها))، أشعلت سيجارتي وبدأ أبو نجيب وأم نجيب يعرفاني بالمنطقة من جديد، وهذه مرج عيون التابعة للبقاع، أرض زراعية بامتياز، أرض طيبة كأهلها، كتاريخها، تعطي بلا حدود ، تستقبل النهارات بابتسامة المؤمن الواثق من عطاء ربه.

كنت أدخن بنهم ، كنت أشعل سجائري وكأني لن أدخن بعد هذه اللحظة

قلت :أبو نجيب هيا بنا ، وأرجو أن لا تتوقف إلا على حدود المطلة .

كانت الشمس تغازل البحر وهي تدنو منه لتستقر بأحضانه ، والبحر يعلن عن شوقة بتلاطم أمواجه، والشارع ينثر كحله على الكون ، والشوارع الضيقة بدأت بإشعال مصابيحها المتناثرة ، ورمضان يودع يومه الرابع .

يا الله كيف انقضى النهار بهذه السرعة ومرت ساعاته وكأنها نسمات هاربة ، تابعنا المسير،أنا أنظر ذات اليمين وذات الشمال حتى وصلنا إلى

حيث المطلة ، فقال أبو نجيب مبتسما :ها قد وصلنا إلى (كريات شمون) محمد .

فقلت : وصلنا المطلة أبا نجيب، فضحك وضحكت وضحكنا، يا الله ما أجمل الضحك على أرض لبنان ، وبرفقة ملائكة لبنان .

اهبط واشعل سيجارتك لتصحو من سكرات ما تسميه عطر الأرض والتاريخ، هبطت وجلست على مقدمة السيارة وأشعلت سيجارتي ، أتأمل أنوار المطلة ، وتراودني صور بعض الأصدقاء في الأراضي المحتلة لعام 48، فتحت صفحة الفيسبوك، وكتبت أنا الآن على مشارف المطلة (كريات شمون)، فسألتني إنجي هل فتحت البيسبوك، وعدنا للانفجار بالضحك من جديد.

وما هي إلا ثواني حتى جاء الرد من كفر مندا في الأراضي العربية المحتلة، وكان من الصديق الرائع عادل الزعبي حيث قال : وأنا هناك، على حافة البحر أنتظر قدومك نسيما يداعب الموج ، أو فوق مرتفعات الجليل أنتظرك ، لنصافح السماء ونوقظ الشمس من غفوتها. لا أدري ماذا كان ردي على الصديق الذي حقا تمنيت رؤيته ، وحقا أقول لولا أني خشيت الموت ونيران الذئاب لاجتزت الحاجز وركضت إليه . وقبل أن ينادي أبو نجيب أن هيا بنا استأذنته بإشعال سيجارة أخرى ،

لأتأمل تلك الأنوار في المطلة ، ولون الشارع الذي تناثر على البقاع ، كل الألوان فيه صارت لوناً واحداً هو الأسود ، إلا ما تنثره أعمدة الإنارة على الدرب ورصيفه، أكملت سيجارتي ، صعدنا إلى السيارة ، بدأنا المسير، وكأن أبا نجيب يريد أن يوصل لي شيئاً لم أفهمه حتى اللحظة ، الكون يتشح بالأسود، وهو يسير على مهل ووديع الصافي وفيروز يصدحان ، الطريق بات قصيراً، الدرب خال من المارة ، البيوت أنورها تتفلت من النوافذ وكأنها تناديك؛أن هنا يحلو السهر ،إن هنا ضحكات الجميلات اللائي ينسينك الدنيا ومن فيها ، هنا حرائر الجنوب أمهات الأبطال .

بدأ النعاس يداعب عيوني من أثر النسيم الذي يدغدغ جسدي، وإنجيليا من الخلف تقول اقتربنا الآن من النبطية .
تضحك إنجي وهي تردد لا تخبريه ماما هلق يفتح البيسبوك؛ لتعلو أصوات ضحكاتنا في السيارة، ونتابع المسير ، أبو نجيب يصر أن يسير ببطء ، وكلما طلبت منه زيادة السرعة يقول لي بأن الدرب وعر وملتو، حتى وصلنا النبطية وهنا توقفنا .

- ما بك أبا نجيب لما توقفت؟

-قال : لتدخن ، أتعرف أين نحن ؟

قلت : بالطبع نحن في النبطية .

قال : أتعرف ماذا يقع جنوب النبطية ؟

قلت : لا .

قال :عجبا لكم ألا تتعلمون الجغرافيا ؟

للجنوب من هنا صور ، وقانا ، وعندما سمعت اسم قانا طارت ذاكرتي لنيسان 1996 م، وتلك المجزرة التي قامت بها قوات الاحتلال الإسرائيلي، والتي استشهد بها ما يزيد عن مئة شهيد إثر قصف قوات الاحتلال لمقر قوات حفظ السلام بعد لجوء المدنيين إليه، هرباً من عناقيد الغضب التي قصف بها الجنوب وصور تحديداً، جالت الدمعة في عيني ورحت ألعن أمة العرب من جديد التي ما عادت تعرف الثأر ولا تستعيد حق أبنائها المسفوح دمهم على أيد نجسة، هيا أبا نجيب لا أريد الوقوف هنا أكثر .

سألني :ما بك ؟

قلت : لا شيء .

لا أدري لماذا جنوب لبنان أعادني لطفولتي وإلى ما قبل المدرسة بالرغم أني عجزت عن استذكار أي شيء حين حاولت الكتابة عن دير علا .

تابعنا مسيرنا ودخلنا صيدا المزدانة بأنوارها ومبانيها المتراصة على الشارع وتوقفنا بعد الإشارة الضوئية عند مخابز وأسواق شمسين (باتيسري)، تركتهم يتسوقون وعدت إلى الخلف ، أسير بجانب سور

مخيم عين الحلوة ، أسأل نفسي إلى متى أيها الشعب الأبي ستبقى رازحاً في المخيمات مشتتا في بلاد الدنيا ؟ في تلك اللحظة كفرت بنفسي وتمنيت لو لم أكن عربياً ، شعرت بالخجل من عروبتي التي رضيت بالذل وتأقلمت معه ، ماذا ورثنا عن الأجداد ؟ ماذا ورثنا عن ذلك الخليفة الذي سير جيشاً أوله في أنطاكيا وآخره في بغداد لينجد امرأة؟ والآن شعوب مشردة ونساء ثكلى أيتام ولا من يحرك ساكنا، عدت إلى السيارة بلون غير لوني، عدت مترنحاً وكأني ثمل، حقاً كنت ثملاً من الوجع.

صعدنا للسيارة من جديد والبوظة (الأيس كريم) بأيدينا وتابعنا مسيرنا إلى بيروت ، وفي الطريق بعد صيدا بقليل أخبرني أبونجيب أن المنطقة التي تقع على يميننا اسمها جزين، ما انتبهت لما قال ، لأني عرفت الآن معنى أن تصمد وتقاتل وحيداً لأجل عزتك وكرامتك ، تعلمت هذا جيداً من أبناء فلسطين الأبية، من أبناء لبنان التاريخ والحضارة.

وصلنا بيروت ، دخلنا للبيت ، قليل من الوقت وأحضرت الرائعة إنجيليا قهوتي فسألتها : هل من بيرة؟

فقالت : نعم.

قلت : أريد واحدة لعلي أنام ، أحضرتها .. ارتشفتها فكانت لي منبها،عدت لأجلس على النافذة لأنسى الذاكرة التي اشتعلت في رحلة

الجنوب ، أتأمل النوافذ وأتساءل من تقف خلف تلك الستارة، أتخيل أشكال من يجلسن خلف تلك الشبابيك، وما يرتدين من زينة ، وما ينثرن من عطر، وما أن أغرق في الحلم حتى يوقظ روحي وجع الجنوب .

في حوالي الحادية عشرة ليلاً جاءت إنجيليا لتجلس على البلكونة ، فرحت جداً بقدومها، وطلبت منها أن تسمعني ما كتبت ، فراحت تقرأ لي واقرأ لها نتناقش في نصوصها وهلوساتي حتى وقت متأخر من الليل، تركتني وغادرت وبقيت وحدي على النافذة حتى تنفس الفجر وفاح عطر الصباح ، وولدت الشمس من جديد لتخبرني بأن يوم آخر فر من رحلتك، وأصفع روحي بالسؤال لماذا الوقت الآن يسير بسرعة رهيبة؟ وعشر ساعات في المطار مرت كأنها عمر كامل. كم جميل هو السهر بصحبة الخيال وأنت تنتظر رحلة أخرى ووجوها أخرى.

***

إلى مار رُوكِز

كعادتي في الأيام السابقة بقيت ساهراً حتى مطلع الفجر أراقب ليل بيروت ، أراقب نجوم الدكوانة، أراقب النوافذ وأتخيل ما خلفها ، أتخيل حديثي مع تلك الحسناء ، وكيف نرتشف قهوتنا سويا ، وكالعادة أكتب هلوساتي بتلقائية تامة ، ضبطت المنبه على الخامسة فجراً لأراقب ميلاد النهار، وكيف للشمس أن تطارد آخر فلول العتمة في بيروت ،وألاحظ كيف يبدأ النهار مشواره ، أرتب نفسي على إن هذا اليوم استراحة، ولن نغادر الدكوانة،إذا سأمشيفي بيروت وحيداً، لكن كيف لي إن أسير في شوارع الدكوانة وحدي ، كيف سأضيع في شوارعها؟ كيف سأسير خلف أنثى تتلاشى من أمامي كتلاشي آخر نقاط الضوء في نهار كان يقف على أبواب المغيب ؟ وكيف لي أن أعود لأتابع تمايل امرأة أخرى ؟ كيف لي أن أستوقفها بحجة سؤالها عن أي الطرق أسلك لأعود إلى مكان سكني؟

كانت هذه الأيام تصادف أيام أعياد عند الأخوة المسيحيين، وهي أعياد ميلاد مار إلياس، مارروكز، وكانت الأديرة والكنائس والناس يستعدون للاحتفالات بهذه الأعياد.

بينما كنت غارقاً في أحلامي ، أتابع هذه ، وأتغزل بتلك ، وحفيدي الذي يسكنني أقسم لي أن لا يوسوس لي ما دمت في هذا البيت يغويني بالخروج ، يصور لي الطرقات ، النساء ، المقاهي ، الباعة في الطرقات ، طُرق الباب ليوقظني وينقذني من هذا الذي يداعب مخيلتي ، كانت إنجيليا تطل بالقهوة ردت تحية الصباح فرددتها لها وضعت القهوة وغادرت ، وقبل أن تغادر قالت : استعد سنذهب بعدالإفطار في رحلة داخل بيروت .

سألت إلى أين ؟

قالت ستعرف في وقتها.

حسناأنا مستعد، المهم أن أرى بيروت بكل ما فيها.

تناولنا إفطارنا أبا نجيب وإنجيليا وإنجي وأنا ، مولي تلك الرائعة الإثيوبية تقف هناك تنشغل بأمور أخرى ، أناديها مولي ستذهبين معي للأردن ؟

سألت بالطائرة ؟

-أجبتها بالتأكيد.

ارتعدت وقالت بلغة مكسرة:لا أنا ما فيه روح معك، أنا خاف من

طائر.

أكملنا إفطارنا ..استأذن أبو نجيب بالخروج .

وقالت إنجيليا : استعد محمد لنذهب الآن .

كانت الساعة تشير إلى العاشرة.

بدلت ملابسي وعدت

- سألت :هل أنت جاهز؟

-قلت :نعم .

قالت: إذن هيا .

هبطنا إنجيليا وإنجي وأنا إلى مرآب السيارات صعدت إلى الجيب شوروكي ،صعدت إلى جانبها، وصعدت إنجي في المقعد الخلفي .

أدارت محرك السيارة وبدأنا رحلتنا ، الشارع الخلفي للسكن والذي يمر بسوق الأحد ومن هناك إلى دوار أو ساحة جونيه ، نصعد الجسر على مهل ،صعدنا وهي تعرف لي المناطق التي نمر بها ، إنجي في المقعد الخلفي ، تضع سماعات الهاتف بأذنها وبصوتها الندي تغني مرة لفيروز وأخرى لملحم بركات ، شدني صوتها جداً، صوت ملائكي يجبرك على إبداء الإعجاب به ، صوت ينم عن موهبة مبشرة في الغناء .

في طريقنا التي تشعر إنه يصعد نحو السماء يعيد عمان للذاكرة عمان بكل ما فيها

قالت إنجي هذه ساحة الدكوانه .

قليل من الوقت عبرنا إلى ساحة معبدة تحيطها الأشجار من كل الجهات ، أشجار مثمرة وحراجية ، الزهور منسقة بشكل رائع ، كأن زارعها فنان ، كل ما فيها تم تنسيقه بشكل إبداعي ، الألوان التي تجبرك على الوقوف عندها ، سألت : أين نحن إنجيليا ؟

-قالت :نحن في دير مارروكز.

يا الله هل هذا دير ومكان للعبادة أم هو قصر أثري ، أم قصر لثري لبناني ، تجولت في المكان وكانت ترافقني إنجيليا وإنجي ، طفنا حوله ، تناولنا قهوتنا ، وقفت ببابه ، هذا بيت آخر من بيوت اللههنا يسكن الإيمان ، يقيم الطهر ، هنا صفاء النفس ، هنا تكون النفس ساكنة راضية كما تكون في أي معبد أو بيت من بيوت الله ، هنا يتجلى الإنسان بصدقه، وشفافية نفسه ، هنا وفقط هنا شعرت بأني أتعرى من كل شيء ، من كل ما هو دنيوي وأرتدي من هذا المعبد وهذا البيت ثوب الإنسانية الشفاف .

المكان ساحر بإطلالته على بيروت ، للأسفل منه ساحة الدكوانة ، من هنا ترى بيروت كلها ، بحرها برها شوارعها ، كل الأشياء إذا ما

نظرت إليها تبدو صغيرة، أو أصغر مما تتوقع .

طار الوقت سريعاً وسريعاًجداً، شارفت الشمس على المغيب ، ونحن هناك نلاعب الأطفال، حينا أتحدث مع الجميع ،وأستمتع بالأزهار حيناًآخر .

عدنا للسيارة من جديد ونحن نغنى للحياة .. للفرح ، للجمال ، عدنا طريقنا ، وفي طريق عودتنا من دير ماررركز كنت ألتقط الصور للشوارع والأبنية ، وكل ما صادفته عيني وتمكنت من تصويره ، لأني أعلم أنه لن تتاح لي فرصة العودة من جديد .

عدنا للبيت على أنغام صوت إنجي الدافئ الذي يعيد الروح لأيام شبابها ، عدنا وسؤال يجلدني : لماذا خلقت في هذا الزمن ؟ لماذا لم أخلق في زمن غير هذا الزمن؟ ترد الروح: ها أنت قد ولدت مرة أخرى وفي زمن أحببته وبين ناس أحببتهم، فكانوا لك أهلا، وبيتهم وقلوبهم لك موطناً .

***

جعيتا والإعجاز الإلهي

بعد العودة من دير مارروكز والاستمتاع بالنظر لبيروت العزة والإباء ، بيروت الجمال والبهاء ، بيروت الجميلات والفن، بيروت الإبداع الإلهي، السكينة وطمأنينة القلب التي أسرت كلي في دير مار رُوكِز، عدنا إلى الدكوانة لم أكن أعلم إلى أين سنتجه غداً ، وسهرت ليلي أتأمل تلك الرحلة التي مرت أسرع من البرق والأيام التي تمر من رحلتي واقتراب موعد العودة لعمان ، هذا الموعد الذي صدقا تمنيت الموت قبل أن يأتي.

حل المساء ، أتى موعد الدخول إلى غرفتي وتأمل النافذة والنور الذي ينبعث إليّ من خلالها، قبل اللجوء للسرير ولتلك النافذة ، أرغمني قريني أن أهبط للشارع، ولا أدري كيف ناديت إنجيليا واستأذنت منها بالخروج ، توصيني أن لا أتأخر ، أنزل للشارع ، تجول فيه ، أصل الجسر المعلق ، أتأمله وما يمر فوقه من مركبات ، أتساءل هل تنفث هذه المركبات دخاناً أم عطراً يفوح حيث تعبر؟

أدلف إلى السوبر ماركت ، تجلس به امرأة سمينة ، نصف صدرها عار ، تشعل سيجارتها وتحاسب الزبون فقط ، وقفت أمامها ، كيف لي أن اسمع صوتها ، يراودني إحساس بأن صوتها سيكون ضخماً بضخامتها، طلبتها السجائر سألتني عن صنفها، فأجبت ، ربما لو لم تكن بهذه الضخامة لكانت مطربة .

الشمس ساحرة وهي تأوي لبيتها ، لحضن البحر ، والبحر مجنون وهو يحتضنها ، يسرح شعرهايخفف من وهجها ، والبحر ماجن إذ يقبلها ، فيبدو خجلها واضحاً على خد السماء.

أعود للبيت بعد التعب ، أدخل غرفتي من جديد ، تأتي القهوة الرائعة ، وتحضر الشكولاتة، نتبادل أطراف الحديث ،وما كتبت وما هلوس به قلمي ، سجائري تأبى الانطفاء ، البيرة تحضر في الموعد ، أنادي النوم فلا يستجيب،تتركني إنجيليا بعد منتصف الليل لأغفو ولو قليلاً، أحاول وأحاول ولكني أفشل، في حوالي الثامنة صباحاً تحضر القهوة لأرتشفها كعادتي على مهل ، أدخن وأدخن وقهوتي ما زالت على حالها ، أراها وقد حلت بها البركة ، بعد حوالي الساعة من إحضار القهوة تناديني إنجيليا: أن هيا ، لنتناول إفطارنا ونخرج.

أتناول قهوتي دفعة واحدة ، أخرج للحماأغتسل من تلك الأفكار التي راودتني، أغتسل من عطر زارني في أحلام اليقظة التي كانت تداعبني ، أحلق ذقني ، استبدل ملابسي،أخرج لتناول الإفطار.

للعلم الإفطار عادة غريبة علي لم أتناولها إلا في بيروت إذ فرضت علي هنا.

تستأذن إنجيليا ، غابت لفترة قصيرة ، نادت هيا لنخرج ، إلى أين ؟ دعك من الأسئلة ، اليوم سنذهب للسحر والفتنة الإلهية ، سنرى معجزة الله في الكون ، وكيف أبدع برسم ما سنرى .

- إلى أين يا إنجيليا سنذهب فكل لبنان ساحر بكل ما فيه.
- لا محمد ، اليوم سنذهب لمكان تجلى فيه إعجاز الإله بكل شيء.

أصعد إلى المركبة برفقة إنجي ، ونبدأ رحلتنا ، تأبى إنجيليا أن تخبرني إلى أين نتجه ؟ نأتي نفس الطريق التي ذهبنا بها إلى دير مارروكز، نتجاوزه ، تتوه إنجيليا عن الطريق ، تضطر للوقوف والسؤال عن الطريق المؤدي إلى جعيتا ، لا أدري سر الفرحة التي سكنتني عندما سمعت اسم هذا المكان ، هنا أخرجت هاتفي وكتبت على صفحتي إنني في طريقي إلى (جعيتا) ، ليأتي الرد من صديقتي الرائعة المذهلة الجمال والرقة ، الأنثى إلي تغار إن ذكرتها الإناث ، جاء ردها ، هناك سألتقي لونا ، بقدر ما كان

شوقي للقائها، شوقي لأن أغرق في عينيها اللتين غازلتهما عبر العالم الافتراضي، بقدر الخوف الذي سكن روحي لدرجة أني دعوت الله أن لا نلتقي .

منذ أن أخبرتني بحضورها إلى جعيتا وأنا أرتجف ، لماذا لا أدري ؟ربما خشيت من شيء ما لا أعرف كنهه.

دلنا أحد المارة على الطريق ، دخلنا إلى حيث تقع جعيتا ، الموقع ساحربكل ما فيه ، أشجار كثيفة تقع بالجهة المقابلة للمغارة ، صوت خرير الماء يأتيك كموسيقى تعزفها أنامل الملائكة على وتر الأرض الطيبة؛ لتطرب الطبيعة والناس ، ليعود طائر الفينيق هنا ويحلق في فضاءاتي .

الناس هنا بألوانهم وألسنتهم المختلفة يتجولون في الساحة الرئيسية ، أنسى المغارة وما فيها ، وأتابع الحوريات اللاتي يتجولن هنا ، إنجي ببراءتها ، رأيتها طفلة مشاغبة عفوية بحركتهاضحكها تعاملها ، وإنجيليا اختفت هناك ، قليل من الوقت ،عادت وبيدها التذاكر ،نصعد في العربة الأولى للتلفريك حيث يوصلنا للمغارة ، الآن أنا منفصل عن العالم ، أنا فقط بحضرة الملائكة ، بحضرة إنجي وأمها ، أنا الآن في ملكوت آخر ، ملكوت يملؤه الفرح ،إنجي وأمها يتكلمن معي كالعادة

بصوت منخفض ، فجأة أحني رأسي للأسفل خوفاً لأني توقعت أن العربة سترتطم بعمود الكهرباء .

هبطنا من عربة التلفريك وإنجي تضحك وتضحك ، سألتها عن سر ضحكها ، فقالت : أضحك لخوفك وانحنائك ، ضحكنا على الموقف ، عبرنا البوابة وكان التفتيش، أخذ الموظف هواتفنا ، وضعها بخزانة خلفه وناولنا مفاتيح الخزانة، وما أن دلفت إلى المغارة حتى خررت ساجداً لعظمة صنع الله ، جعيتا آية من آيات الله وواحدة من معجزاته، كنت أتساءل بيني وبيني، بأي مزاج كان الرب وهو يرسم لوحة جعيتا، وهو يشكلها صواعد وهوابط والماء يجري من تحتك ،هنا الهوابط والصواعد كلها تشكل لوحة تنم عن تجلي الإله وهو يرسمها .
كنا نسير خلال ممر طويل وأنا أسبح الله لعظمة صنعه وألوم اللبنانيين والعرب الذين تقاعسوا عن ترشيح جعيتا كواحدة من عجائب الدنيا، أي أهرامات وأي بتراء ، وأي تمثال للحرية ، وأي سور عظيم يتحدثون عنه فكلها من صنع البشر ، هنا يتجلى السحر الإلهي ، وهنا فقط تجد الآية الكبرى التي تدلك على الله حتى وان كنت ملحداً.
كنت أسمع صوتاً يجلجل بداخلي ، كنت أسمع المنحوتات تناجي روحي ، تقول وقطرات المياه تهبط من سقفها لتطهر العابرين إليها ،

لرحمها ، ليولدوا من جديد ،انقشني حرفاً بنبض قلبك ، أو اكتبني قصيدة تغنيها روحك فتطرب الملائكة، تعال لرحمي؛ لألدك ابناً مختلفاً، لأجعلك صاعداً أو هابطاً، تعال أشكلك كما أشتهي، لأجعل منك أدونيس ، أغمض عينك؛ لترى كيف أعيدك من الرماد، لتكون بشراً برفقة الملائكة ، بشرا عمدته جعيتا ، أعيدك من الرماد ملاكاً مجنوناً، وأهبك رسالتي وصليبي لتكون رسولي في هذه الدنيا.

أتابع مسيري وأحاول أن أطرد ما يجول بخاطري أو توسوس به نفسي، ولن أقول الشياطين؛ لأن هذا المكان أبداً لا يدخله شيطان، هنا يوجد أعلى هابط في العالم إذ يبلغ ارتفاعه أكثر من 8 أمتار، هنا مجموعة كبيرة جداً من الهوابط والصواعد التي نحتتها الطبيعة بفعل الرطوبة العالية فشكلت لوحة لا مثيل لها في العالم ، كنت أتوقع جمال هذه المغارة بقدر ما سمعت عنها، ولكن ما رأيته أبداً لا يخطر على بال بشر .

جعيتا أولى عجائب الدنيا وليست ثانيها لسبب مهم أنه لم تتدخل بها يد الإنسان نهائياً، نتابع مسيرنا في المغارة نتوقف فجأة على جسر صغير أظنه من الحجر ، تناولني إنيجليا قطعة نقدية وتطلب مني أن أتمنى شيئاً في سري وألقي القطعة النقدية في الماء ، وكانت أمنيتي أن لا ألتقي بصديقتي لونا .

جعيتا امرأة لا تدنو من عتبات جمالها امرأة ، جعيتا امرأة تخر على عتباتها النساء،جعيتا أول الجمال وآخر الجمال ، جعيتا امرأة بحيائها وأنوثتها ورقتها لايقترب من حماها إلا الطاهرون ، جعيتا الطاهرة دوماً يحميها الرب ويتجلى لها ، جعيتا امرأة بروح ، تلقم كل عاشق نهد الحب ليتجلى في فضاءاته ، جعيتا امرأة مجنونة تهديك الجنون لتنعم بهواك ، وحدها جعيتا عيونها أجمل من عيون لونا ، فكيف إن كان عبور جعيتا برفقة ملاكين اسمهما إنجيليا وإنجي؟

نتابع مسيرنا في مكان تملؤه الرطوبة حتى تضييق الأنفاس ، نعود إلى الخارج وكنتأتمنى أن لا تنتهي رحلتنا في هذه اللوحة الفنية الإلهية، كنت أتمنى لو كانت معي كاميرا ، أقسم كنت لن أترك صاعداً أو هابطاً بدون تصوير ، خرجنا من المغارة وكانت تسمى المغارة العليا ، وهبطنا للمغارة الأخرى التي تدخلها من خلال قارب ، أبداً لا تختلف عن المغارة العليا ، إلا أن فيها أكبر منحوت في العالم على شكل الفطر ويبلغ طوله أكثر من 26 متراً ، أكملنا رحلتنا في المغارة ، وخرجنا للخارج ، إنجي تلتقط الصور مع ضيوف لبنان الأجانب ، وأنا التقط الصور للمكان ، نعود مساء إلى أسفل المغارة من خلال ما يشبه التراكتور أو عربة تسير على سكة حديدة إلى حيث تقف مركبتنا .

أتأمل المكان بجماله سواء خارجياً أو داخلياً وأتساءل أين وزارة السياحة اللبنانية عن مثل هذا الموقع الذي كرم الإله به لبنان ؟ واختار له أرض لبنان من دون الدنيا.

نصعد إلى المركبة ولم ألتق بصديقتي ، سألتني إنجيليا ماذا تمنيت ؟ فأجبتها فضحكت وضحكت وضحكنا ، وسألتها لم ضحكت ، قالت لأني أعرف أنك كنت تتمنى أن تراها وأن تكون أول من تراه ، ضحكت وقلت: لا أدري سر خوفي منها .

أثناء عودتنا وكانت إنجي تصدح بصوتها ، ناديتها وقلت بعد قليل سأراك على البيسبوك يا إنجي، ضحكت بصوت عال، وضحكت ، اختلط صوت ضحكنا ، قالت كيف ستراني على البيسبوك ، قلت الأجانب الذين التقطوا الصور معك الآن ينشرونها، ورحنا في موجة من المزاح والضحك حتى وصلنا .

وما أن دخلنا البيت وبدلت ملابسي حتى حضرت مولي أخذت الملابس للغسيل ، وبعدها حضرت إنجيليا ، أحضرت القهوة ، والبيرة ،و جلسنا نستذكر الأيام التي رحلت ، انتهت جلستنا بعد منتصف الليل ولا أدري كيف غرقت في نوم عميق ، أحلم بجعيتا

المعجزة والعجيبة ، أحلم بها قصيدة ، أحلم بأني أخرج من رحمها بشكل آخر ، وبصديقتي التي خفت لقاءها، وبرحلة الغد.

***

إلى قضاء الشوف

بعد العودة من جعيتا ، غرقتُ في نوم عميق ، لم أنمه منذُ عرفتُ معنى النوم ، كانت الصور تتداعي ،الأحلام تتجسد وتتراءى لي في المنام ، كيف تحولت حجارة وهوابط وصواعد جعيتا إلى صور وأصوات أحدثها وتحدثني، كيف تحولت إلى صبايا من نور، أغازلها بكل جوارحي .

اليوم التالي كان استراحة ، لم أغادر به إلى أي مكان بل صلبتني على شرفة البيت ، أطالع الوجوه ، وأحاول أن اقرأ المكان بطريقة مختلفة ، القهوة من إنجيليا لم تنقطع ، وهاتفي البسيط يلتقط الصور لكل ما يلفت انتباهي ، أكتب ، أمزق ، سيجارتي لا تنطفئ ، قهوتي لا تنتهي ، وكلما طلت إنجيليا وجدتني على ذات الحال انتهى اليوم سريعاً ، وعدت للغرفة أطالع مواقع التواصل الاجتماعي ، أُجري المكالمات الهاتفية ، وكلما اتصلت بتلك الحسناء التي طالما تمنيت لقائها أؤجل موعد اللقاء ،أخبر إنجيليا ما كان يدور من حديث .

كما الأيام الماضية نعاود السهر ومناقشة ما يفيض به القلم ، وقبل أن تغادر أحضرت لي قهوتي والشكولاتة الشهية وبيرتي المفضلة ، أنادي النوم فيعصى أمري ، أغريه أغويه بالحسان اللائي سيزرن أحلامي ويأبى أن يطاوعني ، وقبل أن يتنفس الفجر عدت لأقف على الشرفة منتظراً أن تداعب الشمس عيوني ، بقيت أطالع الناس يتجولون ، يشرد خيالي إليهم ، أبقى على هذه الحال حتى يأتي الصوت الملائكي ليعيدني من شرودي أن تعال محمد اليوم سيكون مشوارنا طويل .

-إلى أين ؟

الخبر عند أبي نجيب.

-لا أدري.

نجلس إلى طاولة الإفطار ، أتناول قهوتي وأشعل سيجارتي، تنتبه لي إنجيليا و تقول: ما على هذا اتفقنا ، اتفقنا القهوة والسجائر بعد الإفطار ابتسمت قلت :لا رغبة لي بالطعام ، أشعر بوجع يداعب معدتي .

قالت : بعد قليل سيذهب الوجع .

تركتهم يكملون إفطارهم وذهبت لأبدل ملابسي وأستعد ، وما أن أتممت حتى جاء الصوت بدل ملابسك محمد أبا نجيب ينتظرنا في

السيارة .

قلت : أنا جاهز وهاأنا في غرفة الاستقبال .

قالت إذا هيا.

مولي تلك الرائعة الأثيوبية تشيعنا حتى الباب وابتسامتها ترتسم على كل وجهها، وأنا أقول لها انتظريني حتى أعود لألقي بك من النافذة.

فتردد وهي تضحك: (ok).

نهبط وإذا بالشاعر الرائع إلياس القزي يقف مع أبي نجيب يتحدثون ، وما أن القينا تحية الصباح عليهم وقبل أن أصافح إلياس قال أبو نجيب : هيا اصعدوا صافحه وأنت بالسيارة.

صعدنا إلياس في المقعد الأمامي وإنجيليا وإنجي وأنا في المقعد الخلفي ،أسأل أبو نجيب إلى أين يا سيدي نشد الرحال ؟

قال: كل الأماكن في لبنان تشد إليها الرحال ، انطلقت السيارة باتجاه الجنوب ، تجاوزنا الضاحية الجنوبية ، المكوث بالسيارة يعني الحرمان من التدخين والقهوة ووحدها رائحة العطر تستبد بالمكان ، تمارس جبروتها الشهي على الحواس ، والحديث عن المكان بجمالياته، تاريخه ،

وحاضره، أو إلقاء النكات، والضحكات تقاطع صوت فيروز و نضفي الراحة على النفس وتزرع الفرح في القلب.

المركبة تتجاوز القرى ، أرى الشارع يداعب الإطارات كأنه يريد الإمساك بها وإيقافها ، أنا والطريق متفقان على هذا ولكن أبا نجيب يصر أن يتابع مسيره ويتجاوز كل محطات الجمال التي مررنا بها ، أبو نجيب إنسان هادئ جداً ، ودود جداً، طيب القلبرزين، لا تهمه الحسان، ولا تلفت انتباههبعكسي تماماً.

أخرج علبة سجائري ، أتحسسها وبي لهفة لإشعال سيجارة، أقاوم بدخانها رائحة العطر التي احتلتني والمكان ، لكن هناك ما يمنعني عن التدخين، وكأن إنجيليا تعرف ما يدور برأسي، فتقول: دقائق وستداعب سيجارتك كما تحب ، وستشرب قهوتك كما تشتهي، أسرح بخيالي بعيداً عن المركبة وما فيها، إلى حيث كان السابقون هنا،هل يعقل لم يكن فيهم شاعر واحد يتغزل بالمكان، هل يعقل أن قصص الحب هنا مجرد أساطير، وأرد على نفسي ، ربما لعنف الحب هنا ولتفرده تحول إلى أسطورة.

تسألني إنجيليا إلى أين ذهبت ؟ فأجيب : أنا معكم ، تضحك إنجي، وتردد: هنيئاً لمن طرت إليها، فتضحك ونضحك حتى غاب صوت

فيروز، وتتابع يا خالو .. إبق معنا بروحك وجسدك، فالجسد بلا روح لا يعني شيئاً إلا الغياب ، كم كنت أود لو أن حسنائي الرائعة برفقتي ، أعاود الشرود بعيداً ، أستحضر نزار قباني ، سعيد عقل أتمتم كيف لا يبدعون ويتميزون وهم هنا كانوا يقيمون .

يحيطهم الجمال من كل مكان ، كيف لا يتميزون وهم يقيمون فوق هذه الأرض، التي حملت التاريخ ، يخطر ببالي جبران بفلسفته العميقة، كيف لا يكون حكيماً فيلسوفاً فناناً، وهو هنا ولد وهنا تربى .

ومع أول عبورنا لمنطقة الدامور قال أبو نجيب :هنا لنا صديق سنمر للسلام عليه، وانحرفت المركبة إلى جهة اليمين ، دخلت طريقاً ترابياً، وما أن توقفنا وهبطنا من المركبة حتى سمعت صوت البحر يناديني، إليه ركضت كما المجنون، بللتني بمائه، غسلت وجهي،إنجيليا وإنجي تتبعاني على مهل، وصلن وأنا أداعب الماء، أراقص الموج، أتغزل بالبحر وأتعاطف مع الشاطئ ، أطالب البحر بهدنة مؤقتة مع الشاطئ حتى نتمكن من عقد المصالحة بينهما ، وكالعادة كلاهما يصر على موقفه ولا يتراجع أو يتنازل لخصمه .

إنجيليا تخبرني بان القصر الذي ليميننا هو قصر الحريري، فقلت ملعون هو المال، آه كيف سيحاسبون عليه عندما يسألون فيم أنفقتموه، هنا

كل الأشياء تداعبك، رائحة الأشجار تغريك بالبقاء نلتقط بعض الصور ونعود ، نمر بجانب المزرعة المحمية"البيوت البلاستيكية"، فاستذكر الغور الذي تحول إلى بحيرة من البلاستيك ومدى ما يعانيه المزارع في بلادي.

نواصل طريقنا إلى البيت الذي صعد إليه أبو نجيب وإلياس ، تلفت انتباهي بعض الأقفاص، أتجه إليها برفقة إنجي ، عدد من الحيوانات والطيور المختلفة ، الطاووس ،الفري ، والقرد ، أشعلت سيجارتي واتكأت على القفص ولا أدري كيف خُطفت السيجارة من يدي وأصبحت في يد القرد الذي أطفأها بمهارة، قشرها والتهمها ، كرهت الطاووس جداً ، لا يلتفت لشيء ، يتجول في قفصه وكأن لا أحد بجواره ينظر إليه، يمارس غروره حتى وهو سجين القفص .

إنجي تهب القرد الموز ، كنت مستمتعاً جداً بهذا الوضع، نادتنا إنجيليا لنصعد للأعلى ، صعدنا إلى الطابق الثاني صافحنا صاحب البيت وقام أبو نجيب بالتعريف بنا ، محمد صوالحة من الأردن، رحب بنا بحرارة ، وكم كنت سعيداً ومضيفنا يمدح الأردن ويسمي لي بعض العائلات الأردنية في محافظتي وبعض قراها.

استأذن أبو نجيب وغادرنا ، مررنا بصيدا ومن هناك اتجهنا لليسار ، لتبدأ رحلة جمال مختلفة؛ الآن الوضع يختلف ، الأشجار أينما نظرت تجدها وقد ظهرت ثمارها مكتملة مكتنزة كنهود الغانيات ، البيوت التي تتزين بالقرميد كنت أسمعها تنادينا ، نتابع مسيرنا في طريقنا لبيت الدين ، الضباب ينفلت من بين أصابع الشجر كما تنفلت الأشياء من ذاكرتي ، لا أدري هذا الطريق المتسامي نحو الأعلى إلى أين يقودنا ، إلى هناك حيث أعلى الجبل ، ربما هناك نلامس السماء و منها أقطف نجمة أزين بها صدر أميرتي التي في كل مرة أؤجل لقائي بها.

طريقنا كثير التعرجات وكأنه يتحايل على المارة أو يتحايل على الأرض هذا الطريق يدعوك لليقظة، والجمال يدعوك للصمت ، وأنا في السيارة كلما راودتني فكرة كتبتها ، وكلما شاهدت حسناء كتبت على ورقتي اسما افتراضيا لها ، الشاعر إلياس القزي صاحب النكتة الحاضرة والمزاح الذي يخفف عن رفيقه مضايقات الرطوبة العالية يلقي بالنكات يخلق جوا من السعادة،يغتال بها الوقت وطول المسافة، ولهاث السيارة التي أتعبها الصعود .

يتوقف أبو نجيب فجأة عند استراحة ، ظننت أننا توقفنا لأمارس طقس التدخين ، وما أن توقفنا حتى شاهدت منظراً رائعاً ، يستدرجك لتسكر

بالجمال الذي تجسد بكل شيء المكان هنا آية أخرى من آيات الجمال ، واد سحيق لا نهاية يصل إليها البصر ، وقمة لا أدري إن كانت تحتضن السماء أم أن السماء تحتضنها ، والأشجار والبيوت كأنها فرق من الجند انتشرت لتحرس الأرض من الشياطين المتربصة بها .
نعود للخلف قليلاً مشياً ، نقف أمام قلعة أثرية تسمى قلعة موسى أو قصر موسى، وقد نقش على مدخلها ؛" دخلناها صغاراً وخرجنا منها شيباً".

هنا تثور الأسئلة بداخلي ، وأولها من هو موسى المقصود ؟ هل الذي دخل هذه القلعة صغيراً ومنها خرج يملؤه الشيب هو نبي الله ، أما أنه شيخ أو سجين ؟ أسئلة تراودني ولا أعرف لمن أتجه بها ، يزين المدخل تمثالان لأسدين ونافورة ماء ، التقطنا الصور وتابعنا صعودنا بعد أن امتلأت الرئة بعبق السيجارة والقهوة التي ما زال مذاقها في فمي حتى اليوم.

نتابع مسيرنا والضباب يتابع شق صدر التراب ، والتسلل من بين أصابع الأشجار التي تقف حارسة عليه ليعانق السماء ؛ سماء لبنان، وينثر العطر في كل مكان ، هل هذا الغيم سيعود للبحر من جديد ؟ أم أنه فر من جنون البحر ليعانق هذه السماء ؟

في لحظة واحدة عادت الروح لجسدي وسألت إنجيليا : الآن نحن نصعد لبيت الدين ولكن ما اسم المكان الذي أقيم به هذا البيت ، قالت: نحن في قضاء الشوف.

نصل إلى حيث نريد ، وهنا يقف أبو نجيب ليقول : هذا القصر أو هذا البيت بناه الأمير بشير الثاني في القرن التاسع عشر.

الأمير بشير الثاني باني هذا البيت الذي يعتبر من أهم الآثار في جبل لبنان ومنطقة الشوف؛ حكم جبل لبنان ما يزيد عن نصف قرن من الزمان ، هذا البيت أو هذا القصر يعتبر المقر الصيفي لرئيس الجمهورية اللبنانية ، ويقام به مهرجان فني سنوي ، واستمر بناء هذا البيت الذي قام على بنائه أمهر عمال البناء اللبنانيين وأهم الرسامين والنقاشين الدمشقيين ،هذا البيت المكتمل الجمال من حيث تماهي الحجر اللبناني من الخارج وجمال الفسيفساء من الداخل.

تجولنا بمحيط بيت الدين الذي صادف حضورنا حفل زفاف لشابين لا أدري من أي مناطق لبنان أتوا.

التقطنا أيضا الصور ، ضحكنا كثيراً، واستمتعنا بالجمال أكثر وأكثر، عدنا بعد عصر اليوم أدراجنا والصور تتزاحم في المخيلة ، الكلمات تتسابق ، في طريق عودتنا توقفنا عند استراحة ، هبطت إنجي لشراء

قرص مدمج يحتوي على بعض الأغاني اللبنانية ، تأخرت قليلاً فهبط إلياس ليناديها فتأخر معها ، وأنا أتمنى أن يتأخروا أكثر وأكثر؛ لامتزج بعطر المكان ، لأنقش اسمي على أكبر عدد ممكن من جذوع الشجر .

وعلى شاهدة قبر هناك كتبت ، من هنا مر محمد صوالحة ، توقف على ضريحك وقرأ الفاتحة على روحك لم ينتبه لدينك أو طائفتك ، قرأ الفاتحة وتابع طريقه، ترحم على روحك ومضى .كتبت بعد اسمي ليتني كنت طيراً؛ لأبني عشي هنا،على جذع شجرة أخرى كتبت اسمي ، اعتذرت من الشجرة إن أوجعها نقشي على جذعها.

أبو نجيب وإنجيليا ينظران إلي من بعيد ويضحكان على جنوني ،عدنا للبيت والليل قد أرخى سدوله ، وأشعلت الشوارع إنارتها ، والصبايا يتمايلن كضوء القمر فوق الموج ،عدنا والسؤال يجلد روحي أي جمال تفرد به الشوف ، أي فنان رسم هذا المكان أو في أي لحظات التجلي كانت السماء وهي تضع الشوف سحرا يزيغ أبصار الناظرين إليه أو المارين به ؟

***

ليلة خارج حدود الزمن

عدنا من الشوف من بيت الدين، وصلنا الدكوانة ليلاً، الأنوار تتراقص، الشوارع ما زالت تعلن التحدي والصمود أمام المارة والمركبات، بماذا تهمس الإطارات بإذن الشارع ، هل تشكو من ثقل قدم السائق ؟ أم أنها تروي بعضاً من ذكرياتها؟

ندلف للبيت ، أرغب بالانزواء بغرفتي؛ لتبقى تلك الصور عالقة في ذهنيفي مخيلتي ، أبدل ملابسي ، أستلقي على السرير ، أغمض عيني، أستحضر كل تلك المشاهد التي مررنا بها بذهابنا وعودتنا ، أعد الجميلات ، أمسك بتلك الورقة أقف عند كل اسمأستحضره ، أعيد تسميته من جديد ، أتخيل شكل علاقتي مع صاحبة الاسم ، كيف أشاكسها وأشاغبها، أبكيها لأمسح دمعتها . هذي ورود ، وتلك سلمى ، هناك شروق وليلى ، هذه عبير وتلك أمواج هناك حنان ومعها لقاء، أقرب منهن قليلاً جوليا وكاتي وإيمان أما ليلى الساحرة ، القصيدة التي عجز القلم عن كتابتها ، ليلى نشوة الخمر وروعة السهر.

يا ربي ، هذي ورود كم هي مثيرة وشفافة ، يا إلهي ما أروع نظراتها وما أجمل الكحل في عينيها ، وتلك التي تلمع بوجه الشمس ابتسامتها ما يليق بها من الأسماء ؟ ربما الأقرب إليها اسم سهام؛ لأنها قاتلة النظرات ، تلك الآسرة أنشودة الشوف بالتأكيد كانت تخر لها القلوب، تُسبح لعينيها النبضات .

أما تلك الأرض، تلك المنطقة فاحتار بوصفها العقل ، غاب أمام جمالها الخيال ، وكان السؤال منذ أن لمحتها عيني يتردد : عن أي سمو تبحث هذه المنطقة وإلى أي المراتب ستصل ؟ أشجارها المنتشرة في كل مكان كفيلق من جيش ، أو كعالم من الغانيات اللائي يغوينك بالبقاء ما الذي يحرسه وماذا ينتظر؟

في غرفتي المزينة بكل ما هو جميل، والتي يطوق رأسها حبل من الأنوار الخفيفة ، تقود للحلم ،تقود للتأمل ، والبحث عن كل جديد ، في غرفتي هذه ، تتبدل الأشياء وتختلف الأحلام ، وكثيراً كثيراً ما يغادر النوم .

صداع خفيف يلم بي ، صداع جميل ؛ لأنه يجبرني على إغماض عيوني ، فتتداعى الصور ، تتراكض الأفكار ، يدي تمسك بالورقة والقلم أدون ما يراودني من أفكار .

وقفت على النافذة المطلة على الدكوانة ، كل النوافذ أمامي مشرعة ،

النسيم يتلاعب بستائرها فيراودني حفيدي بأفكار مجنونة ويوسوس لي بما يدور خلف تلك الستائر ، يرسم لي الأشكال ، أحدثها تحدثني نتبادل الابتسامات، ووسط هذا المحيط من الخيالات المجنونةوالأفكار الأكثر جنوناً، والمشاعر الفوضوية التي تتلاعب بكل ما يمر بالبال وتستوقفه، تعشق حتى النسمات العابرة.

يُطرق الباب ليوقظني من أحلامي ، تأتي الرائعة البهية بل الأروع إنجيليا بالقهوة ، تقف على الشرفة ، نتحدث عن الشوف وجمال الشوف، نراجع تلك الصور التي التقطت، رشفة من القهوة وأخرى ، أبحث عن الصداع فلا أجده ، كيف غادرني هكذا بدون مقدمات ؟ الصداع كما النوم يتركاني وحيداً ويغادران فيغيب معهما الخيال ، وتغيب الأفكار والصور .

تنهض إنجيليا من مكانها وهي تقول محمد عليك النوم مبكراً لأننا غداً سنغادر مبكراً فمشوارنا طويل ،سألتها : إلى أين هذه المرة ؟

فقالت : لمنطقة تشبه الشوف بطبيعتها وفيها مكان بالتأكيد أنت تحبه ، سألتني عن كتب صاحب ذلك المتحف .

قلت :أين ؟

قالت : إلى متحف جبران وبعده لغابة الأرز.

حاولت النوم حاولت وحاولت ، وباءت كل محاولاتي بالفشل ، كثيرة هي الأشياء التي تراودني ، أتفقدني ، أجدني بلا روح ، روحي ما زالت عالقة هناك في الشوف ، أنا الآن جسد بلا قلب أو روح أو خيال ، كل هذه ما زالت عالقة هناك ، على غصن شجرة أو في حضن إحدى الفاتنات .

تسألني أم نجيب: ما بك محمد ، في الأيام السابقة لم تكن تسأل أو تناقش رحلتك أو مشوارك فقط الشوف وجعيتا هما من خلقا فيك الأسئلة وهذه النشوة .

قلت : كانت الأشياء ، تعيدني للتاريخ الذي يؤلمني ، ودوما ما ينجب الوجع الصمت أو السكون، نرتشف القهوة ، نتبادل النكات ، تصحو إنجي لتكتمل متعة السهر ، وتضيف للنكات جمالاًآخر بضحكتها البريئة والعفوية، يا الله ما أجمل السهر هنا .

الليل هذه المرة طويل طويل وبالرغم من ثقله إلا أنه كان جميلاً ، أسكنني الفرح والضحك، ليل تساهرك فيه الملائكة كيف يكون؟ غادرت أم نجيب وأميرة الفرح إنجي في حوالي الثانية صباحاً ، أعود لسريري ، أنهض منه مجدداً ، وأجلس على تلك الشرفة ، أتأمل المباني، أتساءل: بماذا يحلم سكانها الآن؟ ما الذي يشغلهم؟ وأخيراً وبعد طول انتظار سطع نور الشمس ، منفضة سجائري مليئة

بأعقاب السجائر ، فهي كما ذاكرتي ملآى بالأشياء والصور ،فنجان قهوتي فارغ كجسدي في هذه اللحظة ، أشعر بعطش شديد ، أعاقب نفسي ولا أشرب ، ولكي أزداد عطشاً أشعل السيجارة من جديد.

أشغلت نفسي بتبديل ملابسي ،أرتدي وأخلع حتى جاء ذلك الصوت من جديد محمد الإفطار جاهز ، أغلقت غرفتي ، خرجت إليهم ، أشعلت السيجارة من جديد ، تناولت فنجان قهوتي ، ارتشفته بسرعة وكأني أستعجلهم للمغادرة ، لأني أرغب بالعودة إلي؛ لأني كثيراً أشتاقني أشتاق إليّ جداً.

يرمقني أبو نجيب بنظرة عتب وكذلك إنجيليا وتقول : الإفطار أولاً ، أرد عليها : أشعر بشيء من الصداع ولا رغبة لي بالطعام، يكملون وجبة الإفطار ونخرج؛ كالعادة ، الشاعر الأنيق إلياس القزي بحضوره الخفيف وروحه المرحة التي تعكسطبيعة اللبناني ، يصعد بجانب السائق، إنجيليا وإنجي وأنا في مقعدنا الخلفي، وأظنني وحدي من بينهم كنت خارج اللحظة ، خارج دائرة الزمن ، كيف لا وأنا إلى لواء الكورة وبشري، و جبران الذي عقدت العزم أن أشاكسه وأشاغبه ، أنا القادم من الشوف إليه ،بات رأسي كحقيبة مثقلة بالأسئلة.

وما أن أدار أبو نجيب محركها حتى بدأت روحي بالعودة إلي من جديد، تتحرك المركبة أمتاراً قليلة وتنعطف لليمين ، نسير مسافة قصيرة ،

ونعطف أيضاً جهة اليمينمرة أخرى ، نمر من تحت جسر جونيه ، ونتابع مسيرنا نحو الشمال يتجلى البحر من بعيد كراهب أو كإله عاد من زمن الأساطير ، أرسل إليه ابتسامة قلب ، ابتسامة روح وشفتين ، أناديه أيها القديس والمقدس خذني إليك، أغرقني بقلبك ، اجعل مني موجة تعانق شواطئ العاشقين ، أو قصيدة تسكن قلب شاعر، أيها الشيخ الجليل خذني إليك ، لفني بعباءتك الزرقاء ، أرسلني نسيماً يداعب شعر تلك الأميرة الرابضة فوق ذاك المرتفع يداعب خد لونا .

يسحرني مشهد البحر ، يدهشني ذاك الزبد الذي يرافق الأمواج ، ولا أشعر بنفسي إلا ونحن ننعطف نحو اليمين أيضاً، أبتسم وأسال أبو نجيب : يا سيدي ، أراك تتبع اليمين باستمرار ، جعلك الله من أهل اليمين .

قال : لست أنا وإنما هي الطريق التي تأخذنا حيث تريد ونريد.

يلفت انتباهي شارة كتب عليها لواء الكورة هنا يهب الحنين ، يشتعل القلب بالشوق لشمالنا ، شمال الأردن ، حيث لواء الكورة ، تلك الأشجار التي تثير دهشة كل عابر من هناك ، أبدأ رحلة المقارنة بين الكورة هنا والكورة هناك ، إنها تتشابه بطبيعة طقسها ، كثافة أشجارها وجمال الناس فيها، الفرق أن لواء الكورة الأردني يجاور صحابة رسول

الله ، رسول الإنسانية فهناك شرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل، اللذان يجاوران النهر المقدس نهر التعميد .

لا يخرجني من هذا الاشتعال أو الحريق الذي شب بين الضلوع إلا صوت أبي نجيب وهو يطلب مني النزول حيث قمنا بالذهاب إلى ملحمة (محلا للجزارة)هناك ، كنت أظن أننا سنأخذ بعضاً من اللحم للشواء ، ولكن كان الأمر المفاجأة حيث طلب (كفتة نية) جهزها الجزار بسرعة ، اقشعر بدني في البداية ، وما أن صعدنا مجدداً للسيارة حتى بدأت إنجلينا بتوزيع السندويشات ، كان هناك الكثير والمتنوع منها ، أخذت لقمتي الأولى، طعم غريب ولذيذ ، تابعت أكلي وما أن أنهيت سندويشتي الأولى حتى طلبت أخرى وأخرى .

نتابع صعودنا وأنا يُخيل إلي أني على بعد أمتار من هنا سأسمع صوت تسابيح الملائكة ، يفاجئني اسم منطقة عجتلون ، هذه القرية الكثيفة الأشجار الجميلة المباني وبالتأكيد لكل مبني حكاية ولكل شجرة قصة ،يعاودني الاشتعال من جديد ، ففي شمالنا عجلون بغاباتها ، وتاريخها.

أتعبني النظر إلى الطريق وإلى السماء التي تقترب منا تدريجياً ، أضع رأسي على منضدة المقعد وأحاول أن أفر من الجمال الذي أرق روحي وأتعب قلبي، حتى وأنا أحاول أن أقتنص إغفاءة تراودني بها الصور وما مر بي بالأمس وقبله ، وما سيمر، تلفحني نسمة باردة، توقظني

مما أنا فيه من حلم ، أشعر أن النسمات التي داعبتني ما كانت إلا أنفاس الأميرة القريبة من هنا ، البعيدة عن العين ، الأميرة التي تعبث بقلبي وروحي ، الأميرة التي أخشى لقائها.

ما لفت انتباهي أكثر ، كثرة اليافطات التي تتغني بحزب القوات اللبنانية.

نتابع المسير ، ننحني قليلاً أيضاً ناحية اليمين ، نعبر في طريق ضيق على رصيفيه رتبت الزهور وأسأل إنجيلينا : أين نحن ؟نحن الآن ندخل لمتحف جبران ، فكاد يغشى علي فرحاً.قالت :في ضيافة جبران (في بشري أرض الخضرة والأشجار والحب)، قالت : في بشري ، في ضيافة جبران خليل جبران ، ها أنا أفي بوعدي ونزور جبرانولا أدري كيف تركتها تتكلم ورحت أصعد الدرب ركضاً ناسياً ألم ظهري ، والألم الذي كان يسكن معدتي ، ركضت حتى وصلت لتمثال انتصب بجانب المتحف، جلست بجانبه، احتضنته وكأني أحتضن جبران ، نعم كان جبران الذي احتضنه وأبداً ما كان تمثالاً، أشعلت سيجارتي، جلست بجانبه، وصل الرفاق: أبو نجيب ، وإنجي وإلياس القزي وإنجيليا التي تبعتني وقالت وهي تبتسم : تركتني أكلم نفسي وهربت؟ابتسمت وقلت : هنا لا مجال لإضاعة الوقت ، يجب استغلال كل ثانية تمر.

لفت انتباهي نظرته الثابتة بذلك الاتجاه ، نظرت حيث ينظر ، وإذا بها كنيسة أو دير كأجمل ما يكون البناء ، كنيسة انتصبت فوق قمة جبل تحيطه الأشجار من كل الجهات ، ولونها القرمزي يزهو وتوشحه أشعة الشمس وصليب ارتقى فوق البناء تضفي عليه الشمس لون الذهب الصافي.

أجلس بجانب جبران والزهور تحيطه من كل الجهات وبألوان مختلفة ، الماء ينساب بجانبي ويمر عبر قناة صغيرة ليروي ما زين به المكان من زهور ألتفت إلى التمثال وأقول: حدثني عنك جبران ، أيها الفنان الأديب و الفيلسوف الشاعر: أسمع صوت ضحكته فأضحك معه ، أنسى سؤالي الأول وأسأله :ما يضحكك أبا الأبداع والفن ؟؟؟

- يجيب : لأنك ذكرتني بكل الحرمان الذي عشته ، وكل الأوجاع .

- وهل مثلك يا سيدي مر بالحرمان والوجع ؟

- لولا ذلك ربما ما كان مني ما كان.

-أثرت فضولي يا سيدي وأريد أن أعيش معك تاريخك الذي تصفه بالمؤلم ؟ اسمع صوت ضحك رفاقي: إنجي وأبو نجيب وإنجيليا تردد: جن محمد ، فقد ما تبقى من عقله ، يقاطعها الشاعر إلياس القزي: دعيه في جنونه ففي حضرة جبران يحلو الجنون ويصبح تراتيل. قالتأخشى عليه ، رد عليها، مما ؟أجاب أبو نجيب : لا تخشي عليه ، فهو في حضرة

الفن والأدب والفلسفة ، انظري إليه يستمتع كثيراً، وكأنه يسمع إجابات أسئلته ويكتب قليلاً.

أعود لجبران بعد أن بادلتهم ضحكاتهم بابتسامة وأعيد ما طلبت من جبران .

فيقول يا بني: ولدت لأب كسول أدمن الخمر والقمار ، ولأم كان أبي ثالث أزواجها بعد أن توفي الأول وأبطل الثاني ، فكان قدري يخبئني لمثل هذا الأب الذي حرمني كسله من ارتياد المدرسة كالبقية ، ولكن القدر أيضاً كان في غاية الجود معي إذ وهبني الأب (جرمانوس) الذي كان يأتي لبيتنا ليعلمني الإنجيل والعربية ، كما وهبني أباًآخر هو الطبيب الشاعر سليم الضاهر الذي علمني الأدب والتاريخ، أرأيت كيف تتولد الفلسفة ؟وكيف إنك لا تحرم من شيء إلا لتوهب الأفضل ؟

أسأل جبران وأنا أشعل سيجارتي : يا سيدي أراك فناناً، شاعراً، فيلسوفاً،فكيف لكل هذا أن يكون لك ؟

يبتسم صاحب الأجنحة المتكسرة ويقول : هنا يا بني تقيم آلهة الجمال والفن ، فكانت علاقتي معها أقوى من علاقتي مع أبي ، وهبتني عيناً قادرة على رصد الجمال لأشكله كما أريد ، هنا إلهة الحب أيضا تقيم فوهبتني (حلا) ، لأصبر على الحياة وأقاوم الكسل الذي قطف إخوتي واحداً تلو الآخر، هنا ، كان للقلب أن يخفق ، هنا كان للحلا أن يتجلى ،

هنا ولد نبض القلب من جديد، واستراحت الروح بعد عناء الغربة وعذاب الاغتراب ، هنا كان لقلبي أن يتعلق بابنة معلمي الأول سليم الضاهر ، هنا ببشري كانت قصة قلبي الأولى.

- صفها لي يا سيدي.

- مثلها لا توصف أيها الفضولي ، فهي ملاك بثوب إنسان ، هي الطهر على هيئة أنثى ، هي الشمس على هيئة الجمال .

يخفق قلبي بسرعة ، آه لو أن لونا تطل لأهبها ، الحب بثوب الكلمات ، آه لو أنها تطل؛ لأتحدى جبران بروعة لونا وجمالها وقلبها الكبير ، وكيف تنساب خيوط الشمس على كتفيها ، وكيف لابتسامتها يتراقص البحر وتتمايل الأغصان ، آه لو آنها تطل .

أفر بوجهي ونظراتي جانباً ، دمعة تسكن عيني ، نار تشتعل بداخلي ، لا أقوى على شيء ،طيف لونا يداعبني ويبتعد، يدغدغ روحي ويهرب ، ولا أستطيع له إمساكاً، فيهمس شيء بداخلي ، استمع لجبران وتخيل أنه يحدثك عنها لا عن حلاه.

ولأهرب من حديثه عن حلا، وحبه، سألته :كيف ترانا الآن ؟ وكيف تنبأت بواقعنا ؟وكيف كنتم ؟

يبتسم : كنا في زمن نزرع لنأكل ، ونصنع لنلبس ، كنا نقاوم الاستعمار ، أماأنتم الآن فأمة مارقة لا خير فيها ولا جدوى لوجودها ، أمة ملكت

المال وأضاعت كرامتها ، أمة تدعي بأنها تحررت من الاستعمار وهي التي أعادت جحافله ، أمة لا تميز بين الثورة والانتحار ، أمة تتآمر على نفسها ، أمة تدعي أنها منفتحة متفتحة ، والحقيقة أنها تشتت أقطاراً أغلق كل قطر على نفسه ، فتح الأبواب للغريب وقدسه ، وأغلقها بوجه إخوته بل وقتلهم .

- لسنا كذلك يا سيدي .

بل أنتم أكثر من ذلك، أنتم جاهليون حتى النخاع .

أتركه وأهبط باتجاه المركبة أحضر علبة من البيرة وسندويشة كفتة نية وأصعد ، أتجاوز التمثال والرفاق إلى حيث الأشجار ، ربما هنا جبران عانق حلا قبل أن تكون زوجته ، ربما هنا تغزل بها ، هناك في القمة بدأ كتابة روايته الأجنحة المتكسرة ، هنا وهناك ، وابعد من هناك كان يلتقي بها ، يقرأ عليها ما كتب، أجلس تحت شجرة ، أتناول سندويشة الكفتة ، أسند ظهري لجذع شجرة ، أتابع خطوات إنجيليا وهي قادمة بالقهوة ، تصلني ،تسألني : ما بك محمد ؟

- لا شيء .

- وهذه الدموع التي تسكن عينيك ؟

ليست دموعاً وإنما هي الغبار التي تتسبب بهذا، لا أخبرها بأن جبران أعاد لونا رسماً وأنا المشتاق للغرق في عينها، لم أخبرها بأن جبران

عرى الأمتين العربية والإسلامية أمامي وكشف سوءتهما ، لم أخبرها بأنه جعلني أحقد على أمة أنا منها .

- أشعل سيجارتك أخي ، وتناول قهوتك يا النشمي .

-حسناً.

جلست بالجهة المقابلة ،وبدأت أرتشف القهوة بسرعة ، وما أن أنهيتها حتى تناولت علبة المكسين ، ومع أول رشفة ، عاد شريط الذكريات من جديد ، كيف كان اللقاء أولا عبر فضاء الفيسبوك، كانت أجمل علاقة مع لونا ، لونا الملاك الإنسان .

أنظر لهاتفي النقال ،تتجلى صورتها لتطير الدمعة من عيني، وأطلب من إنجليا مغادرة المكان .

- حسناً سنتجول في المتحف قليلاًونغادر .

ندخل المتحف ، نتجول فيه ، قليل من الوقت ونغادر المكان ، تنادي إنجيليا تعال لنلتقط بعض الصور مع جبران ،ألتقط صورتين أو ثلاثة ونغادر .

وبعد أن ابتعدنا قليلا باتجاه الأرز كانت تراودني الرغبة لأن نعود لجبران ومتحفه لأقضي ليلي فيه عسانيأراه حلماً ليحدثني أكثر ، أو أن تطل لونا من بوابة الحلم ، فنبدد حكاية جبران مع حلا ، أسجل حكايتي مع

لونا، تمنيت العودة للمتحف عسى جبران يتنبأ بمستقبل أفضل ، وبأيام تشرق فيها شمس عروبتنا من جديد .

***

في قلعة جبيل ، وعمشيت

عدنا من متحف جبران وغابة الأرز، رأسي مثقل بالحكايا والصور، وما إن وصلنا البيت حتى دخلت غرفتي ، صداع يعبث برأسي ، يشاكس مخيلتي ، أسأل نفسي، لماذا عدت من هناك ؟ الجمال في بشري أخاذ، وكذا الحال في الأرز ، ليس جمال الصبايا فقط هو الذي يلفت النظر ، ولكن الطبيعة الباذخة بفتنتها ، الناطقة بالإعجاز الإلهي ما زالت تسيطر على عقلي ، أو ربما خطفت عقلي . الآن تسيطر علي الصور ، وتداعبني تلك الأحاديث ، تلك الأسئلة التي ربما كانت ساذجة والتي كنت ألقيها على الصبايا اللواتي أضفن على جمال الأرز جمالاً، وعلى عطر المكان عطر أنوثتهن ، أقلب الصور في هاتفي ، يشتد صداعي ، أطير إلى دنيا من الأحلام ، وأسال نفسي : ماذا لو كنت التقيت بأميرة لبنان ، أو سيدة لبنان ، حورية الأرز لونا، تلك التي تسطع شمسا في كل صباح على ضبية أنطلياس، ماذا تراني سأفعل لو التقيتها ؟، وكيف لي أن أتصرف بحضرتها.

لونا سيدة العطر ، أميرة أنجبتها أرزة فصارت أنثى تزاحم الشمس مكانتها ، لونا ابنة البحر والجبل والأرز، تقطع خيالي إنجيليا وهي تطرق الباب حاملة معها قهوتي والكثير من الشكولاتة اللذيذة ، دخلت وهي تقول : محمد عليك النوم باكراً ، لأننا ستتجه للشمال من جديد ،إلى أين ؟

إلى التاريخ ، إلى البحر ، إلى قلعة جبيل ، إلى شاطئعمشيت .

حسناً، ولكن كيف لي أن أنام وجبران يطاردني ، وذاك الصليب المنتصب في الأرز يشاكس روحي ، ويعبث برأسي.

ذاك الصليب يا محمد، أم مَنْ كُن يتزين بالصليب؟ لا تعتقد بأني كنت غافلة عن نظراتك تلك للصبايا ؟ ولست وحدي من انتبه لذلك ، حتى إنجي انتبهت لخالها.

لا أدري ، هل من شيء في لبنان لا يدعو للانتباه ، أرضه والسماء، الشجر، زقزقة العصافير ، وزينة الحياة ، كل واحدة منها تأخذك من الأخرى وتطير بك بعيداً.

- المهم يجب عليك النوم .

-حسناً سأحاول .

-اشرب قهوتك ، وسآتيك بما يجبرك على النوم .

تركتني وغادرت وأنا أشعل سيجارتي ، وأقف على النافذة أتأمل المارين في الدكوانة ، أتأمل تلك الكنيسة الصغيرة ، والنوافذ التي تحيط بها وتأبى الصور أن تفارق خيالي .

عدت لسريري ، استلقيت ، أتواصل مع الأصدقاء في لبنان وفي عمان ، أحاول أن أنام ولكن الصداع يأبى إلا أن يبقى مسيطراً علي بعد منتصف الليل بقليل عادت أم نجيب ناولتني علبة البيرة وهي تقول : ألم تنم بعد ، لا علينا المهم في التاسعة صباحاً ستبدأ رحلتنا حسنا .

الليل يمر ثقيلاً بطيئاً والصور تنثال ، والنهار يأبى أن يأتي .

في حوالي الثامنة صباحاً خرجت من غرفتي ، حلقت ذقني ، بدلت ملابسي ، وما إن عدت للغرفة حتى وجدت القهوة تنتظرني ، شربتها، ودخنت كثيراً ، وجاء الصوت الملائكي، صوت إنجي،إنجي الملاك الصغير، تنادي يلا خالو، بابا بيستنا عند السيارة .

خرجنا ثلاثتنا، أم نجيب (إنجيليا) ، انجي وأنا،صعدنا إلى السيارة وكان بالانتظار أيضا ابنة أبي نجيب وزوجها وأبناؤها، صعدنا إلى السيارة وامتنعت عن التدخين.

وتبدأ الرحلة نخرج من الدكوانة إلى ميدان جونيه ومن ثم إلى الأوتوستراد، لا شيء يلفت انتباهي ، وتتعلق نظراتي إلى جهة اليمن

وكلي أمل أن ينحرف إلى اليمين ، ولكنه تابع المسير نحو الشمال ، نصف ساعة أو أكثر بقليل حتى وصلنا إلى حاجز للتفتيش ، لم نتوقف وتابعنا مسيرنا وقت قليل وكنا نتوقف ، نهبط من السيارة أمام قلعة تحمل من المهابة الكثير ، أم نجيب تقول هذه قلعة جبيل ،هنا يسرقني التاريخ ، هنا كان الفينيق يعلمون العالم رسم الحرف ، هنا البحر يغازل الصمود والتاريخ ، هنا أستذكر تلك الأميرة التي فرت من صور لتبني مملكة قرطاج ، إلى هنا أتى الرومان والبيزنطيون ، إلى هنا أتى صلاح الدين ليهدم أجزاء من هذه القلعة ، وإلى هنا جاء الفاطميون ، والعثمانيون ، هنا شاهد على التاريخ، هذه القلعة التي بناها الفرس ، ومن ثم الصليبيون ، يا الله كم وهبت لبنان ، جمال وتاريخ .

هنا في هذه القلعة كان للحرف الفنيقي أن يولد ، ويعلم الإنسانية الأبجدية،هنا جبيل عاصمة التاريخ والإنسانية ، هنا جبل لبنان أول الجمال ،أول الشعر، أول الحروف ، هنا هذا الشيخ الكبيريداعب بعباءته صخور الشاطئ المقابل ، هنا الناس يدخلون إلى القلعة ولا يخرجون ، أحاول الدخول ..فيقول أبو نجيب:لا تدخل محمد.

لماذا ؟

لأنك إن دخلت لن تخرج إلا بعد وقت طويل، ولا وقت أمامنا.

حسناً.

نعود إلى السيارة وأنا أتأمل المكان وأسأل نفسي : أي قوم كانوا هنا أي حظ نالوا وهم يستمتعون بكل هذا الجمال؟

كيف لا يبدعون ، وكيف لا يكونوا أول من كتب ، وهم على عتبات هذا الشيخ الملهم وهذه الزرقة تحيطهم من كل الجهات ، من فوقهم ومن أمامهم ، عن يمينهم وعن شمالهم ، تخالطها الخضرة وعيون النساء؟

نصعد إلى السيارة ونتجه إلى عمشيت ، وتحديداً إلى فندق لاراشيل ، نهبط من السيارة ،وقد سبقنا صهر أبي نجيب وعائلته إلى الفندق ، أتأمل هذا المكان ، شيء من النفور يصيبني ، وأسألني : لماذا لم نبق في القلعة نستذكر ما رحل من حضارتنا وعظمة الأجداد ؟

نعبر البوابة الرئيسية للفندق ، يناول أبو نجيب بطاقة الاشتراك لموظفة الاستقبال ونعبر .

يا إلهي من أين أتى هذا الكم من الناس ، ماذا يفعلون هنا ؟

البحر يداعب برفق الشاطئ الصخري ، والنساء شبه عاريات يدخلن المسبح الخارجي ويخرجن منه، نسيت نفسي ، ونسيت من معي لهذه الأجساد التي تغرق في الماء وتخرج لتداعبها خيوط الشمس . آه لو كنت بعضاً من هذا الماء لأغتسل بأجسادهن، لأتسرب إليهن.

يا إلهي ما الذي يبقيني جالساً، لم لا ألتقط الصور لهن ، لأضيفها لألبومي،وأعاود السؤال لنفسي: هل لونا بينهن، من هي؟ ربما هي تلك الطويلة، أم تلك النحيلة، ما بي؟ لوكانت بينهن لعرفتني ، وأتت لتسلم علي وتعرفني بنفسها .

حاولت التقاط بعض الصور لتلك الحسان اللواتي لا يرتدين إلا لباس السباحة،نهرني موظف الأمن بقوله ممنوع التصوير إلا بإذنهن ،أعود لمكاني وأنا أغرق ببحرمن الخجل ، تسألني أم نجيب، لماذا تغير لونك محمد ؟

لا شيء.

مرالوقت وعدنا للبيت، والصور التي التقطتها للسابحات ببحر الجمال من خلال تصويري لأبي نجيب ، وأم نجيب .

نعود للبيت ، نتناول عشاءنا ، نسهر لبعض الوقت نتحدث بما مر في يومنا، أشرب القهوة ،أدخل غرفتي ، لأغرق في بحرمن الأحلام من خلال استعادتي للصور التي التقطتها .

أتصل بلونا من خلال الفيسبوك ، وأحدد موعداً للقائها في صباح الغد، فتسألني: هل الآن خطرت ببالك، حسناً غداً في العاشرة صباحاً نلتقي وحددت المكان.

دخلت أم نجيب إلى غرفتي ، وأخبرتها بما دارمع لونا وعن الموعد ، قالت حسناً قابلها ففي اللقاء يكون الحنين ، والحنين دوماً يخلق ذاكرة جميلة.

***

لقاء لونا ووداع لبنان

عدنا من عمشيت والذاكرة لا تحمل في صفحاتها إلا صورة لقلعة جبيل، القلعة التي بقيت شاهدة على زمن مر منذ بناها الفرس، وحتى هدم أجزاء منها صلاح الدين؛ ليعود العثمانيون لترميمها، وستبقى شاهدة على زمننا هذا وما يأتي بعده.

قلعة جبيل، عروس البحر، وحارسة ذكرياته ،عين على البحر، وعين على اليابسة خلفها، قلعة جبيل هي التي بقيت في الذاكرة من رحلة اليوم، إضافة للطف السيد مراد (أبو نجيب) وإنجيليا، وإنجي، وأحفاد أبونجيب وصهره وابنته تلك التي بقيت طول جلستنا في فندق لاراشيل وهي صامتة .

عدنا للبيت في الدكوانة، لا أشعر بشيء إلا بحاجة للضحك ، ولكن على ماذا أضحك، وما يضحكني وأنا في أكثرلحظاتي توتراً؟ لماذا الضحك وأنا بعد غد سأودع لبنان؟ سأودع الملائكة هنا، لماذا الضحك وكل أحاسيسي تبكي؛ لأني سأخسرهذا الجمال الذي لن تبقى منه إلا الذكرى ووحده العلي القدير من يعلم إن كنت سأعود إلى هنا أم لا ؟

انتهت زيارتي وكثير من هذه الجنة لم يسعفني الوقت بزيارتها، أحاول الخروج من حالة الارتباك التي أصابتني أو التي سكنتني بالحديث مع لونا ، وآه من لونا إن مر طيفها بالعين، آه من لونا الملاك، الذي عرفته من خلال مواقع التواصل الاجتماعي (الفيسبوك)، هذا الموقع الذي من خلاله توطدت علاقتنا، لونا ، وآه من لونا، التي تحتل مكانة شاسعة من الذاكرة ، هل حقا سألتقي بها؟ هل حقا سأعانقها؟ ويشتعل جمر السؤال، نعم لونا التي تهربت من لقائها كثيراً.

أجلت موعد اللقاء بها كثيراً ومنذ أن وصلت ، الآن تشتاق لرؤياها وتعد الساعات للقائها ، أليست هي لونا التي طلبت أن تحضر للمكان الذي تقيم فيه وتحججت كثيراً بمرافقيك من الأردن، وأنت الذي لم يرافقك إلا صورة إنجيليا، وصورة لونا، تحدثت إليها، وحددت لي المكان والزمان الذي سنلتقي به .

سألتها: كيف سأصل إلى هناك؟

قالت: أي تكسي توصلك لهناك، فالمكان معروف للجميع .

حسناً لونا غداً في الموعد سأكون هناك، دخلت إلى غرفتي، استلقيت على سريري، لا شيء في ذهني إلا سيدة الذاكرة، النبضة الباقية في

القلب، تتجلى صورتها في الذاكرة، أحاول أن أعد تلك الحسنات أو الشامات التي تزين صدرها، لم أنجح في عدها فمرة أعدها سبع حسنات ومرة تسع، ومرات تتجاوز العشرين، تباً لك من ذاكرة استقري على صورة معينة .

تدخل الأخت والصديقة الأروع إنجيليا وبيدها فنجان قهوتي، وذلك المشروب الرائع،تلاحظ ابتسامتي،تسألني : كيف جمعت بذات الوقت يا محمد بين العبوس والابتسام ؟

- لندع العبوس، وأسألك عن سر ابتسامتك هذه والتي لم تعكسها ملامحك.

- فقلت: غداً في العاشرة صباحاً سأكون على موعد مع لونا؟

- أين ؟

- بجانب مجوهرات وديع مراد .

- وهل تعرفها؟

- أملتني العنوان .

- قالت : أين ؟

الأوتوستراد، منطقة المتن،نتحدث قليلاً عن لونا، وتطلب مني أن أصفها.

قلت : وكيف توصف النار بأكثر من أنها حارقة، وكيف يوصف النبيذ بأكثر من شهي، وبماذا توصف الشمس غير أنها النور الكامل، والبعد واستحالة الوصول ؟

رنت ضحكة إنجيليا، وضحكت لضحكتها ، وقالت دعك من لونا، ودع لونا للحلم تراها فيه كيف تشاء.

وإن لم أنم ، سأناديك، وأطلب قهوتي وبيرتي الشهية.

قالت : أنا ساهرة حتى الصباح .

قرأنا بعض الهلوسات ، ونناقش بعض ما يجول في خاطر الإنسان في لحظات الغضب ، ولحظات الفرح ، كيف يكون عندما يتأجج فيه الحب ، أو عندما تزوره الحيرة، عند منتصف الليل غادرتني إنجيليا وهي تقول أتركك لتبقى مع لونا في ليلك هذا .

أتناول علبة البيرة ، وأبقي نصف فنجان القهوة ، أشعل سيجارتي ، أطفئ أنوار الغرفة، وأحاول التواصل مع لونا ، لعلها تهديني كلمة قبل أن أغفو، أبعث برسالتي القصيرة إليها ولم يأت الرد ، أنهض من

مكاني ، أقف على النافذة وإذا بإنجيليا تجلس على الشرفة ، أعود أدراجي وأستلقي على سريري وسيجارتي بيدي ، أصحو من غفوتي على لسعة السيجارة ، أشرب ما تبقى من القهوة ، أطالع الصور على هاتفي ، أدخل إلى صفحة لونا ، أذهب إلى ملف الصور ، تلفت انتباهي صورة ، أتوقف عندها وأبدأ حديثي معها .

لم أشعر بنفسي إلا وإنجيليا تنادي وتقول الساعة الثامنة والنصف محمد ، انهض لتتناول الإفطار وتستعد للقاء لونا، الملاك الصغير إنجي تسألني عن لونا ، فأنظر إلى الجهة الأخرى وأشغل نفسي بفنجان قهوتي ، وهي تقول خالي من هي لونا ، كيف عرفتها ، هل وهل وألف هل طرحت .

أنهض من مكاني تنادي إنجي ، انتظر خالو ، سأطلب لك تكسي هي خاصة ، توصلك للمكان الذي تريد ، حسناً فقط لا يتأخر .

قالت انتظره عند مدخل العمارة ، ولا تنسأن تبقي سيجارتك بيدك

لماذا؟

لأني وصفت ما تلبس للسائق ، وأخبرته بأن السيجارة ملتصقة بيدك لا تتحرك إلا باتجاه فمك فقط .

انتظرت ربما عشر دقائق أو يزيد حتى وصل السائق ، أعطيته العنوان ومضى ، صوت فيروز يصدح ، وأنا أرسم صور لونا على أنغامها، وصلت للمكان المحدد قبل الموعد ، انتظرت بجانب مجوهرات وديع مراد ما يزيد عن النصف ساعة، أراقب الشارع ، وأسأل نفسي كيف ستعرفني ؟وأجيبني، من الصور، كيف والصورة تختلف عن الأصل؟ وفي خضم تساؤلاتي تقف إلى جانبي سيارة " بي أم دبل يو"، جيب أسود ، نظرت إليها، وشهقت، دمعتي وابتسامتي تختلطان!!!

قالت محمد ، نعم يا لونا ، قالت اصعد ، وصعدت ، أحضرت القهوة والخبز المحشو بالكنافة ، وسرنا ، دخلت إلى صالون تجميل ، انتظرتها حتى خرجت ، وعندما صعدت فاجأتني وهي تقول (نسيت بوسك) وقبلتني ثلاثا وقبلتها ثلاثا ، عيني على تلك الشامات ، أحاول أن أتحسسها ، أحاول أن أداعبها ، ولكن الخجل اشتد بي أكثر مما يجب .

هبطنا بالقرب من أحد الفنادق ، التقطنا الصور ، وبعدها قالت يااااااااه محمد مر علينا أكثر من ثلاث ساعات يجب أن أعود للبيت ، يا الله ، قبل قليل كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف

والآن اقتربت من الثانية بعد الظهر ، كيف مر الوقت ، لا أدري ؟ أوصلتني لجسر جونيه ، ولم أعد أميز الشارع من الرصيف فاتجهت للشارع، صرخت ما بك ؟

انتبهت لنفسي،وقلت لا شيء .

تركتني هناك بعد أن أخذت مني النفس ،وما تبقى من الروح وغادرت، عدت للدكوانة، أم نجيب في البيت ، طرقت الباب فتحت، اتجهت للغرفة مباشرة،استلقيت على السرير ، أم نجيب تقف على الباب، وتسألني لم تأخرت؟

قلت:شعرت بأن الوقت مر سريعاً.

قالت خشيت أن لا تستدل على البيت ، قلت كيف ؟وهل من كائن مر بالجنة أن ينساها، غفوت حتى الثامنة مساء ، نهضت من سريري ، لملمت حوائجي ، وأحضرت إنجيليا لي بعض الهدايا ، وقالت لي يجب أن تنام محمد ، غدا رحلة طويلة وشاقة وانتظار طويل .

حسناً، بقيت على تواصل مع لونا حتى شروق الشمس، أسأل نفسي أين هذه الجرأة ، في وقت اللقاء ، لماذا سكنك أو أغرقك

الخجل في حضرتها؟ لا أدري أجيب على نفسي،ربما خجلها هي الذي دفعني لذلك ، ربما ارتباكها ، ربما كانت خائفة مني، لا أدري.

في الثامنة صباحاً ، خرجت من غرفتي وحقيبتي بيدي ، جلسنا حتى الحادية عشر في البيت ، القهوة لم تفارقني وسيجارتي لم تنطفئ، أحدث نفسي ، كيف لي أن أمدد رحلتي إلى لبنان ، وكيف ذلك، نهض أبو نجيب من مكانه ، وقال هيا ، يجب أن نكون في المطار قبل الرحلة بساعتين على الأقل ، نهضنا ، هبطنا من الطابق السادس ، أدار محرك سيارته وأنا أدعو العلي القدير أن لا يعمل المحرك .

صعدنا للسيارة وسرنا ، ودعني أبو نجيب وإنجيليا على بوابة المطار ، أدخله وأدعو الله أن تتأجل الرحلة ، أو يحدث أي شيء قبل أن يحين موعد الرحلة ليتم تأجيلها، ويأتي النداء ، واختم جواز سفري ، نصعد للطائرة ، وأنا أكرر دعائي بأن تتحطم الطائرة قبل أن تغادر أجواء لبنان ، أدعو الله أن تسقط في البحر لنتوحد جميعا بزرقته .

يا الله ، أسبوعان مرّا، وكثير من الساعات طارت ، ليالي التجلي والفرح غادرت، اكتظت الذاكرة بالكثير الكثير من الحكايا والصور،

ليت بإمكاني إضافة ذاكرة أخرى ، بقي من لبنان الكثير من المناطق التي أسمعها تناديني ، هناك صور في الجنوب ، وطرابلس وبعلبك وزحلة في الشمال . هل في العمر متسع لزيارتها ، والغرق فيها ، هل في العمر متسع للقاء إنجيليا وأبي نجيب وأنجي ، للقاء إلياس القزي وسيدة الفرح لونا.

***

ملاحظة هامة:

أبو نجيب كم تمنيت أن أبقى معكم ،ابناً،أخا ، لأني معكم نسيت الدنيا، وهنيئا لمن كنت أبا أو أخا له.

***

تمت بعون الله وتوفيقه

رواية (مجنون في مدن مجنونة)

تنسيق وإخراج: محمد فتحي المقداد

للتواصل (rafy2bos42@yahoo.com

***

المؤلف في سطور

*محمد حسين الصوالحة مواليد ديرعلا (الصوالحة) عام 1965 محرر في صحيفة بناة المستقبل بجريدة الأسواق (سابقا) عضو مؤسس في أسرة الأدباء الشباب

شارك وأدار العديد من الأمسيات الشعرية وخصوصا مهرجانات الفرسان الابداعية، كما شارك في عدد من الأمسيات الأدبية.

*التكريمات : حاز العديد من الدروع والشهادات التقديرية من عدد من الملتقيات الأدبية.

*صدر له:

كتاب مذكرات مجنون في مدن مجنونة 2018

كتاب كلمات مبتورة 2019

*له مخطوطان:

-رحلة إلى أميسا(رحلة إلى عينيها)

-وبكت لونا.

مؤسس ورئيس تحرير موقع آفاق حرة للثقافة، بالإضافة إلى أنه مصور فوتوغرافي.

***

للتواصل مع المؤلف

الإيميل (lutus2000@gmail.com)

الواتساب (00962796339607)

الفهرس

الموضـــــــــــــــوع	رقم الصفحـــــة
إهداء خاص	5
تقديم	7
في الفسطاط	9
لقاء فاطمة	15
في القاهرة	25
الجيزة والأهرامات	49
على ضفاف النيل	50
السلط	73
دير علا مع الاعتذار	79
في طريق العودة	89
في حضرة الحارث	95
رحلة إلى الله	105
في رحاب رسول ومدينته الطاهرة	127
في ظلال الياسمين	147
ليالي الشارقة	189
في حضرة النخيل	247

أنا وبيروت والجنون	263
من البيت إلى المطار	267
من المطار إلى المطار	271
من مطار رفيق الحريري إلى الدكوانة	277
إلى الجنوب	285
العودة من الجنوب إلى بيروت	299
إلى مار روكز	307
جعيتا والإعجاز الإلهي	313
إلى قضاء الشوف	323
ليلة خارج حدود الزمن	333
في قلعة جبيل وعمشيت	347
لقاء لونا ووداع لبنان	355
المؤلف في سطور	365

آفاق حرة
الحقوق محفوظة للموقع
صحيفة الكترونية